ما الحاجة إلى خبرتك؟
أي أحد يمكنه أن يعثر على ما يشاء
على الإنترنت!

كتاب! أستطيع الحصول على كل ما أحتاجه
من معلومات على الإنترنت مجانًا؛ شكرا لك

توم نيكولز

موت الخبرة

هل أنت متأكد من أنك
خبير فعلًا بهذا الأمر؟!

وفقًا لبحثي
الخاص على الفيس بوك
فأنا أرى...

لماذا يتباهى الناس بالجهل؟

انتبه أنت تستخدم
مغالطة الاحتكام إلى السلطة!

ترجمة: عمر فايد

لماذا يجب علينا أن نلقي بالًا لما
يقوله هذا الذي يُدعى "خبير"؟؟

لقد شاهدت مقطع فيديو مدته دقيقتين
حول هذا الأمر. عليك أن تشاهده لتفهم الموضوع.

موت الخبرة

لماذا يتباهى الناس بالجهل؟

توم نيكولز

موت الخبرة

لماذا يتباهى الناس بالجهل؟

ترجمة

عمر فايد

منشورات نادي الكتاب

موت الخبرة: لماذا يتباهى الناس بالجهل؟

تأليف: توم نيكولز
ترجمة: عمـر فايـد

الطبعة الأولى - 2024
978-603-92037-2-8
رقم الإيداع: 1444/10741

هذا الكتاب ترجمة لـ «The Death of Expertise»
Tom Nichols
Oxford University Press, 2017

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

منشورات نادي الكتاب
المملكة العربية السعودية - الرياض
طريق الملك عبد العزيز - مجمع الفناء الخلفي
publications@club-book.com

يُمنَع نسخ أو إرسال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات أو استرجاعها دون إذن خطي من الناشر.

يمكنك شراء الكتاب من الموقع
www.club-book.com
@BC__Pub

(جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تُعبِّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها)

الفهرس

كلمة المترجم 7
تمهيـد 11
توطئة: مـوت الخبـرة 21
1. الخبراء والمواطنون 39
2. كيف صارت المناقشات مُرهقة؟ 79
3. التعليم العالي: الزبون دائمًا على حق 123
4. دعني أبحث عن هذا على جوجل من أجلك
كيف تجعلنا المعلومات المطلقة أغبى؟ 175
5. الصحافة الجديدة «الجديدة» وفيض منها 219
6. عندما يخطئ الخبراء 275
خاتمة: الخبراء والدّيمقراطية 333
الهوامش 376

■

كلمة المترجم

صنع الغرب صنمًا من عجوة وأسماه: "الدّيمقراطية"، ذلك النّظام الذي يتساوى فيه رأي الجاهل مع العالم، والمدفوع بعواطفه مع المدفوع بحساباته المتعقلة، ولم يعد يجرؤ أحد أن يتعرض لهذا الصنم بالجرح والتعديل من شعوب العالم الثالث وإلا التهمه قرود الغرب بيننا. من يحاكون السيد المهيب شبرًا بشبر وذراعًا بذراع. لكن في هذا الكتاب أزعم أنَّ المؤلف وضع يده على لبِّ المشكلة التي تكاد أن تفتك بمجتمعهم، مُفرقًا بين الدّيمقراطية والنّظام الجمهوري الذي تأسست على إثره دولتهم (أمريكا)، والذي لا يعني أبدًا أحقية الجميع في اتخاذ قرارات بشأن أعقد المواضيع، لكنه أعلن أهمية هذا النّظام ووجوب احترام الخبراء لآراء العامة (إن أدّوا واجبهم واطلعوا على مجريات الأمور من حولهم) حتى لا يكون البديل نظامًا تكنوقراطيًا. ربما يكون الدرس الأهم الذي تلقنه جيلنا أن أي حق أفشل من أن يصمد دون قوة تحميه، وأن الدّيمقراطية التي فشلت في جلب الاستقرار الاجتماعي في عقر دارها لن تفلح مع الغالبية بيننا ممن يحتكمون لأهوائهم والكيد بالباطل

مع من يخالفهم، في رأيي الشورى بين أهل الحل والعقد (بمصطلحات الكاتب أهل الخبرة وصناع القرار السياسي) هي أصوب السبل، ولا يكون اختيارهم بوهم الانتخاب من الدهماء والعامة، لكن بتاريخهم ومواقفهم، أما آلية ذلك الاختيار، فتكون لقاعدة عريضة لديها حد أدنى من المعرفة والاطلاع كما ذكر المؤلف، أما الوصول إلى هذه الآلية، فمتروك لفرص تاريخية قادمة، كتلك التي عاصرها جيلنا.. وتفلتت من بين يديه. هذا التصور سيتبعه غضب وسخط ممن كان خيارهم الباطل عندما اقترن بمحض قوة، وغضبهم هذا سيترجم إلى معارضة غير سلمية وقتها يكون الدرس الثاني الذي تعلمناه منهم.. الاستبداد في حماية الحق هو الحل ضد من استبدوا في حماية الباطل.

نعم، تموت الخبرة أمام طوفان الدعاية وصخب العامة، ويكفن العارفين حينما يتصدر المشهد كل تافه وسخيف، وفي هذا الكتاب يستدل توم نيكولز بمشاهد وأحداث من مجاله وموطنه ستجد أكثر من مثال عليها في بلداننا وتشابهًا كبيرًا مع ما نمر به الآن من انطفاء بريق العلم وخفوت بريق الخبراء، واحتفاء أهل الجهل بجهلهم. وليس هذا الطرح ببعيد عن الخلاف بين الإمام محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني، فقد كتب محمد عبده في جريدة الوقائع اعتراضًا على الانتقال الفوري للنظام الدّيمقراطي: "إن أحوال الأمم هي المشرع الحقيقي، فإن انتقال فرنسا مثلًا من الملكية المطلقة إلى المقيدة، ثم إلى الجمهورية الحرة لم يكن بإرادة أولي الحل

والعقد فقط، بل المساعدة الأقوى حالة الأهالي، وهذا ما جعل عقلاء النَّاس يجتهدون أولًا في تغيير الملكات وتبديل الأخلاق عندما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظامًا محكمًا، فيقدمون التربية الحقيقية على ما سواها". وثقافة المواطن ليست من قراءة كتاب، بل من مشاهدة برامج (صارت غالبيتها ممولة لتأييد توجهات محددة)، وفي أحسن الأحوال قراءة صحف (باتت تشغله بما يذهب جفاءً) أو من وسائل التواصل الاجتماعي التي سيطر صراخ وعويل كل طرف فيها على معظم محاولات الخبراء لإيصال أي معلومة.

الكتاب فرصة لإعادة كل طرف إلى نصابه، وإنزال النَّاس منازلهم.. موت الخبرة، توم نيكولز.. قراءة ممتعة.

تمهيـد

«موت الخبرة» هو أحد تلك العبارات التي تفصح إلى حدٍّ كبير عن مدى أهميتها.

إنه عنوان يُخاطر باستبعاد عدد من النَّاس قبل أن يفتحوا دفتي الكتاب، بل يكاد أن يتحدى القارئ حتى أن يكتشف خطًأ فيه في مكانٍ ما فقط لأجل أن يجعل المؤلف يجثو على ركبتيه. أتفهم رد الفعل هذه؛ لأن نفس المشاعر تنتابني حيال التصريحات المماثلة المتفشية في كل مكان، فحياتنا الثقافية والأدبية مليئة بمراسم الدفن السابقة لأوانها هذه لكل شيء: الخجل، والحس العام، والرجولة، والأنوثة، والطفولة، وحسن الذوق، ومعرفة القراءة والكتابة، والفاصلة التسلسلية، وما إلى ذلك. وعليه، فإن آخر ما نريده جميعًا هو مزيد من الرثاء لشيءٍ نعرف أنه لم يمت بالكلية.

ومع أنَّ الخبرة لم تمت، إلَّا أنها في ورطة على أي حال، ثمة شيء ينذر بكارثة وشيكة، فالولايات المتحدة الآن دولة مهووسة بعبادة جهلها، لا يتعلق الأمر بأن النَّاس لا يعرفون

كثيرًا عن العلوم أو السياسة أو الجغرافيا؛ إن عدم إحاطتهم بتلك ليس بالأمر الجديد، بل إنها الأشياء مشكلة قديمة. وحقًا إنها ليست بمشكلة على الإطلاق، طالما أننا نعيش في مجتمع يعتمد في قوامه على تقسيم العمالة، ذلك النّظام المُصمم ليرفع عن كاهل كل منا عبء معرفة كل شيء. الطيارون يقودون الطائرات، ويرفع المحامون الدعاوى القضائية، ويصف الأطباء العقاقير. لا أحد منا دافنشي يرسم الموناليزا في الصباح، ويصمم طائرة مروحية في المساء، تمامًا كما كان الأمر من ذي قبل.

كلا، المشكلة الأكبر أننا فخورون بعدم معرفتنا بالأشياء، لقد وصل الأمريكيون إلى الدرجة التي يكون فيها الجهل، خاصة بأي شيء له علاقة بالسياسة العامة، عبارة عن فضيلة حقيقية. عندما نرفض نصيحة الخبراء، فإننا نؤكد الاستقلالية الذاتية، هذه هي طريقة الأمريكيين التي يعزلون بها الأنا بداخلهم التي تزداد هشاشة عن أن يقال لهم أبدًا: إنهم مخطئون في أي شيء. إنه إعلان استقلال جديد: فما عدنا نتشكك في تلك الحقائق، بل نصدق ببداهة كل الحقائق، حتى المنافي للحقيقة منها. فكل الأشياء يمكن معرفتها وكافة الآراء في أي موضوع وجيهة بقدر أي رأي آخر.

وليس هذا مماثلًا لنفور الأمريكي الأصيل من المثقفين والعارفين ببواطن الأمور، فأنا أستاذ جامعي وأتفهم هذا: معظم النَّاس لا يحبون الأساتذة الجامعيين. ومن ذلك، عندما بدأت في مسيرتي المهنية بالتدريس منذ قرابة ثلاثة عقود، كان ذلك في كلية قريبة من بلدتي، وهكذا كنت أتوقف من آن لآخر

لألقي التحية وأزور حانة صغيرة يملكها أخي. في إحدى الأمسيات، وبعد أن غادرت، التفت إلى أخي أحد زبائنه الدائمين، وقال: «أهو أستاذ جامعي؟ أليس كذلك؟ حسنًا يبدو شابًا صالحًا على أي حال»، لو كنت تعمل في مهنتي لاعتدت على هذا.

لكن ليس هذا سبب تأليفي ذلك الكتاب، فالمثقفون الذين يغضبون من التعليقات الصادمة عن عدم فائدة المثقفين يجب أن يبحثوا عن مجال عمل مختلف، لقد عملت أستاذًا ومستشارًا سياسيًا وخبيرًا متخصصًا لكل من القطاع الحكومي والخاص، ومعلقًا على عديد من المنصات الإعلامية. واعتدت على أن يخالفني النَّاس الرأي؛ في الواقع، أنا أشجع هذا. فالنقاشات القائمة على أسس والمُستندة إلى معلومات علامة على الصحة الفكرية وحيوية الدّيمقراطية.

لكني أكتب هذا لأنني أشعر بالقلق، لم نعد نتحلى بمهارة النقاش المستند إلى أسس ومعلومات. فالمعرفة الأساسية للشخص الأمريكي العادي وصلت إلى درجة متدنية لدرجة إنها تخطت حاجز «الجهل البسيط»، لتصل إلى «الجهل المركب» والآن انحطت إلى مستوى «الحياد التام عن الصواب»، فالنَّاس لا يؤمنون بأشياء غبية فحسب؛ لكنهم يقاومون تعلم المزيد عوضًا عن التخلي عن تلك المعتقدات. لم أعش في العصور الوسطى، لذلك لا يمكنني القول: إن هذا الوضع لم يسبق له مثيل، لكن طوال حياتي لا أتذكر أني رأيت أبدًا أي شيء مماثل.

هذا القول لا يعني بأن تلك هي المرة الأولى التي أفكر فيها على الإطلاق في ذلك الموضوع، ففي ثمانينيات القرن العشرين عندما كنت أعمل في واشنطن العاصمة، عرفت كيف كان يندفع النَّاس حتى في المحادثات العادية ليرشدوني عما ينبغي فعله في أي عدد من المجالات، لا سيما في مجالاتي الخاصة بالحد من انتشار الأسلحة والسياسة الخارجية. (وكما هو معتاد، كان الأمر يتعلق بما ينبغي «عليهم» فعله، كقولهم «يجب عليهم...») كنت شابًا ولمَّا أكن خبيرًا محنكًا بعد، لكني ذهلت من الطّريقة التي يرشدني بها هؤلاء الأشخاص بثقة الذين يفتقرون إلى المعرفة الأولية بشأن تلك المواضيع وعن أفضل السبل التي يمكنني بها إحلال السلام بين موسكو وواشنطن.

إلى حدٍّ ما، كان هذا مفهومًا. فالسياسة تستدعي الجدال، لاسيما خلال الحرب الباردة، عندما تميل الكفة إلى الدمار العالمي، يود النَّاس أن يلقوا آذانًا صاغية. وأنا أقبل أن هذا كان مجرد جزء من تكلفة أداء وظيفة في مجال العلاقات العامة. ومع مرور الوقت عرفت أن مختصين آخرين في مجالات سياسية متعددة مروا بالتجارب ذاتها، مع أناس عاديين يلقون عليهم خُطبًا تفتقر إلى المعلومات عن: الضرائب، والميزانية، والهجرة، والبيئة، وعديد من الموضوعات الأخرى، لو كنت خبيرًا سياسيًا، فهذا الأمر جزء طبيعي من وظيفتك.

مع ذلك، في السنوات التالية، بدأت أسمع القصص نفسها من أطباء ومن محامين ومن مدرسين، وصار جليًا أن القصص نفسها يكررها على مسامعي عدد من المهنيين المختصين

الآخرين الذين لا يمكن معارضة نصائحهم بسهولة. وقد هالتني تلك القصص: لم تكن عن مرضى أو عملاء يطرحون أسئلة منطقية، بل عن المرضى والعملاء أنفسهم الذين يخبرون المختصين بهمة وحيوية عن سبب خطأ مشورتهم. وفي كل حالة تقريبًا ترفض رفضًا باتًا فكرة أن الخبير عرف ما كان يفعله.

الأسوأ من ذلك، ما أذهلني بشدة في تلك الأيام ليس أن النَّاس يرفضون الخبرة، لكن المذهل هو رفضهم لها بهذا التكرار وفي شتى المواضيع وبهذا الغضب. مرة أخرى، ربما لأن الهجوم على الخبراء بات أكثر وضوحًا؛ نظرًا لانتشار الإنترنت، والطبيعة غير المنضبطة للنقاشات على وسائل التواصل الاجتماعي أو متطلبات الدورة الإخبارية التي تستمر لأربع وعشرين ساعة. لكن هذا الرفض المُستحدث للخبرة المصحوب بتزكية النفس والغضب يشير على الأقل بالنسبة لي أن هذا ليس مجرد انعدامًا للثقة أو تشكيك أو سعي للبدائل: إنها نرجسية مصحوبة بازدراء للخبرة وكأنه نوع من التدريب على تحقيق الذات.

هذا يصعب الأمر أكثر على الخبراء أن يقاوموا وأن يصروا على أن يعود النَّاس إلى رشدهم. فمهما كان الموضوع سيذهب النقاش دائمًا أدراج رياح الأنا الساخطة وينتهي المطاف بعدم تغير العقول، وأحيانًا مع تضرر العلاقات المهنية أو حتى الصداقات. عوضًا عن الجدال ينبغي على الخبراء اليوم أن يقبلوا تلك الاختلافات على أنها في أسوأ حال اختلاف أمين في الرأي، يفترض أننا «اتفقنا على ألا نتفق»، وهي جملة لم

تعد تستخدم الآن إلا كمطفأة حرائق للمناقشات بلا تمييز. ولو أصررنا أنه ليس كل شيء مسألة رأي وأن بعض الأشياء صائبة والبعض الآخر خاطئة... حسنًا، سنكون عندها مجرد حمقى، على ما يبدو.

من المحتمل على ما أفترض أنها مجرد أعراض تغيرات أجيال، لقد ترعرعت بين حقبتي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهو عصر كان يولي اهتمامًا كبيرًا للخبراء. تلك الأيام المندفعة التي لم تكن فيها أمريكا في طليعة العلوم فحسب، لكن في الريادة العالمية أيضًا. كان والداي واسعي الاطلاع، ولكن غير متعلمين مثل معظم الأمريكيين، فافترضوا أن نفس الأشخاص الذين أرسلوا إنسانًا إلى القمر صادقين على الأرجح في معظم الأمور المهمة الأخرى، لم أُربَّ في بيئة الانصياع التام للسلطة، لكن عمومًا، كانت عائلتي عادة تثق بأن النَّاس الذين يعملون في مجالات متخصصة يعرفون ما يفعلونه، بداية من طب الأقدام ووصولًا إلى السياسة.

أو كما يشير منتقدو الخبراء على الفور، في تلك الأيام كنا نثق بالأشخاص الذين أرسلوا نيل أرمسترونج (Neil Armstrong) إلى القمر الهادئ، لكنهم أرسلوا أيضًا رجالًا أمريكيين أقل شهرة إلى أماكن مثل: خي سانه ووادي أيا درانج بفيتنام. لم تكن ثقة العامة في كلّ من الخبراء والقادة السياسيين تُوضع في غير محلها، بل كانت تنتهك.

أما الآن، فقد أصبحنا نسير في الاتجاه المعاكس، ليست

لدينا درجة الشك الصحية تجاه الخبراء: بل عوضًا عن هذا نمتعض منهم بشدة، إذ يفترض عدد من النَّاس أن الخبراء مخطئون ببساطة لمجرد أنهم خبراء. فننفجر غاضبين في وجه «الفهامين» -وهي كلمة ازدرائية عادت إليها شعبيتها مجددًا- بينما نستشير أطباءنا عن أي العقاقير التي نحتاج إليها، أو بينما نصرُّ على صواب المعلمين الذين يخضع أطفالنا لاختباراتهم حتى وإن كانوا مخطئين. فليس الجميع بنفس مستوى ذكاء البقية فحسب، لكننا جميعًا نعتقد أننا أذكى الأمم على الأطلاق.

ولا خطأ يفوق هذا.

يُوجد عدد من النَّاس واجب عليّ شكرهم لمساعدتهم لي في هذا الكتاب، وأناس أكثر أحلهم من أي رابط بينهم وبين آراء أو استنتاجات هذا الكتاب.

في بادئ الأمر كتبت منشورًا يُدعى: «موت الخبرة» على مدونتي الشّخصية، The War Room، في العام 2013. وقد لاحظ هذا المنشور شين ديفز (Sean Davis) من مجلة (The Federalist)، واتصل بي من أجل كتابته على شكل مقال. أنا شاكر لشين ومجلة (ذا فيديراليست)، على إيجاد مأوى لتلك المقالة التي سرعان ما قرأها أكثر من مليون شخص حول العالم. عندئذٍ اطلع ديفيد ماكبرايد (David McBride) من دار نشر جامعة إكسفورد على المقال، واتصل بي بدوره لتحويل فكرته الأساسية إلى كتاب. وقد كان إرشاده التحريري ونصيحته

عوامل رئيسة جعلت الجدال يتسع ويصل إلى آفاق أكبر، وأنا شاكر له ولجامعة إكسفورد، فضلًا عن المراجعين المجهولين لمقترح الكتاب الذين جعلوا هذا الكتاب يُؤتى أكله.

كما أني محظوظ لأني عملت في جامعة الحرب البحرية الأمريكية، وعدد من زملائي هنا، بما فيهم: ديفيد بورباك (David Burbach)، وديفيد كوبر (David Cooper)، وستيف نوت (Steve Knott)، وديريك ريفيرون (Derek Reveron)، وبول سميث (Paul Smith) من بين آخرين الذين أمدوني بالتعليقات والمواد. لكن الآراء والاستنتاجات في هذا الكتاب تخصني، إنها لا تمثل بأي حال آراء أي مؤسسة من المؤسسات الأخرى، أو أي وكالة في الحكومة الأمريكية.

وقد تكرم عدد من أصدقائي ومن يراسلونني في عدد من المهن لإمدادي بالتعليقات أو قراءة فصول من الكتاب أو الإجابة على الأسئلة الخارجة عن مجال تخصصي، ومنهم: آندرو فاسيني (Andrew Facini)، ورون جرانيري (Ron Granieri)، وتوم هينجفيلد (Tom Hengeveld)، ودان كاسزيتا (Dan Kaszeta)، وكيفين كروس (Kevin Kruse)، وروب مايكي (Rob Mickey)، وليندا نيكولاس (Linda Nichols)، وبريندان نيهان (Brendan Nyhan)، وويل ساليتان (Will Saletan)، ولاري سانجر (Larry Sanger)، وجون شيندلر (John Schindler)، وجوش شيهان (Josh Sheehan)، وروبرت ترويش (Robert Trobich)، ومايكل ويس (Michael Weiss)، وسالينا زيتو (Salena Zito)، وتحديدًا دان مورفي (Dan

Murphy)، وجويل إنجيل (Joel Engel). وأدين بالشكر خصيصًا لـ: ديفيد بيكر (David Becker)، ونيك جفوسديف (Nick Gvosdev)، وبول ميدورا (Paul Midura)؛ نظرًا لتعليقاتهم على عدد من مسودات النسخة الأولية للكتاب.

كما أني ممتن بشدة لكلية هارفارد إكستينشن ليس فقط على فرصة تدريس البرنامج؛ لكن نظرًا أيضًا لعدد من الطلاب الممتازين المساعدين في البحث الذين توفرهم كلية هارفارد إكستينشن لهيئة التدريس بها. وقد قدمت كيت آرلاين (Kate Arline) مساعدة لا تُقدَّر بثمن في هذا المشروع، حتى إنها أجرت بحثًا ميدانيًا على بعض أغرب التساؤلات بسرعة وثقة نفس: (هل تريد أن تعرف عدد شركات المأكولات السريعة التي افتتحت في أمريكا منذ العام 1959؟ يمكن لكيت أن تدلك)، لكن أي أخطاء واقعية أو إساءة فهم في هذا الكتاب فأنا السبب فيها ولا أحد سواي.

ربما يكون تأليف كتاب تجربة رائعة وفاتنة للمؤلف، لكنها لا ترقى إلى هذا المستوى بالنسبة لمن حولي. حيث تحلت زوجتي لين وابنتي هوب بنفس درجة صبري عندما كنت أعمل على هذا الكتاب، وأدين لهما كثيرًا وأمتن لهما لتحملهما معي في أثناء تأليفي لهذا الكتاب، هذا الكتاب مخصص لكل منهما مع خالص حبي.

في النهاية، يجب أن أشكر الأشخاص الذين ساعدوني في هذا الكتاب، لكنهم لأسباب واضحة يفضلون أن يبقوا

مجهولين. وأنا ممتن لعدد من: الأطباء، والصحفيين، والمحامين، والمعلمين، والمحللين السياسيين، والعلماء، والمثقفين، والخبراء العسكريين، وآخرين شاركوا معي خبراتهم، وأسهموا بسرد قصصهم في هذا الكتاب، فلولاهم لما كنت سأتمكن من تأليفه.

آمل أن يساعدهم هذا الكتاب في عملهم بطريقة أو بأخرى هم وخبراء آخرون. لكن في نهاية المطاف، إن عملاء كل المتخصصين هم أشخاص في المجتمع الذي يعيشون فيه، وعليه آمل أن يساعد هذا الكتاب أبناء وطني على وجه التحديد في الاستفادة وفهم الخبراء الذين نعتمد عليهم جميعًا.

وفوق كل شيء آمل أن يسهم هذا الكتاب على رأب الصدع بين الخبراء والعامة، هذا الصدع الذي يهدد على المدى الطويل ليس فقط رفاهية ملايين الأمريكيين، لكن أيضًا نجاة تجربتنا الدّيمقراطية.

■

توطئة

مـوت الخبـرة

«لطالما كانت هناك طائفة لا تريد أن تنزع عنها لباس الجهل في الولايات المتحدة، لقد كانت النزعة إلى مُعاداة الثقافة تسلسلًا مستمرًا شقَّ طريقه عبر حياتنا السياسية والثقافية، وكان يتغذى على الفكرة الزائفة بأن الدّيمقراطية تعني أن 'جهلي جيد تمامًا كعِلمك'».

إسحق عظيموف (Isaac Asimov)

في أوائل تسعينيات القرن الماضي، حاججت مجموعة صغيرة من «منكري متلازمة نقص المناعة المكتسبة»، وفيهم أحد الأساتذة من جامعة كاليفورنيا يُدعى بيتر دوسبرج (Peter Duesberg) ضد الإجماع الافتراضي لكل المؤسسات الطبية بأن فيروس نقص المناعة البشرية (HIV) كان سببًا لمتلازمة نقص المناعة المكتسبة (AIDS).

إن العلم يزدهر بسبب تلك التحديات المعاكسة للبديهة، لكن لم يتوافر أي دليل على معتقدات دوسبرج التي اتضح أنه

لا أساس لها من الصحة. ما إن اكتشف الباحثون فيروس نقص المناعة البشرية، تمكن الأطباء ومسؤولو الصحة العامة من إنقاذ حياة عدد من النَّاس لا حصر له من خلال معايير كانت تهدف للحد من انتقاله.

ربما كان عمل دوسبرج لينتهي بِعَدِّه مجرد نظرية أخرى مراوغة هزمتها الأبحاث، فتاريخ العلم مليء بهذه النهايات المسدودة. لكن في تلك الحالة تمكنت تلك الفكرة التي ثبت كذبها أن تلفت انتباه قائد دولة، وأمست النتائج مهلكة. كان تابو إيمبيكي (Thabo Mbeki) رئيس جنوب إفريقيا آنذاك الذي آمن بفكرة أن متلازمة نقص المناعة المكتسبة لم يكن سببها فيروس، بل عوامل أخرى، مثل: سوء التغذية وتدهور الحالة الصحية، ومن ثم رفض عروض الأدوية وأشكال المساعدة الأخرى لمكافحة فيروس نقص المناعة البشرية في جنوب إفريقيا. وبحلول منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تراجعت حكومته عن موقفها، لكن ليس قبل أن ينتهي هذا الإنكار من إيمبيكي لمتلازمة نقص المناعة المكتسبة بتكاليف باهظة، فحسب تقديرات أطباء كلية الصحة العامة في جامعة هارفارد، كانت التكلفة إصابة أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان وولادة نحو خمسة وثلاثون ألف طفل نتيجتهم إيجابية بفيروس نقص المناعة البشرية الذين كان يمكن تجنب إصابتهم[1]. وإلى يومنا هذا يعتقد إيمبيكي أنه فعل شيئًا جديرًا بالذكر.

ربما يهزأ عدد من الأمريكيين من هذا النوع من الجهل،

لكن يجب ألا يكونوا مفرطي الثقة في قدراتهم. ففي استطلاع للرأي نشرته صحيفة واشنطن بوست في العام 2014 سُئل فيه الأمريكيون عما إذا كان ينبغي للولايات المتحدة أن تشارك في تدخل عسكري على إثر الغزو الروسي لأوكرانيا في العام 2014. إن الولايات المتحدة وروسيا عدوّان سابقان منذ الحرب الباردة، وكل منهما مسلح بمئات الأسلحة النووية طويلة المدى، وبالتالي، فإن نشوب نزاع عسكري وسط أوروبا على الحدود المتاخمة للجانب الروسي مباشرة يكون مخاطرة بإشعال الحرب العالمية الثالثة، مع عواقب كارثية محتملة. مع ذلك، فإن واحدًا من بين ستة أمريكيين فقط -وأقل من واحد من أربعة من خريجي الجامعات- أمكنهم تحديد موقع أوكرانيا على الخريطة. إن أوكرانيا هي أكبر دولة في قارة أوروبا بأكملها، مع ذلك ابتعد متوسط الإجابات عنها بنحو 2900 كم.

يسهل الفشل في اختبارات الخرائط، لكن المزعج أكثر أن هذا الافتقار إلى المعرفة لم يُثنِ المجيبين عن إبداء وجهة نظر محددة في هذا الصدد. في الواقع، هذا التصريح منافٍ لهول الحقيقة: فلم يعبر العامة فقط عن آراء قوية، لكن أظهرت إجاباتهم تحمسًا للتدخل العسكري في أوكرانيا بما يتناسب مباشرة مع افتقارهم للمعرفة حيال أوكرانيا، أو بتعبير آخر، من اعتقدوا أن أوكرانيا تقع في أمريكا اللاتينية أو أستراليا كانوا هم الأكثر تحمسًا للجوء إلى القوة العسكرية الأمريكية[2].

إننا نعيش أوقاتًا عصيبة، فلم يُوجد قط كل هذا العدد من النَّاس المتاحة لديهم إمكانية الوصول لهذا القدر من

المعلومات، ومع ذلك يتعنتون بشدة في تعلم أي شيء. في الولايات المتحدة والدول المتقدمة الأخرى، ينتقد الأذكياء الإنجاز الفكري، ويرفضون نصيحة الخبراء من مناحٍ أخرى. إن العدد المتزايد من العوام لا يفتقرون إلى المعرفة الأساسية فحسب، بل يرفضون القواعد الرئيسة للأدلة، ويرفضون تعلم كيف يدخلون في مناقشات منطقية. وبفعل هذا، فإنهم يخاطرون بتبديد قرون من المعرفة المتراكمة وتقويض ممارسات وعادات تتيح لنا أن نطور معارف جديدة.

وهذا أكثر من مجرد تشكك طبيعي حيال الخبراء، أخشى أننا نشهد موت المثل العليا للخبرة نفسها، وهو انهيار وقوده جوجل، ويستند إلى ويكيبيديا ومشبع بالمدونات؛ لأنه فارق بين: المختصين والعوام، أو الطلبة والمعلمين، أو العارفين والمتسائلين - بعبارة أخرى، بين من لديهم أي إنجاز في أي من تلك المجالات ومن لا يعرفون عنها شيئًا على الإطلاق.

أحيانًا ما يكون مسليًا الهجوم على المعرفة الراسخة والتدفق المستمر للمعلومات المغلوطة للعوام، بل أحيانًا ما يكون مثيرًا للضحك، فمقدمو البرامج الساخرة استحدثوا أسلوب طرح أسئلة على النَّاس التي تكشف جهلهم حيال الأفكار المُترسخة لديهم بشدة، وارتباطهم بالبدع وعدم استعدادهم للاعتراف بعد إلمامهم بالأحداث الجارية، لا ضير غالبًا عندما يقول النَّاس بتأكيد مثلًا أنهم يتجنبون الجلوتين، ثم يعترفون إنه ليست لديهم أي فكرة عن ماهية الجلوتين. ولنواجه الأمر: فإن مراقبة النَّاس وهم يرتجلون بثقة في طرح آرائهم عن أحداث تخيلية مثيرة

للسخرية مثل ما إن كان «غياب مارغريت تاتشر (Margaret Thatcher) عن مهرجان الكوتشيلا مفيد بخصوص قرار كوريا الشمالية إطلاق صاروخ نووي». من المزح التي لا يعف عليها الزمن قط.

لكن عندما يكون الموضوع المطروح مسألة حياة أو موت تقل درجة السخرية كثيرًا. فالسلوكيات البهلوانية للمعارضين للقاح كالممثل جيم كاري (Jim Carrey) وجيني مكارثي (Jenny McCarthy) تجعل التلفاز رائعًا بلا شك أو من أجل القراءة الممتعة في وقت العصر للتغريدات على تويتر، غير أنهم عندما يعتنقون خرافات ومعلومات مضللة هم ومشاهير ورموز عامة أخرى عن أخطار اللقاحات، يمكن أن يتعرض النَّاس فجأة مرة أخرى للخطر الداهم الناتج عن أمراض مُعدية، مثل: الحصبة، والسعال الديكي.

إنَّ نمو هذا النوع من الجهل العنيد وسط عصر المعلومات لا يمكن تفسيره بمنأى عما حوله وأنه مجرد نتيجة جهل مُطبِق. فعدد كبير ممن يشنون حملات ضد المعرفة الراسخة يتمتعون بالمهارة وهم ناجحون في حياتهم اليومية. وبشكل ما يكون كل هذا أسوأ من الجهل: إنه كبر لا أساس له وغضب ناتج عن ثقافة نرجسية تزداد يومًا بعد يوم التي لا يمكنها أن تتحمل أي مقدار ضئيل من عدم المساواة من أي نوع.

عندما أقول: «موت الخبرة»، فلا أعني موت القدرات الخبيرة الفعلية، أي: الإلمام بأشياء محددة تفرق بعض النَّاس

عن الآخرين في مجالات عدة، فدائمًا ما سنجد: أطباء، ودبلوماسيين، ومحامين، ومهندسين، وعدد من الاختصاصيين الآخرين في شتى المجالات، فلولاهم ما سارت شؤون الدنيا كل يوم. لو كسرت عظامنا أو ألقي القبض علينا نتصل بطبيب أو محامٍ. وعندما نسافر، فإننا نُسلِّم بأنَّ الطَّيار يعرف كيفية عمل الطائرات، وإذا وقعنا في مشاكل خارج البلاد نتصل بالمسؤول في القنصلية الذي نفترض إنه يعرف ما ينبغي عليه فعله.

إلا أن هذا على أي حال هو اعتماد على الخبراء كفنيين وليس حوارًا بين الخبراء والمجتمع الأوسع، لكنه استخدام للمعرفة الراسخة كوسيلة جاهزة عند الحاجة وحسب الرغبة فحسب. خَيِّط جرح قدمي، لكن لا تلقِ عليَّ محاضرة حول حميتي الغذائية. (أكثر من ثلثي الأمريكيين مُصابون بفرط البدانة).

ساعدني في التغلب على تلك المشكلة الضريبية، لكن لا تذكرني بأنه تنبغي عليَّ كتابة وصيتي. (قرابة نصف الأمريكيين الذين يعولون أطفالًا لم يهتموا بكتابة وصية).

حافظ على سلامة بلدي، لكن لا تربكني بتكلفة وحسابات الأمن القومي. (معظم المواطنين الأمريكيين ليست لديهم حتى أدنى فكرة عن مقدار ما تنفقه الولايات المتحدة على القوات المسلحة).

كل تلك الخيارات بداية من الحمية الغذائية الغنية بالعناصر المفيدة وصولًا إلى الأمن القومي، تتطلب حوارًا بين المواطنين

والخبراء، لكن على ما يبدو تزداد عدم رغبة الخبراء في خوض تلك المناقشة. فمن جانبهم، يودون الاعتقاد بأنهم اكتسبوا ما يكفي من المعلومات لاتخاذ تلك القرارات بمفردهم، طالما أنهم يهتمون باتخاذ أي قرار من تلك القرارات على الإطلاق.

وعلى الجانب الآخر، فإن عدداً من الخبراء ولاسيما مَن هم في المؤسسات الأكاديمية تخلوا عن واجب تفاعلهم مع العامة، فتقوقعوا مع مصطلحاتهم المتخصصة وعدم صلتهم بالواقع، كانوا يفضلون التفاعل مع بعضهم بعضًا فحسب. في الوقت نفسه، فإن الأشخاص الذين يمسكون العصا من المنتصف والذين نطلق عليهم «مثقفي العامة» -أود الاعتقاد بأني أحد هؤلاء- صاروا محبطين ومستقطبين مثل بقية المجتمع.

إن موت الخبرة ليس مجرد رفض للمعرفة القائمة، بل إنه في جوهره رفض للعلوم والعقلانية البعيدة عن العاطفة، وتلك هي أسس الحضارة الحديثة. أو حسب وصف الناقد الفني روبرت هيوز (Robert Hughes) لأمريكا في أواخر القرن العشرين بأنها دولة مهووسة بالعلاج النفسي ومليئة بانعدام الثقة في «السياسة الرسمية»، ودائمًا «كانوا متشككين في السلطة»، و«يقعون فريسة للخرافات»، لقد عدنا إلى نقطة الصفر بداية من عصور ما قبل الحداثة التي تملأ فيها الحكمة الشعبية الفجوات التي لا مفر منها في المعرفة البشرية، مرورًا بفترة تطور سريع تستند بشدة إلى الاختصاص والخبرة، ووصولًا إلى عالم ما بعد الحقبة الصناعية المرتكز إلى المعلومات الذي يعتقد فيه كل المواطنين بأنهم خبراء في كل شيء.

في تلك الأثناء، فإن أي تأكيد على الخبرة من خبير حقيقي يفجر حالة من الغضب لدى فئات محددة من العوام الأمريكيين الذين يستنتجون على الفور أن تلك الادعاءات لا تتعدى كونها مغالطات «تروق للسلطة»، وإشارات مؤكدة على «الدعوة إلى حكم النخبة» البغيض، وجهود واضحة لاستخدام الشهادات من أجل عرقلة الحوار المطلوب في ظل ديمقراطية «حقيقية».

يعتقد الأمريكيون الآن أن امتلاك الحقوق المتساوية في النّظام السياسي يعني أيضًا أن رأي كل شخص حيال كل شيء يجب قبوله على قدم المساواة مع رأي أي شخص آخر، وتلك عقيدة عدد لا بأس به من النَّاس مع أنها هراء واضح. إنها تأكيد صريح على المساواة الفعلية التي دائمًا ما تنافي المنطق، وأحيانًا ما تكون مرحة، وعادة ما تكون خطرة. إذًا يتعلق هذا الكتاب بالخبرة، أو على وجه الدقة أكثر، إنه يتعلق بالعلاقة بين الخبراء والنقاد في إحدى الدّيمقراطيات، لماذا تنهار تلك العلاقة؟ وما يمكن لنا أن نفعله جميعًا مواطنون وخبراء؟

إنَّ الإجابة الفورية التي تصدر من معظم النَّاس عند مواجهتهم بموت الخبرة هو إلقاء اللوم على الإنترنت. فالمختصون على وجه التحديد يميلون إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الإنترنت عندما يواجهون موكلين وعملاء يعتقدون أنهم يعرفون أفضل منهم. وكما سنرى جميعًا، فهذا ليس منافيًا للصواب بالكلية، لكنه أيضًا تفسير بسيط جدًا.

إن الهجوم على المعرفة المبنية على أسس راسخة له تاريخ

طويل، وما الإنترنت إلا أحدث الأدوات في مشكلة متكررة كانت فيما مضى تنتج عن سوء استخدام: التلفاز، أو المذياع، أو الصحافة المطبوعة، أو سائر الابتكارات بنفس الطّريقة.

ما الداعي لكل تلك الجلبة إذًا؟ ما الذي تغير تحديدًا بهذه الدرجة المهولة بالنسبة لي لكي أؤلف هذا الكتاب وكي تقرأه أنت؟ هل هو حقًا «موت الخبرة» أم أنه لا يتعدى مجرد الشكاوى المعتادة من المثقفين الذين لا ينصت إليهم، ونصبوا أنفسهم بأنهم أذكى الأشخاص في المكان؟ ربما لا يتعدى الأمر مجرد قلق من الجماهير الذي ينتاب المختصين بعد كل دورة من التغيرات الاجتماعية أو التقنية. أو ربما هو مجرد تعبير اعتيادي عن التفاخر الغاضب لأصحاب التعليم الزائد عن الحاجة للأساتذة الجامعيين النخبويين مثلي.

في الواقع، ربما يكون موت الخبرة علامة على التقدم. ففي النهاية لم يعد المختصون المتعلمون يحكمون قبضتهم على المعرفة، ولم تعد أسرار الحياة خفية في أضرحة رخامية عملاقة، مكتبات العالم العظيمة التي ترهب قاعاتها حتى العدد القليل من الأشخاص الذين يمكنهم زيارتها. في ظل هذه الظروف في الماضي، كانت درجة التوتر أقل بين الخبراء والعوام، لكن كان هذا يرجع فقط إلى كون المواطنين غير قادرين ببساطة على تحدي الخبراء بأي طرق فعالة، علاوة على ذلك، كان تُوجد بعض الوسائل العامة لتجاوز تلك التحديات في عصر ما قبل وسائل الاتصال الجماهيري.

كانت المشاركة في الحياة السياسية والفكرية والعلمية مقتصرة بشدة على فئة محددة حتى أوائل القرن العشرين، حيث كانت المناظرات العلمية والفلسفية وعن السياسة العامة تعقد بين حلقة صغيرة من الذكور المتعلمين ومعهم قلم وحبر. لم تكن تلك بالتحديد هي الأيام الخوالي السعيدة، ولم يمر عليها أمد بعيد. فمازال عالقًا في ذاكرة عديد من الأمريكيين ذلك الزمن الذي لم يُتم فيه الغالبية العظمى دراستهم الثانوية، والذي كان يرتاد فيه الجامعة نزر يسير من النَّاس، والذي كان يلتحق فيه بالوظائف المتخصصة نسبة ضئيلة جدًا من السكان.

لكن أخيرًا؛ لم تحطم التغيرات الاجتماعية على مدار نصف القرن الماضي من الحواجز القديمة للعرق والطبقات والجنس بين الأمريكيين عمومًا فحسب، بل بين المواطنين غير المتعلمين والنخبة من الخبراء على وجه الخصوص. والنتيجة أن اتساع دائرة الجدال كانت تعني مزيدًا من المعرفة، لكن أيضًا مزيدًا من الاحتكاك الاجتماعي.

إن التعليم الجامعي وزيادة تمكين المرأة والأقليات ونمو الطبقة الوسطى ونمو الحراك الاجتماعي جميعها أسباب نتج عنها التواصل المباشر بين أقلية من الخبراء وأغلبية من المواطنين، بعد قرابة قرنين قلما ما كانوا يتفاعلون مع بعضهم بعضًا فيهما.

مع ذلك لم تكن النتيجة تبجيلًا أكثر للمعرفة، لكن كانت نموًّا للقناعة غير العقلانية بين الأمريكيين بأن كل النَّاس بنفس

درجة ذكاء سائر النَّاس. وهذا هو نقيض التعليم الذي يجب أن يهدف إلى جعل النَّاس مهما كانت درجة ذكائهم أو تفوقهم حريصين على التعلم حتى نهاية حياتهم. عوضًا عن هذا، فإننا نعيش الآن في مجتمع أصبح فيه تلقي قدر يسير من التعليم هو نقطة النهاية وليس بداية التعليم، وهذا شيء خطير.

ما سنتناوله لاحقًا:

في الفصول القادمة، سأقترح مصادر عدة لحل هذه المشكلة، بعضها متأصل في الطبيعة البشرية، وبعضها يتفرد به الأمريكيون، والبعض الآخر نتاج لا مفر منه للحداثة ورغد العيش.

في الفصل التالي سأناقش فكرة «الخبير» وسواءً أكان النزاع بين الخبراء والعوام شيئًا مستجدًا أم لا، وما يعنيه حتى أن تكون خبيرًا؟ عندما تكون على وشك اتخاذ قرار صعب حيال موضوع خارج خلفيتك المعرفية أو خبرتك، فمن ستلجأ لمشورته؟ (لو لم تكن تعتقد أنك بحاجة لأي نصيحة سوى نصيحتك، فعلى الأرجح إنك أحد الأشخاص الذين ألهموني لتأليف هذا الكتاب).

في الفصل الثاني، سأتحرّى عن سبب احتدام النقاشات في أمريكا ليس بين الخبراء والمواطنين العاديين فحسب، لكن بين جميع النَّاس. لو كنا أمناء، سنعترف جميعًا أنه يمكن لأي منا أن يكون مزعجًا، بل حتى يكون مثيرًا للغيظ عندما نتحدث عن

أشياء ذات قيمة بالنسبة لنا، لاسيما فيما يخص المعتقدات والأفكار التي نعتنقها بقوة. إن عدداً من المعضلات في علاقة العمل بين الخبراء وعملائهم في المجتمع تكمن في نقاط الضعف البشرية الأساسية، وفي هذا الفصل سنستهل بالتدبر في الحواجز الطبيعية من أجل فهم أفضل لها قبل أن ننظر عن كثب على المشاكل الخاصة في أوائل القرن الحادي والعشرين.

إننا نعاني جميعًا على سبيل المثال مشاكل، مثل: «الانحياز التأكيدي»، وهو الميل الطبيعي لتقبل الأدلة فقط التي تتوافق مع ما نعتقده بالفعل. لكل منا تجاربه الخاصة وأحكامه المسبقة ومخاوفه وحتى هلعه الذي يمنعنا جميعًا عن تقبُّل مشورة الخبراء. فلو كنا نعتقد أن رقمًا ما هو رقم الحظ، فلن يتمكن أي عالم رياضيات من إخبارنا بشيءٍ غير ذلك؛ ولو كنا نعتقد أن الطيران خطير، فلن يطمئننا حتى رائد فضاء أو طيار حربي ويبدد مخاوفنا. ومع أن العبارة التالية ربما تكون غير لائقة، لكن بعضنا غير أذكياء بما فيه الكفاية ليعرفوا متى نكون مخطئين مهما كانت نيتنا حسنة. وكما إنه ليس في استطاعتنا جميعًا بالتساوي أن نؤلف نغمة أو نرسم خطًّا مستقيمًا، فإن عددًا من النَّاس لا يمكنهم ببساطة أن يُدركوا الفجوات في معرفتهم أو فهمهم لعدم قدرتهم على الدفع بحجج منطقية.

من المفترض أن يساعدنا التعليم في إدراك مشكلات من قبيل «الانحياز التأكيدي»، وأن نتخطى الفجوات في معرفتنا، بحيث يمكن أن نصبح مواطنين أفضل حالًا. لكن للأسف، فإنَّ الجامعات الأمريكية المعاصرة، والطّريقة التي يتعامل بها

الطلاب وآباؤهم معها كسلعة عامة يعد الآن جزءًا من المشكلة. من هنا سأناقش في الفصل الثالث لماذا يعد الانتشار الواسع للتعليم الجامعي -للمفارقة- سببًا يجعل عددًا من النَّاس يعتقدون أنهم صاروا أذكى، بينما لم يكتسبوا في الواقع إلا ذكاء وهميًا تعززه شهادة جامعية مشكوك في جدارتها. فعندما يصبح الطلاب عملاء مقدرين وليسوا متعلمين يبلغ تقديرهم لنفسهم شأوًا بعيدًا مع اكتنازهم القليل من المعرفة؛ والأدهى من ذلك، لا تنمو لديهم عادات التفكير النقدي التي كانت ستسمح لهم بالاستمرار في التعلم وتقييم أنواع المواضيع المعقدة التي سيتعين عليهم كمواطنين أن يدرسوها ويصوتوا عليها.

إنَّ عصر التقدم التقني والتواصل الحديث يُعزز من الطفرات المعرفية الكبرى، لكنه أيضًا يتيح ويعزز سقطاتنا البشرية، ففي حين أنَّ الإنترنت ليس تفسيرًا لكل أسباب موت الخبرة، إلا أنَّه يفسر قدرًا كبيرًا من تلك الأسباب، على الأقل في القرن الحادي والعشرين. في الفصل الرابع، سوف أشرح كيف أن أعظم مصادر المعرفة في التَّاريخ البشري منذ أن لطخ أبو الطباعة غوتنبرج أصابعه صارت بنفس القدر منصة للهجوم على المعرفة المترسخة تمامًا كما هي للدفاع عنها.

إن الإنترنت مستودع مهول للمعرفة، وهو أيضًا المصدر والوسيلة لنشر وباء المعلومات المضللة. إذًا لا يجعل الإنترنت عددًا منا أكثر غباءً، بل يجعلنا أكثر وضاعة: فعندما يكون النَّاس وحدهم خلف لوحات المفاتيح، يجادلون ولا يناقشون، يهينون ولا ينصتون.

في المجتمع الحر يكون الصحفيون من بين أهم المحكمين في هذه الجلبة بين الجهل والتعلم، وحري بهم أن يكونوا. وماذا يحدث عندما يطلب المواطنون تسليتهم عوضًا عن تعليمهم؟ سوف نلقي نظرة على تلك الأسئلة المربكة في الفصل الخامس.

إننا نعتمد على وسائل الإعلام لتبقينا مطلعين، وتفصل بين الحقيقة والخيال، وتبسط فهم الأمور المعقدة على النَّاس الذين لا يملكون ما يكفي، ويزيد من الوقت والطاقة لمواكبة كل تطور في هذا العالم الصاخب. بيد أنَّ الصحفيين المحترفين يواجهون تحديات جديدة في عصر المعلومات، ليس مقارنة بنصف قرن مضى فقط، ووقت البث غير المحدود تقريبًا على الهواء مباشرة والصحف الإخبارية، لكن يتوقع العملاء أن تملأ كل تلك المساحة على الفور وأن تحدث باستمرار.

في تلك البيئة شديدة التنافسية، لم يعد لدى المحررين والمنتجين الصبر -أو الرفاهية المالية- ليسمحوا للصحفيين بأن يطوروا خبرتهم أو معرفتهم العميقة بالموضوع. ولا يوجد أي دليل أنَّ معظم المطلعين على الأخبار يريدون هذه التفاصيل. عادة ما يختزل دور الخبراء في الاستشهاد المقتضب بآرائهم في النشرات الإخبارية أو «اقتباسات مقروءة»، إذا ما أخذ رأيهم على الإطلاق. فكل مَن ينخرط في الصناعة الإخبارية يعرف أنه إذا ما كانت التقارير الإخبارية جميلة أو برّاقة بما فيه الكفاية، فإنَّ النسبة الضئيلة من العامة التي تتابعهم ستبحث عن مصدر

آخر للأخبار، إذ إنَّ البدائل الأقل إرهاقًا على بعد نقرة واحدة من فأرة الحاسوب أو ضغطة زر على جهاز التحكم عن بُعد في التلفاز.

إنَّ الخبراء ليسوا معصومين، فقد اقترفوا أخطاءً جسيمة عواقبها وخيمة. لذلك فإن الدفاع عن الخبراء في أمريكا المعاصرة بمثابة دعوة للتذكير بهذه الكوارث والأخطاء: دواء ثاليدوميد وفيتنام ومكوك الفضاء تشالنجر والتحذيرات المفرطة من المخاطر المميتة للبيض. (اذهب واستمتع بمراجعتها مجددًا، إنها غير متضمنة في قائمة الأشياء المضرة لك). كذلك من المفهوم أن الخبراء يردون بأن هذه الاستشهادات تماثل تذكر حادثة طائرة واحدة وتجنب مليارات الأميال التي قطعت عبر السفر جوًّا بأمان. ربما يكون هذا حقيقيًّا، لكن أحيانًا يحدث أن تتحطم الطائرات، وأحيانًا يرجع هذا التحطم لأحد الخبراء الذي أخفق في عمله.

في الفصل السادس، سأمعن النظر فيما يحدث عندما يخطئ الخبراء، يمكن أن يخطئ الخبراء بطرق عدة، بداية من الاحتيال الصريح، ووصولًا إلى النوايا الحسنة المصحوبة بالثقة المُفرطة والمغرورة في قدراتهم. وأحيانًا مثلما هو حال الكائنات البشرية الأخرى، يقترفون أخطاءً فحسب. لكن على أي حال، من المهم بالنسبة للعوام أن يفهموا كيف ولماذا يُخطئ الخبراء، ليس فقط من أجل تحقيق أفضل استفادة من مشورة الخبراء، لكن أيضًا إعادة طمأنة للعوام حيال الطرق التي يحاول بها الخبراء، ويُحكِمون بها أنفسهم وعملهم. وإلا

ستصبح أخطاء الخبراء وقودًا للجدال الذي يفتقر إلى المعلومات، والذي يجعل المختصين ناقمين من الهجمات على مهنتهم، ويجعل العوام مُتخوفين من أنَّ الخبراء ليست لديهم أدنى فكرة عما يفعلونه.

وختامًا، سوف أثير أخطر جوانب موت الخبرة:

كيف يُقوِّض موت الخبرة من الدّيمقراطية الأمريكية؟

إنَّ الولايات المتحدة يعين فيها الشعب آخرين لاتخاذ القرارات نيابة عنهم، ولا يمكن لهؤلاء الممثلين المنتخبين أن يتقنوا المواضيع كافة، وهم يعتمدون على الخبراء والمختصين لمساعدتهم. على الرغم مما يعتقده معظم النَّاس، فإن الخبراء وصناع السياسات ليسوا سواءً، والخلط ما بين الاثنين كما يفعل الأمريكيون عادة، يُقوِّض الثقة بين الخبراء والمواطنين والقادة السياسيين.

يشير الخبراء ويقرر القادة من أجل الحكم على أداء الخبراء والحكم على أصوات وقرارات ممثليهم، على العوام أن يألفوا المواضيع المطروحة بين أيديهم. ولا يعني هذا أنه ينبغي على كل أمريكي أن ينخرط في دراسة متعمقة للسياسة، لكن إذا لم يعبأ المواطنون باكتساب المعرفة الأساسية فيما يخص المواضيع التي تؤثر في حياتهم، فإنهم يتنازلون عن السيطرة على تلك المواضيع سواءً أكانوا يحبونها أم لا. وعندما يفقد الناخبون السيطرة على القرارات المهمة، فإنهم يخاطرون باختطاف ديمقراطيتهم من غوغاء جهلة، أو مزيد من الانحدار

الهادئ والتدريجي للمؤسسات الدّيمقراطية لتصبح تكنوقراطية سلطوية.

وللخبراء أيضًا مسؤولية مهمة حيال الدّيمقراطية، وهي مسؤولية تخلَّو عنها في العقود الأخيرة، حيث كافح مفكرو الشأن العام (المرادفون للصحفيين عادة) ذات مرة لجعل المواضيع المهمة مفهومة للعوام، أما الآن، فتتحدث الصفوة المتعلمة بازدياد مع بعضها فحسب. والمواطنون بكل تأكيد يعززون هذا الاحتراز بالمجادلة عوضًا عن التشكيك -اختلاف مهم- لكن هذا لا يعفي الخبراء من واجبهم لخدمة المجتمع والتفكير في زملائهم المواطنين على إنهم عملائهم لا مصادر للإزعاج.

تقع على عاتق الخبراء مسؤولية التعليم، وعلى عاتق الناخبين مسؤولية التعلم. في النهاية بصرف النظر عن حجم المشورة التي قد يوفرها المختصون، يمكن للعامة فقط أن يقرروا وجهة الخيارات السياسية المهمة التي تواجه الأمة. بإمكان الناخبين فقط البت في الخيارات التي تؤثر في عائلاتهم ودولتهم، وهم فقط من يتحملون المسؤولية النهائية عن تلك القرارات.

لدى الخبراء أيضًا التزام بالمساعدة، ولهذا ألّفت الكتاب.

1

الخبراء والمواطنون

«واشنطن العاصمة - بعد أن استشهد خبراء أمريكا البارزون في كل المجالات بسنوات الإحباط التي عاشوها، بسبب سوء فهم نصائحهم، أو تحريفها، أو تجاهلها كليًا، فقد تقدموا جميعًا باستقالاتهم رسميًا».

The Onion

أمة الفقهاء!:

لقد قابلناهم جميعًا، إنهم زملاؤنا في العمل وأصدقاؤنا وأفراد عائلاتنا. فهؤلاء قد يكونوا صغارًا أم كبارًا، أغنياء أم فقراء، وقد يكون بعضهم قد حاز تعليماً، وآخرون مسلحون بحاسوب محمول وبطاقة اشتراك في مكتبة. لكن لديهم جميعًا شيء مشترك: إنهم أناس عاديون يؤمنون بأنهم كنوز معرفية بالفعل. لديهم قناعة بأنهم على علم يفوق الخبراء، وعلى معرفة أوسع من المختصين وأكثر بصيرة من الجماهير المغفلة، إنهم المفسرون الذين يسعدهم كثيرًا تنوير بقيتنا حيال كل شيء، بداية من التَّاريخ مروراً بالاستعمار ووصولًا إلى أخطار اللقاحات.

إننا نتقبل هؤلاء ونتحملهم على الأقل؛ لأننا نعرف في قرارة نفوسنا أن نواياهم طيبة، بل حتى إن لدينا تعاطفًا محددًا تجاههم. مثال ذلك: في المسلسل الكوميدي بعنوان Cheers

(تشيرز)، الذي عُرض في ثمانينيات القرن الماضي خلدوا فيه شخصية كليف كلافين، وهو ساعي بريد من بوسطن اعتاد السكر في الحانات وكان خبيرًا في كل شيء.

إن كليف مثل أقرانه في الحياة الحقيقية يستهل كل تصريحاته بعبارات من قبيل: «أظهرت الأبحاث»، أو «من الحقائق المعروفة»، أحبَّ المشاهدون كليف؛ لأن الجميع لديهم شخصٌ ما مثله: فقد يكون في صورة العم النَّكِد في عشاء العطلات، وفي منزل الطلبة الصغار في أول سنة حاسمة بالجامعة.

يمكننا أن نعد هؤلاء النَّاس محببين إلى النفس؛ لأنهم استثناءات غريبة في دولة تحترم وتعتمد على آراء الخبراء من مناحٍ أخرى، لكن تغيَّر شيءٌ ما على مر العقود القليلة الماضية. صار المجال المتاح للعامة يهيمن عليه بازدياد شتى أنواع ضعاف المعرفة، وكثير منهم متعصبون ويزدرون التعليم الرسمي ويرفضون الخبرة. غرد رسام الكاريكاتير والمؤلف سكوت آدامز (Scott Adams) خلال انتخابات 2016 قائلًا: «لو كانت الخبرة ضرورية لتصبح رئيسًا، فحدد لي موضوعًا سياسيًا لا يمكنني إتقانه خلال ساعة تحت إشراف كبار الخبراء: «وكأن النقاش مع خبير مثل نسخ المعلومات من أحد الأقراص الصلبة بحاسوب إلى حاسوب آخر. نوع من قانون كريشام (Gresham's Law) الفكري الذي يجمع زخمًا: حيث كانت القاعدة ذات يوم تقول: «المال الخبيث يأكل الحلال»، نعيش الآن في عصر يزيح الضلال فيه المعرفة.

إنه أمر بالغ السوء، فالمجتمع المعاصر لا يمكنه العمل من

غير تفريق اجتماعي للعمال واعتماد على الخبراء والمختصين والمفكرين. (سوف أستخدم مؤقتًا تلك الكلمات بالتبادل.) ليس كل أحد خبير بكل شيء، ومهما كانت طموحاتنا، فإننا مقيدون بحقيقة الوقت وحدود مواهبنا التي لا يمكن إنكارها. إننا نزدهر؛ لأننا نتخصص، ولأننا ننمي الآلية الرسمية وغير الرسمية والممارسات التي تتيح لنا الثقة في بعضنا بعضًا في تلك التخصصات.

في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، قال كاتب الخيال العلمي روبرت هينلين (Robert Heinlein) قولًا مأثورًا يُردَّد كثيرًا منذ ذلك الحين: إن «التخصص يكون بالسليقة»، وكتب أنَّ البشر القادرين بحق يجب أن يكونوا قادرين على فعل أي شيء تقريبًا بداية من تغيير الحفاضة إلى قيادة سفينة حربية، إنها مشاعر نبيلة تحتفي بمرونة البشر وقدرتهم على التكيف، لكنها خاطئة. فيما مضى كان باستطاعة أي عائل أن يقطع أشجاره ويبني منزله، لم يكن هذا غير كفء فحسب، بل نتجت عنه المساكن العشوائية.

يوجد سبب يجعلنا لا نواصل فعل الأمور بهذه الطّريقة، فعندما نبني ناطحات سحاب لا نتوقع أن يكون نفس الشّخص هو عالم المعادن الذي يعرف ما يتلاءم مع العارضة والمهندس المعماري الذي يصمم المبنى وفني الزجاج الذي يركب النوافذ. ولهذا السبب يمكننا الاستمتاع بالإطلالة على ارتفاع مائة طابق فوق المدينة: مع أن كل خبير يمتلك بعض المعرفة التي تتقاطع مع معارف أخرى، لكنه يحترم القدرات المتخصصة لآخرين،

ويركز على فعل أفضل ما يعرفه. وفي النهاية تؤدي ثقتهم وتعاونهم إلى منتج نهائي أعظم من أي شيء كان في استطاعتهم فعله وحدهم.

الحقيقة أنه لا يمكننا العمل من غير الاعتراف بحدود معرفتنا ونثق في خبرات الآخرين. أحيانًا ما نقاوم هذا الاستنتاج؛ لأنه يقوض إحساسنا بالاستقلالية والتحكم الذاتي.

نريد الاعتقاد بأننا قادرون على اتخاذ أنواع القرارات كافة، ونغتاظ ممن يصححنا أو يخبرنا إننا مخطؤون، أو يعلمنا أشياء لا نفهمها. هذا التفاعل البشري الطبيعي بين النَّاس خطير عندما يصبح سمة مشتركة بين مجتمعات بأكملها.

هل هذا مستجد؟

هل يحيق الخطر بالمعرفة أكثر مما سبق، وهل صار النقاش والجدال أصعب بحق هذه الأيام عما كانا عليه منذ خمسين أو مائة سنة مضت؟

دائمًا ما يشتكي المفكرون من غلظة بني أوطانهم، ودائمًا ما يفقد العامة ثقتهم في مدعي المعرفة والخبراء. لأي درجة كانت هذه المشكلة مستجدة، وإلى أي مدى يجب أن نأخذها على محمل الجد؟

جزءٌ من هذا الصراع على الساحة العامة مجرد جَلبة يمكن التنبؤ بها، والآن ضخمها الإنترنت ووسائل التواصل

الاجتماعي. فالإنترنت يجمع الأخبار الملفقة والأفكار غير الناضجة، ثم ينشر المعلومات السيئة والاستنتاجات المغلوطة كافة في جميع الفضاء الإلكتروني. (تخيل كيف كانت ستبدو حقبة العشرينيات من القرن الماضي لو تسنى لكل مهووس في كل بلدة صغيرة أن يطلق محطة المذياع الخاصة به)، ربما لا يتعلق الأمر بكون النَّاس أغبى أو أقل استعدادًا للإنصات إلى الخبراء عما كانوا عليه منذ مائة عام، بل فقط لأن في استطاعتنا سماعهم جميعًا الآن.

فضلًا عن ذلك، فإن قدرًا محددًا من النزاع بين النَّاس الذين يعرفون بعض الأشياء والذين يعرفون أشياءً أخرى أمر حتمي، على الأرجح نشب جدال بين الصيادين والحاصدين الأوائل حيال ما يجب أن يتناولونه على العشاء. وحيث إن مجالات عدة من الإنجازات البشرية صارت ميدانًا للمتخصصين، وصار لزامًا نمو الخلاف، وأن يصبح أكثر حدة. وحيث إن المسافة تزداد بين الخبراء وباقي المواطنين، فكذلك حال الفجوة الاجتماعية وانعدام الثقة بينهم. إن المجتمعات كافة مهما كانت درجة تطورها، ففيها تيار غضب مستتر ضد الصفوة المتعلمة، فضلًا عن ارتباطات ثقافية متأصلة بالحكم والأساطير الشعبية وردود الفعل البشرية الأخرى غير العقلانية وإن كانت طبيعية حيال تعقيد وارتباك الحياة المعاصرة.

إن الأنظمة الدّيمقراطية مع ساحاتها العامة الصاخبة دائمًا ما كانت عرضة على وجه الخصوص للتحديات حيال المعرفة المترسخة. في الواقع، إنهم عرضة أكثر للتحديات تجاه أي

شيء مترسخ: إنها السمات التي تجعلهم «ديمقراطيين». حتى في العالم القديم، كان معروفًا أن الأنظمة الدّيمقراطية معروفة بإعجابها بالتغير والتقدم. على سبيل المثال: يصف ثوقيديدس (Thucydides) أثينا الدّيمقراطية في القرن الخامس قبل الميلاد بأنَّ شعبها لا يهدأ له بال «مدمنون على الإبداع»، وعقب ذلك بقرون، اكتشف القس بول أن شعب أثينا «يهدرون وقتهم في عدم فعل شيء سوى الحديث والإنصات لأحدث الأفكار». هذا النوع من التساؤل المستمر عن المعتقدات الأصولية الذي تحتفي به وتحميه الثقافة الدّيمقراطية.

إن الولايات المتحدة مع تركيزها الشديد على حرية الفرد تذكي تلك المقاومة للسلطة الفكرية أكثر من الأنظمة الدّيمقراطية الأخرى أساسًا. بالطبع، لا يكتمل النقاش حول «كيف تفكر أمريكا» من غير التطرق حتمًا إلى ألكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville)، المحلل الفرنسي الذي ذكر في العام 1835 أن المقيمين في الولايات المتحدة الجديدة لم يشعروا تمامًا بالحب الكافي تجاه الخبراء أو ذكائهم. كتب: «في معظم العمليات العقلية يستحسن كل أمريكي الجهد الفردي الناتج عن فهمه الخاص فحسب»، وقد خلص توكفيل إلى أن انعدام الثقة هذا في السلطة الفكرية متأصل في طبيعة الدّيمقراطية الأمريكية. فكتب أنه عندما: «يوضع المواطنون على نفس قدم المساواة، فإنهم يركزّون النظر إلى بعضهم بعضًا، وهنا يعودون إلى تفكيرهم الخاص بِعَدِّه أوضح المصادر وأقربها للحقيقة. فلا تنعدم الثقة في هذا الرجل أو ذاك، لكنها النزعة في عدم الثقة في أي سلطة أو أي رجل أيًا كانوا».

لم تقتصر تلك الملاحظات على أمريكا في سالف الدهر، فالمعلمون والخبراء والمتخصصون «العارفون» كانوا يفضفضون عن شعورهم بالافتقار إلى احترام مجتمعاتهم منذ أن أُجبِر سقراط على احتساء الشوكران السام. وفي العصور الحديثة في العام 1930، شجب الفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيجا إي جاسيت (José Ortega y Gasset) «تمرد الجماهير» والعجرفة الفكرية التي لا أساس لها التي تتسم بها:

> وهكذا، في الحياة الفكرية التي تتطلب في جوهرها وتفترض وجود مؤهلات، يمكن للمرء أن يذكر الانتصار التقدمي للمفكر الزائف وغير المؤهلين وغير الجديرين بالتأهل ومن هم بطبيعة حالهم عديمي الأهلية.
>
> ربما أكون مخطئًا، لكن عندما يلتقط المفكر المعاصر قلمه ليتعامل مع موضوع درسه بعمق، يجب أن يضع في الحسبان القارئ العادي، الذي لم يعبأ بهذا الموضوع من قبل عندما يقرأ لا يفعل هذا بنية تعلم شيئًا من المؤلف، بل ليصدر حكمًا عليه عندما لا يتفق مع الملاحظات المبتذلة التي يحملها القارئ المذكور في عقله[1].

حتى لا يبدو ما قيل خارج سياق عصرنا الحالي، يعزو أورتيجا إي جاسيت صعود العامة الذين يشتد بأسهم ويتزايد جهلهم في الوقت ذاته لعدد من العوامل، بما فيها: السِّعة المادية، والرخاء، والإنجازات العلمية.

إن الارتباط الأمريكي بالاعتماد فكريًا على الذات الذي

وصفه توكفيل ظل مستمرًا لقرابة قرن قبل أن يشن عليه سلسلة هجمات من الداخل والخارج على السواء، من: التقدم التقني، والتعليم الثانوي العالمي، وانتشار الخبرات المتخصصة، وبزوغ شمس الولايات المتحدة كقوة عالمية في منتصف القرن العشرين جميعها عوامل قوضت فكرة - أو خرافة ليكون التعبير أدق- أن المواطن الأمريكي العادي مهيأ بما يكفي لكل تحديات الحياة اليومية أو إدارة شؤون دولة كبرى.

منذ نصف قرن، كتب العالم السياسي ريتشارد هوفستاتر (Richard Hofstadter): إن «تعقيدات الحياة المعاصرة أقصت الوظائف التي يمكن للمواطن العادي أن يؤديها لنفسه بذكاء وكفاءة».

> في الحلم الشعبي الأمريكي الأصلي، كانت الكفاءة الكلية للرجل العادي أمرًا أساسيًا ولا يُستغنى عنه، وكان يعتقد أن في استطاعته بدون كثير من الإعدادات الخاصة أن يسلك المهن ويدير الحكومة.

واليوم يعرف أنه لا يمكنه حتى تناول فطوره من غير اللجوء إلى الأجهزة التي تكون غامضة بالنسبة له نوعًا ما، ووضعها الخبراء تحت تصرفه؛ وعندما يجلس لتناول الفطور، ويقرأ الصحف الصباحية، يقرأ طيفًا عريضًا من المواضيع ويقر بأنه لم يكتسب الكفاءة للحكم على معظمها إن كان نزيهًا مع نفسه[2].

يحاجج هوفستاتر -وكان ذاك في العام 1963- بأن هذا التعقيد البالغ نتج عنه شعور بالعجز والغضب بين فئة من

المواطنين عُرفت يومًا بعد يوم بأنها تحت رحمة الصفوة الذكية. قال هوفستاتر محذرًا: «ما كان يعد مزاحًا فيما مضى وسخرية حميدة من الفكر والتدريب الرسمي تحول إلى استياء خبيث من المفكر في قدرته كخبير، ذات مرة كان الخبير محل سخرية بلطف؛ لأنه تشتد الحاجة إليه؛ أما الآن، فيستاء منه بشدة؛ لأنه لا حاجة إليه كثيرًا».

بعد ذلك بعشرين عامًا، وصفت أستاذ القانون إليا سومين (Ilya Somin) بوضوح مقدار التغيير الصغير الذي طرأ. ومثلما هو حال هوفستاتر قبله، كتبت سومين في العام 2015: إن «حجم وتعقيد الحكومة صعَّب على الناخبين ذوي المعرفة المحدودة مراقبة وتقييم الأنشطة الحكومية العديدة. والنتيجة كانت نظامًا سياسيًا لا يمكن للناس عادة أن يمارسوا فيه سيادتهم بمسؤولية وفاعلية»، وما يزعج أكثر أن الأمريكيين لم يفعلوا إلا اليسير في تلك العقود المتداخلة لسد الفجوة بين معرفتهم ومستوى المعلومات المطلوب للمشاركة في نظام ديمقراطي متقدم. وتذكر سومين ملاحظة صحيحة: إن «مستوى المعرفة السياسية المتدني بين الناخبين الأمريكيين ما زال أحد أفضل الاكتشافات المترسخة في العلوم الاجتماعية»[3].

إذًا ليس هذا بجديد، فهل يمثل مشكلة فعلًا؟

إنَّ المتخصصين في مواضيع محددة عرضة للتفكير أن الآخرين مهتمون بتلك المواضيع تمامًا كما هو حالهم، لكن في الواقع،

من يحتاج إلى معرفة كافة تلك الأشياء؟ معظم الخبراء في العلاقات الدولية سيجدون صعوبة في اجتياز اختبار عن الخرائط خارج مجال تخصصهم، فما الضير لو لم تكن لدى الشّخص العادي أي فكرة عن كيفية تحديد موقع كازخستان بالضبط؟ في نهاية المطاف، عندما اندلع التطهير العرقي الروندي في العام 1994، وجب حينها تعريف وزير الخارجية المستقبلي وارين كريستوفر (Warren Christopher) بموقع رواندا على الخريطة، لماذا ينبغي على بقيتنا أن يمشون في الأرجاء وهم يحملون هذا الكم من المعلومات الهامشية في رؤوسهم؟

لا يمكن لأحد أن يتقن كل هذا النوع من المعلومات، فنحن نفعل أفضل ما في وسعنا، وعندما نحتاج إلى اكتشاف شيءٍ ما، نستشير أفضل المصادر التي في وسعنا. أتذكر أني طرحت سؤالًا على أستاذ الكيمياء في مدرستي الثانوية (رجل كنت على يقين بأنه يعرف كل شيء) عن العدد الذري لعنصرٍ لم يكن مُلمًّا به حينها، وذلك من جانب كان تحديًا له، لكن من الجانب الأكبر كنت كسولًا جدًا لأبحث عنه بنفسي، فرفع أحد حاجبيه وقال: أنا لا أعرف، ثم ألقى نظرة خلفه على الجدول الدوري للعناصر الكيميائية المعلق على الحائط، وقال: «لهذا السبب يستخدم العلماء الرسومات التوضيحية يا توم».

مما لا شك فيه أنَّ بعض شكاوى هؤلاء الخبراء من الأشخاص العاديين ليست منصفة، حتى أكثر الوالدين يقظة أو أكثر المتسوقين معرفة أو أكثر الناخبين المتمدنين في تفكيرهم لا يمكنهم مواكبة فيضان المستجدات عن كل شيء بداية من

التغذية في الطفولة إلى أمان المنتجات إلى سياسة التجارة. لو كان في استطاعة المواطنين العاديين أن يستوعبوا كل تلك المعلومات، لما احتاجوا إلى الخبراء في المقام الأول.

على أي حال، فإن موت الخبرة مشكلة تختلف عن الحقيقة التَّاريخية المتعلقة بالمستويات المتدنية للمعلومات بين العامة. فالموضوع لا يتعلق بعدم الاهتمام بالمعرفة المترسخة؛ بل يتعلق بظهور عدائية فعلية حيال تلك المعرفة. إنها ثقافة أمريكية وهي تمثل الاستعاضة العدوانية عن آراء الخبراء أو المعرفة الراسخة بالإصرار أن كل رأي في أي موضوع جيد بنفس قدر أي رأي آخر، إنه تغيير ملحوظ في خطابنا العام.

هذا التغيير ليس مستجدًا فحسب، بل هو خطير أيضًا. فعدم الثقة في الخبراء والسلوكيات الأعم المعادية للفكر التي تلازمها يدًا بيد هي المشاكل التي يجب أن تتحسن، لكنها تزداد سوءًا عوضًا عن هذا. عندما ذكرت الأستاذة سومين وآخرون أن جهل العامة لا يقل سوءًا عما كان عليه منذ نصف قرن، فيجب أن يطلق هذا في حدِّ ذاته صافرة إنذار، أو حتى يسبب ذعرًا.

إنَّ الحد من تفشي الجهل ليس جيدًا بما فيه الكفاية، في الواقع، ربما لا يكون هذا الحد موجودًا على الإطلاق: يهدد موت الخبرة فعليًا من عكس وتيرة مكاسب سنوات المعرفة بين النَّاس الذين يفترضون الآن أنهم يعرفون أكثر مما يعرفونه بحق، وهذا تهديد للمواد ومستوى التمدن الصحي للمواطنين في ظل نظام ديمقراطي.

سيكون من السهل رفض عدم الثقة في المعرفة المترسخة بنسبتها إلى الصورة النمطية للريفيين السطحيين وغير المتعلمين الذين يرفضون طرق المدن الكبرى التي يتبعها المتعلمون الغامضون في المدينة، لكن الواقع أكثر فوضوية مما يبدو عليه، فالحملات ضد المعرفة المترسخة في طليعتها أشخاص يُفترض أن لديهم معرفة أفضل من هذا.

في حالة اللقاحات مثلًا، فإنَّ قلة معدلات المشاركة في برامج تطعيم الأطفال ليست مشكلة بين أمهات المدن الصغرى اللواتي لم يتلقين قدرًا كبيرًا من التعليم. يجب على هؤلاء الأمهات تقبل اللقاحات لأبنائهن؛ بسبب متطلبات المدارس العامة. لكن كما اتضح، فإن الأمهات اللواتي يقاومن اللقاحات موجودات في ضواحي سان فرانسيسكو المتعلمة في مقاطعة مارين. ففي حين أن أولئك الأمهات والآباء ليسوا بأطباء، لكنهم متعلمون بما فيه الكفاية للاعتقاد بأن لديهم الخلفية المعرفية الكافية لتحدي العلوم الطبية الراسخة. ومن ثم، فإنه وللمفارقة التي تتنافى مع الحدس، يتخذ الآباء المتعلمون فعليًا أسوأ القرارات أكثر ممن لم ينالوا قسطًا وافرًا من التعليم، وهم يضعون حياة أطفال الجميع على المحك.

في الحقيقة، صار الجهل متفشيًا، لدرجة أن بعض الأمريكيين الآن يعدون رفضهم لمشورة الخبراء إشارة إلى الحنكَة الثقافية. تذكر مثلًا حركة الحليب الخام وهي بدعة انتشرت بين النهمين الذين يدافعون عن الحق في تناول منتجات الألبان غير المعالجة. في العام 2012 كتبت مجلة (نيويوركر)

تقريرًا عن هذا التوجه السائد، وذكرت: «إن الحليب الخام يثير المتعة داخل عشاق الطعام بطريقة خاصة».

> لأنه لم يسخن أو يُجنَّس، وعادة ما يأتي من الحيوانات التي تُربَّى في المراعي، فإنه يكون أغنى بالعناصر الغذائية وأحلى، وأحيانًا، للحفاظ على نفحة المزرعة - ذلك المذاق غير المريح بعض الشيء المعروف لدى الذواقة باسم: «مؤخرة البقرة»، وفي الكلمة التعريفية بمطعم كوي الحاصل على نجمتي ميشلان في سان فرانسيسكو يقول دانييل باتيرسون الطاهي الذي استخدم الحليب الخام لإعداد الكاسترد والمثلجات القشدية بدون بيض، قال: «إن البسترة تستبعد طبقات من التعقيد وطبقات من الروائح الفواحة»[4].

يعد الطاهي باتيرسون خبيرًا في إعداد الطعام، ولا جدال في قدرته أو قدرة غيره على إعداد أطباق شهية، لكن في حين أن البسترة ربما تؤثر في مذاق الحليب، إلا أنها تستبعد مسببات الأمراض التي يمكن أن تقتل البشر.

إن حركة الحليب الخام ليست تجربة مثيرة طرحها بعض الطهاة غريبي الأطوار، فأتباع حركة الحليب الخام لا يقولون فقط بجودة مذاق منتجات الألبان غير المعالجة، لكنهم يقولون أيضًا بأنها أكثر صحة وأفضل للبشر. ففي النهاية لو أن الخضروات غير المطبوخة أفضل بالنسبة لنا، فلماذا لا يكون ذلك حال كل شيء غير مطبوخ؟ لماذا لا نأكل بالطّريقة التي قدرت لنا طبيعيًا ونرجع إلى الأزمنة الأنقى والأبسط؟

ربما كانت أزمنة أبسط، لكنها كانت أيضًا أزمنة يموت النَّاس فيها طوال الوقت؛ بسبب العدوى المنقولة بالأغذية. مع ذلك، فإنها دولة حرة، وإذا ما أراد خبراء الطعام الراشدون الذين يملكون المعلومات الكافية أن يخاطروا بالذهاب إلى المستشفى بسبب الرائحة الفواحة للمناطق السفلى للبقرة في قهوتهم، فهذا خيارهم. فلست ممن يحكمون على هذا بقسوة شديدة، حيث إن أطباقي المفضلة تتضمن المحار النيئ واللحم النيئ بصوص التارتار، وهي بنود عندما يعلن عنها في قوائم الطعام دائمًا ما أشعر وكأني أطلب بضائع مهربة. مع ذلك، فإن اللحم النيئ والسمك النيئ فيهما مخاطر جمة، إنها ليست مستقرة غذائيًا وخاصة للأطفال الذين يتعرضون للخطر المباشر جراء تناول اللبن الخام.

حاول الأطباء سريعًا في مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها أن يكون لهم دور، لكن دون جدوى. فقد أصدر المركز تقريرًا في العام 2012 أفاد بأن منتجات الألبان الخام تزيد احتمالية تسببها في عدوى منقولة بالأغذية بنسبة 150 مرة أكثر من المنتجات المبسترة. كما قال بصراحة شديدة خبير في إدارة الغذاء والدواء الأمريكية أن استهلاك منتجات الألبان الخام يكافئ الروليت الروسي. لكن لم تفلح أي محاولة من هذه المحاولات في إثناء النَّاس الذين لا يهضمون المنتجات غير المعالجة فحسب، بل يصرون على إعطائها للمستهلكين ممن ليس لديهم أي خيار أو قدرة على فهم هذا الجدال عند أطفالهم.

لماذا يجب الاستماع إلى الأطباء بشأن الحليب الخام؟ ففي النهاية قد جانبهم الصواب في أمور أخرى. على سبيل المثال: عندما يتعلق الأمر بالطعام، قيل للأمريكيين أن يجعلوا نظامهم الغذائي مقتصرًا على البيض وأنواع محددة من الدهون. كما قال الخبراء الحكوميون للناس بأن يحدّوا من استهلاكهم من اللحوم الحمراء، ويكثروا من الحبوب في حمياتهم الغذائية، وأن ينأوا بأنفسهم عمومًا عن أي شيء ذي مذاق جيد. (أعترف أن تلك العبارة الأخيرة هي الكيفية التي أفسر بها تلك التوصيات)، وبعد ذلك بأعوام لاحقة اتضح أن البيض ليس مضرًا، وأيضًا إنه ربما حتى يكون مفيدًا لك. واتضح أن السمن النباتي أسوأ علينا من الزبدة، وأن بعض كؤوس النبيذ يوميًا ربما تكون أفضل من عدم تناول المسكرات على الإطلاق.

وعليه صار الطرح الحالي: أخطأ الأطباء، فهل حان الوقت للإسراف في تناول شطائر لحم الخنزير المقدد بالجبن وصب كأس آخر من المارتيني؟

ليس تمامًا. فمازال الجدال مستمرًا حول البيض، لكن التركيز على جانب واحد من النّظام الغذائي الأمريكي يضيع مغزى الكلام. ربما أخطأ الأطباء عن التأثير المحدد للبيض، لكنهم لم يخطئوا بأن النّظام الغذائي المعتمد على الوجبات السريعة، والمشبع بالصودا المسكرة أو أن ست زجاجات من الجعة لن تكون صحية لك. حتى إن بعض الأشخاص استغلوا تلك الأخبار عن البيض (تمامًا كما فعلوا مع القصة الخرافية عن الشوكولاته التي تُعد تصبيرة صحية، والتي ذاع صيتها في

وقت سابق) لاستنتاج أنه لا ينبغي أبدًا الإنصات إلى الأطباء الذين لديهم سجلات أفضل من المواطن الأمريكي العادي مفرط السمنة في الحفاظ على حياة النَّاس بحميات غذائية صحية أكثر.

وفي جوهر كل هذا نجد عدم القدرة بين الأشخاص العاديين على فهم أن الخبراء ربما يجانبهم الصواب أحيانًا حيال مواضيع محددة، ولا يعني هذا أن الخبراء مخطئون دائمًا حيال كل شيء. حقيقة الأمر أن الخبراء عادة ما يكونون على حق أكثر من كونهم على باطل، لاسيما فيما يخص الحقائق المهمة. مع ذلك يبحث العامة دائمًا عن ثغرات في معرفة الخبراء التي تتيح لهم نبذ نصائح الخبراء كافة الذين لا يحبونهم.

هذا لأن الطبيعة البشرية -كما سنرى- تميل إلى البحث عن تلك الثغرات في كل شيء. وبالمثل أو حتى أكثر أهمية عندما يكون الخبراء والمتخصصون على خطأ يمكن أن تكون العواقب وخيمة. فإذا أثرت موضوع المشورة الطبية على سبيل المثال ستجد بكل تأكيد شخصًا ما يعاجلك بكلمة «ثاليدوميد» وكأنها جواب شارح لنفسه. لقد مرت عقود على طرح الثاليدوميد، وهو عقار كان يعتقد ذات يوم أنه آمن، ويُعطى للنساء الحوامل كمُسكن. لم يدرك أي أحد حينها أن الثاليدوميد يسبب أيضًا تشوهات خلقية شنيعة للمواليد، وقد لازم خيال العامة صور الأطفال مشوهي أو مبتوري الأطراف لسنوات كثيرة بعد ذلك، ومن ثم صار اسم العقار مرادفًا لفشل الخبراء حتى ذلك الحين.

مع ذلك لا أحد يجادل بأن الخبراء يمكن أن يجانبهم الصواب (وهو موضوع سنتناوله في هذا الكتاب). لكن المقصد أنه يقل احتمالية خطأهم عن غير الخبراء. نفس الأشخاص الذين يشيرون بقلق إلى تاريخ كارثة الثاليدوميد يتجرعون بانتظام عشرات العقاقير في أفواههم، بداية من الأسبرين ووصولًا إلى مضادات الهيستامين، وهي من ضمن آلاف وآلاف العقاقير التي ثبت أمنها بمرور عقود من التجارب والاختبارات التي أجراها المتخصصون. نادرًا ما يتذكر المشككون أنه أمام كل خطأ شنيع يُوجد عدد لا يُحصى من الحيوات التي أنقذت.

أحيانًا يمكن لمراجعة كلام المتخصصين أن يتحول إلى هوس بنتائج مأساوية. من ذلك مثلًا، محاسب بولاية ماسوتشستس اسمه ستيفين باسيري الذي فقد أمه في العام 2015 نتيجة مرض بالقلب والأوعية الدموية. كانت السيدة باسيري تعاني مشاكل صحية مدة طويلة، بما في ذلك انتفاخ الرئة، وماتت بعد عملية لعلاج صمام القلب. مع ذلك كان باسيري على قناعة بأن أحد أطباء أمه، مايكل دافيدسون -مدير جراحة القلب من داخل الأوعية الدموية في إحدى المستشفيات المرموقة في بوسطن وأستاذ جامعي في كلية هارفارد للطب- تجاهل تحذيراته حول عقار محدد يعطى لأم باسيري. وهنا تحول الأمر إلى موت حرفي للخبرة، إذ اقتحم المحاسب المستشفى، وأطلق النار على الطبيب، وأرداه قتيلًا، ثم قتل نفسه بعد أن خلف وراءه ذاكرة بيانات فلاش تتضمن «بحثه» عن العقار.

من الواضح أن ستيفين باسيري كان رجلًا مضطربًا، وأصابه اللوث جراء موت والدته، لكن الحديث إلى المتخصصين في أي مجال ستنتج عنه قصص مماثلة وإن كانت أقل مأساوية. فالأطباء عادة ما يتشاجرون مع المرضى حيال العقاقير. ويصف المحامون كيف خسر موكلوهم مالًا، وأحيانًا حريتهم؛ لأنهم لم يلتفتوا إلى مشورتهم. والمدرسون سيجدون قصصًا مشابهة عن الآباء الذين يصرون على أن إجابات أطفالهم صحيحة حتى وإن كانوا مخطئين بوضوح. والسماسرة سيتحدثون عن العملاء الذين اشتروا منازل ضد مشورتهم المحنكة، وانتهى بهم المطاف محاصرين في فخ مالي.

لا تُوجد منطقة في الحياة الأمريكية محصنة من موت الخبرة.

إن تدهور قدرات العامة الأمريكية في العلوم والرياضيات تسبب عددًا من الأزمات الصحية العامة، بداية من السمنة ووصولًا إلى أمراض الطفولة. في غضون ذلك، وصلت معدلات الهجمات على المعرفة المترسخة إلى مستويات مخيفة في عالم السياسة العامة الذي يجب على الأقل أن يلم فيه المتحدث ببعض التَّاريخ والمعرفة المدنية والجغرافية لإجراء محادثة عن علم.

صعود الناخب قليل المعرفة:

إن المناظرة السياسية وصناعة السياسة العامة ليست بعلوم، إنها متغلغلة في الصراع، فأحيانًا ما تمارس كخلاف للرأي باحترام، لكن كثيرًا ما تُمارس كلعبة هوكي بلا حكام ودعوة قائمة

للمشاهدين كي يندفعوا إلى أرض الملعب الجليدية. في أمريكا المعاصرة، تبدو المناظرات السياسية حاليًا وكأنها شِجار بين مجموعتين من الأشخاص متدني المعرفة. الذين تمكنوا جميعًا من أن يكونوا مخطئين في الوقت ذاته. هؤلاء القادة السياسيون الذين تمكنوا من أن يكونوا أذكى من العامة (ويبدو أن عدد هؤلاء صار قليلًا مؤخرًا) خاضوا في هذا الهرج، وناقضوا ناخبيهم على مسؤوليتهم الخاصة.

تُوجد أمثلة متعددة لهذا الشِّجار بين من يسميهم المحللون والمثقفون بشيء من الدماثة «الناخبون قليلو المعرفة» المثقفون والمحللون على «الناخبين متدنيي المعرفة». لكن سواءً أكان عن العلوم أم السياسة فجميعهم يشتركون في السمة المزعجة ذاتها: إصرار متمحور حول الذات وحساسية بأن كل رأي يعامل على أنه حقيقة. لم يعد الأمريكيون يميزون عبارة: «أنت مخطئ» من عبارة: «أنت غبي»، فعدم الاتفاق يساوي عدم الاحترام، وإذا صوّبت رأي أحدهم كأنك أهنته. وإذا رفضت وإذا رفضت أن تنصاع لرأي شخص ولم تعتبره جديرًا بأخذه على محمل الجد. مهما كان متطرفًا أو تافهًا. فسيُحكم عليكم بالتحجر وانغلاق الفكر، مهما كانت متطرفة أو تافهة تصبح منغلق الفكر.

إنَّ وباء الجهل في جدال السياسة العامة له عواقب حقيقية على جودة الحياة ورفاهية الأمريكيين كافة، مثال ذلك، خلال المُناظرة التي عُقِدت في العام 2009 حول قانون الرعاية الصحية ذات الكلفة العادلة، صدّق نصف الأمريكيين على الأقل ادعاءات خصوم هذا القانون على الأقل في ادعاءات من

خصوم لهذا القانون، مثل: المرشحة الجمهورية السابقة لمنصب نائب الرئيس سارة بالين (Sarah Palin) بأن هذا التشريع يتضمن «عقوبات بالموت» تقرر من يحصل على الرعاية الصحية بناءً على قرارات بيروقراطية عمن هو جدير بالحياة من المرضى. (بعد ذلك بأربعة أعوام، ظل ثلث الجراحين تقريبًا يصدقون هذا الادعاء)[5]. كما اعتقد قرابة نصف الأمريكيين أيضًا أن قانون الرعاية الصحية ذات الكلفة العادلة وضع خطة صحية موحدة للحكومة. لكن سواءً أأحببته أم كرهته، فإن هذا البرنامج لا يفعل أي شيء من تلك الأشياء، وبعد عامين من تمرير القانون لم يكن على الأقل 40% من الأمريكيين متأكدين إذا ما كان البرنامج ما يزال قانونًا نافذًا.

إنَّ التشريع عمل معقد، وربما لا يكون من المنطقي أن نطلب من الأمريكيين الإلمام بتفاصيل عن مشروع قانون لا يبدو أن ممثليهم أنفسهم يمكنهم فهمه. ومن الواضح أن رئيسة مجلس النواب آنذاك نانسي بيلوسي (Nancy Pelosi) التي رزحت تحت ضغط وابل الأسئلة المعقولة تمامًا في العام 2011، لم تعرف هي الأخرى مضمون القانون، وقد صرحت بدون تفكير باعتراف استُشهِد به على نطاق واسع أن الكونغرس كان سيمرر مشروع القانون ليكتشف فحواه. إن المبادرات المعقدة الأخرى نتج عنها ارتباك مماثل.

الضرائب أيضًا من الأمثلة الجيدة على كيف يؤثر الجهل في المناظرات القومية. الكل يكره الضرائب، والكل يشتكي منها. وفي كل ربيع، ينتج عن التعقيدات الشنعاء لقانون الضرائب

الأمريكي قدر لا بأس به من القلق الشديد بين المواطنين الذين ينتهي بهم المطاف وهم يخمنون الإجابات الصحيحة على أفضل حال عند محاولة دفع ضرائبهم.

لكن الحقيقة المرة أن الشّخص الأمريكي العادي ليست لديه أدنى فكرة عن مصارف أمواله، إذ يظهر كل استطلاع رأي تلو الآخر ليس فقط أن الأمريكيين يشعرون بصفة عامة أن الحكومة تُبدد كثيرًا من الأموال، وتفرض عليهم ضرائب مرتفعة جدًّا، لكن أيضًا إنهم دائمًا ما يخطئون بشأن من ينبغي عليه دفع الضرائب ومقدار ما يدفعه ومصارف تلك الأموال. وهذا على الرغم من حقيقة أن المعلومات المتعلقة بميزانية الولايات المتحدة يمكن الوصول إلى تفاصيلها بسهولة أكثر من الأيام التي كان يتعين على الحكومة فيها أن ترسل بريدًا بحجم قالب الطوب الخرساني للقلة القليلة من الناخبين الذين أرادوا الاطلاع عليه.

أو انظر مثلًا في مسألة المساعدات الخارجية، وهو موضوع ملتهب بين بعض الأمريكيين الذين يستهزئون بالمساعدات الخارجية عادّين إياها إهدارًا للمال. في المعتاد يعتقد الأمريكيون أن أكثر من 25% من الميزانية تُعطى هبة على هيئة مساعدات خارجية. لكن في الحقيقة، فإن هذا الاعتقاد ليس خاطئًا فحسب، لكنه خطأ فادح: إن المساعدات الخارجية جزء يسير من الميزانية، بنسبة تصل إلى أقل من ثلاثة أرباع 1% من الإنفاق الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية.

وهذه الحقيقة لا يعرفها سوى 5% من الأمريكيين، وفي

غضون ذلك، يعتقد واحد من بين كل عشرة أمريكيين أن أكثر من نصف الميزانية الأمريكية -أي: تريليونات الدولارات- تُوهَب سنويًا إلى دول أخرى[6]. يعتقد الكثيرون أنه مهما كان قدرها، فإنها تقدم على هيئة شيك مصرفي لأموال سائلة، وهذا خطأ أيضًا. ففي الواقع، إن المساعدات الخارجية ربما تكون حتى في صورة برنامج وظيفي، حيث إن معظمها يقدم في هيئة منتجات بداية من الأطعمة، ووصولًا إلى الطائرات العسكرية التي في الواقع تشتريها الحكومة من الأمريكيين، ومن ثم ترسلها إلى بلدان أخرى.

إن القول بأن المساعدات الخارجية إهدار للمال يعد موقفًا سياسيًا مفهومًا، فربما أقول أنا وخبراء آخرون: إن هذا الاعتراض العام طائش، لكنه على الأقل موقف له مبدأ مترسخ فيه وليس مبنيًا على حقيقة خاطئة. على أي حال، فإن الاعتراض على المساعدة الخارجية؛ نظرًا للاعتقاد الخاطئ بأنه يُشكِّل ربع الميزانية الأمريكية يئد فورًا أي مناقشة منطقية في مهدها.

هذه الدرجة من الجهل يمكن أن تكون مكلفة جدًا، فالأمريكيون يميلون إلى دعم صواريخ الدفاع القومية ضد الهجمات النووية مثلًا، ويرجع ذلك بقدر كبير إلى أن كثيرين يعتقدون بامتلاك الولايات المتحدة لها بالفعل. (يعود سوء الفهم العام هذا إلى عقود مضت، قبل مدة نشر الولايات المتحدة لعدد محدود من صواريخ الاعتراض الفعالة في ألاسكا الآن.) سواءً أكانت تلك الأنظمة ستعمل أم يجب أن تدشن هي

أسئلة لا صلة لها إطلاقًا بالمطروح الآن، فما بدأ بصفته برنامجًا موجهًا إلى الاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة في ثمانينيات القرن الماضي صار يلهب خيال العامة، ويدعمه كل من الجمهوريين والدّيمقراطيين بمبالغ طائلة تعادل مليارات الدولارات.

المشكلة العامة هنا ليست بين من ينتابهم قلق حقيقي حيال التأثيرات الجانبية المحتملة للقاحات، أو من يجوز أن اختلط عليهم الأمر حيال تدشين أنظمة دفاعية ضد هجمة نووية. فالتشكك المنطقي ضروري ليس للعلم فحسب، لكن أيضًا من أجل مسيرة ديمقراطية صحية. لكن موت الخبرة يشبه إلى حدٍّ بعيد نوبة قومية من المزاج السيئ، رفض طفولي للسلطة بأشكالها كافة مقترن بإصرار بأن الآراء يتعذر تمييزها عن الحقائق.

يفترض أن يزيل الخبراء هذا النوع من الارتباك، أو على الأقل أن يكونوا مرشدين في أدغال المواضيع المربكة. لكن من هم «الخبراء» الحقيقيون؟ قبل أن نمضي في مناقشة مصدر تلك الحملات ضد المعرفة المترسخة، وعن سبب وقوعنا في تلك الورطة في وقت يجب على المواطنين فيه أن يكونوا على دراية أكثر وتفاعلًا عن أي وقت مضى، يجب أن نفكر كيف نفرق «الخبراء» أو «المفكرين» عن سائر النَّاس.

بالطبع يفرط الناس في استخدام كلمة «خبير»: فكل شركة يدعي أصحابها أنهم «خبراء العناية بأفنية المنازل» أو «خبراء

تنظيف السجاد»، وفي حين أن هذا له بعض الحقيقة، فإن الجراحين ومنظفي السجاد ليسوا نفس أنواع الخبراء، إن «المفكرين» و«الأكاديميين» من المصطلحات التي تستخدم أكثر من أي وقت مضى كموضوع للسخرية في أمريكا. وقبل أن نواصل الحديث يجب أن نفكك بعض هذا التشابك.

الخبراء والمواطنون:

إذًا من الخبير؟ وما الذي يشكل «الخبرة»؟

يعلن كثير من النَّاس أنهم خبراء أو مفكرون، وأحيانًا ما يكونون كذلك. لكن في المقابل، فإن تزكية المرء لذاته يمكن أن يكون أسوأ من التضليل. فمن يدعون أنهم خبراء لا تتجاوز معرفتهم بمستواهم العلمي الحقيقي في بعض الأحيان ادعاء بعض الناس أنهم يجيدون التقبيل!

ولن تساعد القواميس كثيرًا هنا، فمعظمها يعرف الخبراء بطريقة الدوران في حلقة مفرغة وأنهم أناس لديهم معرفة «شاملة» و«معتمدة»، وهي طريقة أخرى للقول: بأن إتقان بعض الأشخاص لمجالٍ ما يعني أن المعلومات التي يزودون بها بقيتنا حقيقية ويمكن الوثوق بها. (كيف نعرف أنه يمكن الوثوق بها؟ لأن الخبراء قالوا لنا هذا)، أو كما قال القاضي بوتر ستيوارت (Potter Stewart) عن الإباحية، فالخبرة من تلك الأشياء التي يصعب تعريفها، لكننا عادة ما نعرفها عندما نراها.

يوجد عدد كبير من الخبراء في العالم، بعضهم يسهل

رصده: فالأطباء والمهندسون والطيارون من الخبراء، كما هو حال مخرجي الأفلام وعازفي البيانو في الحفلات. والرياضيون ومدربوهم من الخبراء. وكذا هو حال السبّاكين وضباط الشرطة والنجارين. وفي هذا الخصوص، فإن ساعي البريد المحلي عندك خبير أيضًا، على الأقل في مجاله؛ لو كنت بحاجة إلى قراءة وفهم نتائج اختبار فحص للدم، فيجب أن تطلب هذا من طبيب أو ممرضة، لكن إن كنت تحب أن تعرف بالضبط كيف وصل خطاب من صديقك في البرازيل إلى عتبة بابك في مشيغان، فربما تسأل شخصًا كان يتحمل تلك المسؤولية لسنوات.

إن المعرفة المتخصصة متأصلة في كل الوظائف، ومن ثم سأستخدم كلمات: «متخصصون»، و«مفكرون»، و«خبراء» بالتبادل بالمعنى الأوسع الذي يعني الأشخاص الذين أتقنوا مهارة محددة أو مجموعة من المعارف الذين يمارسون تلك المهارات، أو يستخدمون تلك المعارف في وظيفتهم الرئيسة يوميًا، وبالتالي، يساعدنا هذا في التمييز بين «الطيار المحترف» ومن يسافر جوًا في العطلات، أو «المقامر المحترف» عن العامل عاثر الحظ الذي عادة ما يُسلِّم المال إلى نادي القمار.

بتعبير آخر، إنَّ الخبراء هم الأشخاص الذين يعرفون قدرًا أكبر في موضوعٍ ما عن بقيتنا، وهم من نلجأ إليهم عندما نحتاج إلى المشورة أو التعليم أو حلول في مجال محدد من المعارف البشرية. مع العلم بأن هذا لا يعني أن الخبراء يعرفون كل ما تلزم معرفته عن شيءٍ ما. بل يعني إن الخبراء في أي

موضوع محدد بطبيعة الحال أقلية يرجح أن تكون آرائهم «معتمدة» -أي: صحيحة ودقيقة- أكثر من أي شخص آخر.

بل حتى يوجد خبراء بين الخبراء أنفسهم. فالطبيب الذي حصل لتوه على درجة الدكتوراه في الطب مؤهل إلى حد أبعد كثيرًا من الشّخص العادي ليشخص ويعالج مرضًا ما، لكن عندما يواجه حالة مرضية غامضة، فربما يذعن بدوره إلى رأي اختصاصي. والمحامي المتمرس وقاضي المحكمة العليا كلاهما محاميان، لكن من يرتدي العباءة السوداء في واشنطن يرجح أكثر أن يكون خبيرًا بالمواضيع الدستورية ممن يتعامل مع الوصايا وحالات الطلاق في المجتمعات الصغرى. للخبرة أهميتها أيضًا. ففي العام 2009 عندما أعيقت حركة طائرة خطوط الولايات المتحدة الجوية في مدينة نيويورك بسبب سرب من الطيور، كان يوجد طياران في المقصورة، لكن القائد الأعلى خبرة الذي قضى ساعات طيران أكثر، قال: «هذه طائرتي»، وقاد الطائرة ليهبط بها هبوطًا اضطراريًا فوق سطح نهر هدسون، عندئذٍ نجا كل مَن على متن الطائرة.

أحد الأسباب التي تجعل ادعاء الخبرة تزعج النَّاس في النّظام الدّيمقراطي أن التخصص لا يحسنه إلا قلة بالضرورة. لذلك عندما ندرس مجالًا معرفيًا محددًا أو نقضي حياتنا في مهنة محددة، فإننا لا نقطع شوطًا فحسب في خبرتنا بالوظائف أو المواضيع الأخرى، لكننا نثق أيضًا أن الآخرين في المجتمع يعرفون ما يفعلونه في مجالهم تمامًا كما نفعل في مجالنا. فبقدر ما نريد أن نصعد إلى المقصورة بعد توقف المحرك في الطائرة

لنعطي الطيارين بعض النصائح المفيدة، فإننا نفترض -جزئيًا أنه ينبغي علينا هذا- أننا أفضل في تعاملنا مع المشكلة أكثر مما نحن عليه. وإلا سينحل مجتمعنا المتطور بشدة ليصبح جزرًا متشرذمة، حيث نمضي وقتنا لنشكك بدون معرفة عوضًا عن الثقة في بعضنا بعضًا.

كيف نميز إذًا هؤلاء الخبراء بيننا، وكيف نحددهم؟ الخبرة الحقيقية، نوع المعرفة التي يعتمد عليها الآخرون تكون غير ملموسة، لكنها مزيج يمكن إدراكه بين: التعليم، والمهارة، والخبرة، واعتراف الأقران وإجازتهم. كل هذه الأمور من علامات الخبرة، لكن معظم النَّاس سيحكمون بصواب على كيف أنهم جميعًا مشمولون في موضوع أو مجال مهني محدد عند تقرير أي المشورات الواجب الثقة فيها.

إنَّ التعليم أو التدريب الرسمي هو أوضح علامات حالة الخبير، والأسهل في تعريفها، لكنها مجرد بداية، حيث إنه في عديد من المهن تعد الشهادات ضرورية للدخول في مجالٍ ما: المدرسين، والممرضات، والسباكين يجب أن يحصلوا جميعًا على شهادات من نوعٍ ما لممارسة مهاراتهم، في إشارة للآخرين أن قدراتهم أُجيزت من أقرانهم، وتتوافق مع معايير الكفاءة الأساسية. وفي حين أن بعض أعند خصوم المعرفة المترسخة لديهم هزء من هذا على أنه مجرد «إيمانٌ أعمى بالمؤهلات الأكاديمية»، فإن هذه الدرجات والرخص إشارات ملموسة للإنجاز وعلامات مهمة تساعد بقيتنا في التمييز بين الهواة (أو الدجالين) والخبراء.

وللإنصاف، فإن بعض هذه الشهادات اختراعات جديدة، وبعضها ربما لا يهم كثيرًا. في بعض الحالات، تختلق الدول والسلطات المحلية الشهادات كوسيلة تحايل لجني الأرباح، في حين لا يعترف آخرون بمهارة إلا بالنجاح في اختبار محدد مرة، ولا يكرر بتاتًا. في أمريكا المعاصرة يُتِمُّ المحامون دراسة الحقوق، لكن في الأوقات السالفة كان الشباب «يقرأون القانون» فحسب، ثم يجب عليهم النجاح في اختبار قبول للالتحاق بمهنة المحاماة في ولايتهم. ومع أن هذا النّظام الأقل رسمية نتج عنه رجال عِظام، مثل: أبراهام لينكولن (Abraham Lincoln) -وبكل المقاييس لم يكن محاميًا بهذه الدرجة من الكفاءة- إلا أنه نتج عنه أيضًا من هم أقل شهرة، مثل: هنري بيلينجز براون (Henry Billings Brown)، قاضي المحكمة العليا الذي كتب رأي الأغلبية في حكم بليسي ضد فيرجسون «منفصلون لكن متساوون» (درس براون محاضرات في القانون بجامعتي هارفارد وييل، لكنه لم يتخرج من أي منهما).

مع ذلك، فإن الشهادات بداية. فهي تحمل علامة الموافقة من المؤسسات التي تمنحها، وهي علامة على الجودة، تمامًا كما تروج العلامات التجارية للمستهلكين (وتحمي أيضًا كما نرجو) جودة منتجاتها. انظر بحرص إلى شهادة جامعية فعلية، ولاحظ ما تفيد به معظمها فعليًا: أن حاملها خضع لاختبار هيئة التدريس ومنح الشهادة، وهذا مُصدَّق عليه بدوره من لجنة من الكليات في الإقليم أو هيئة تمثل مهنة محددة. هيئات التدريس تلك والجمعيات التي تصدق دوراتها الدراسة، هي بالفعل تأكيد

على معرفة الخريج بموضوع محدد. وهنا يكون اسم الكلية أو المعهد على المِحك بدرجة لا تقل عن حاملها، على الأقل كتأكيد مبدئي على القدرة.

لا أحد ينكر أنَّ الجامعات المرموقة تخرَّج فيها الكثير من النَّاس بدون أي إدراك سليم للحس العام، فكذلك ينتج عباقرة عن المعاهد الأقل كفاءة، لكن كما يقول المثل: في حين أن السباق ربما لا يكون من نصيب الأسرع دائمًا، فتلك هي طريقة الرهان. إن سجل إنتاج العباقرة من معهد ماساتشوستس للتقنية أو معهد جورجيا التقني أعلى بكثير من الكليات الأقل تنافسية أو المخترعين الذين علموا أنفسهم بأنفسهم. مع ذلك، أنتج معهد ماساتشوستس للتقنية أيضًا أناسًا لا يمكنهم مراجعة دفتر شيكاتهم مع سجل الشيكات، وهم أيضًا ليسوا بمهندسين أكفاء. ما الذي يجعل الخبراء، لاسيما القادة البارزون في تخصصاتهم، ينأون بأنفسهم عن الآخرين ممن لديهم شهادات مماثلة؟

أحد الاختلافات تكمن في الجدارة أو الموهبة الطبيعية، فالموهبة لا غنى عنها بالنسبة للخبير. (أو كما قال إرنست همينجواي (Ernest Hemingway) ذات مرة عن الكتابة: «إن الجدية البالغة فيما يتعلق بالكتابة أحد أمرين ضروريين. والأمر الثاني للأسف هو الموهبة»). سيعرف من درس تشوسر في الجامعة أكثر من أي أحد عن الأدب الإنكليزي، بطريقة واقعية صرفة. لكن المثقف الذي يمتلك موهبة حقيقية لدراسة أدب العصور الوسطى لا يعرف المزيد فحسب، لكن يمكنه أن يشرحه باتساق، بل ربما حتى يُولِّد معرفة جديدة حول

الموضوع.

إنَّ الموهبة تُفرِّق مَن حصلوا على شهادات ممن لديهم شعور أو فهم أعمق بمجال خبرتهم، ففي كل مجال يُوجد متفوقون لامعون ليسوا جيدين في وظائفهم كما اتضح. يُوجد طلاب حقوق لامعون يتجمدون عند الوقوف أمام القاضي، وبعض الخاضعين لاختبارات الشرطة ممن يحرزون نتائج عالية ليست لديهم فطنة بما يحدث في الشوارع، ولن يطوروها أبدًا. كما أن عددًا كبيرًا من حملة الدكتوراه في الجامعات المرموقة لن يكتبوا أبدًا شيئًا آخر؛ نتيجة المشقة التي عانوها عن كتابة رسالة الدكتوراه. هؤلاء الأشخاص ربما يكونون قد أدوا ما عليهم للدخول إلى مهنةٍ ما، لكنهم ليسوا بارعين فيها، وعلى الأرجح لن تتعدى خبراتهم الحدود الطبيعية لقدراتهم الخاصة.

هنالك تساعد الخبرة على التفريق بين حاملي الشهادات وعديمي الكفاءة. أحيانًا، تغربل الأسواق نفسها عديمي الموهبة وعديمي المهارة الذين يريدون أن يكونوا خبراء، ففي حين سماسرة الأسهم المالية المحترفون يقترفون أخطاء مثلًا، يتمكن معظمهم من كسب لقمة عيشهم. لكنَّ المضاربين اليوميين الهواة في البورصة لا يجنون أي أموال قط في الغالب. فيما مضى كان يطلق مضارب يومي هاوٍ على هنري بلودجيت (Henry Blodgett) المدير التنفيذي لصحيفة بزنس إنسايدر ومحلل وال ستريت الأسبق قال: «إنها أغبى وظيفة موجودة»، وإن معظم المشاركين فيها «سيجنون أموالًا أكثر إن عملوا في سلسلة مطاعم برجر كنج»[7]. في النهاية ينفد منهم المال. وبالمثل مع

مرور الوقت سيحصل المدرسون السيئون على تقييمات سيئة، ويخسر المحامون الكسالى موكليهم، وسيفشل الرياضيون غير الموهوبين في تلبية المعايير المطلوبة.

لكل مجال ضغوطاته التي تختبر النَّاس كما تفتن النار الذهب، ولا ينجو منها الجميع، ولهذا السبب، فإنَّ الخبرة والاستمرارية في مجال أو مهنة محددة يعدان علامتان معقولتان للخبرة. عوضًا عن هذا، فإنَّ السّؤال عن «الخبرة» يعد طريقة أخرى لطرح السّؤال القديم قدم الأزل: «ماذا حققت مؤخرًا؟» ينخرط الخبراء في مجالاتهم، ويُحسّنون على الدوام مهاراتهم، ويتعلمون من أخطائهم، ولديهم سجلات واضحة يمكنهم تعقبها. وعلى مدار مسيراتهم المهنية يتحسنون، أو على الأقل يحافظون على درجة كفاءتهم العالية، ثم يقرنونها بالحكمة -وهي أيضًا غير ملموسة- التي تأتي مع مرور الزمن.

ثمة عدد من الأمثلة عن دور التعلم بالتجربة في الخبرة. إن ضباط إنفاذ القانون الخبراء عادة ما تكون لديهم بالفطرة قدرة على ترقب وقوع المشاكل يفتقر إليها زملاؤهم من الشباب، وهو حدس يمكنهم شرحه فقط بأن شيئًا ما «ليس على ما يُرام». فالأطباء والطيارون الذين جربوا ونجوا من كوارث عدة في مختلف مسارح العمليات أو المقصورات يقل احتمال شعورهم بالفزع جراء وقوع مصيبة أكثر من زملائهم الأحدث. والمدرسون القدماء يقل شعورهم بالرهبة من الطلبة صعاب المراس أو الذين يشكلون تحديًا. والفنانون الهزليون على

المسارح الذين أدوا عروضًا كثيرة في الشوارع لا يخشون من يقاطعون كلماتهم، بل يعرفون حتى كيف يستخدمون تلك المقاطعات كمادة خام لمزيد من الضحك.

لا تكون تلك المهارات قابلة للقياس دائمًا، إليك مثال من مجال تعليمي ودراستي الخاص.

بعد التخرج في الجامعة التحقت بمعهد هاريمان في جامعة كولومبيا للتعمق في دراسة سياسة الاتحاد السوفييتي. كان هذا جزءًا من اعتمادي: أردت التدريس والعمل في الشؤون السوفييتية، وكانت جامعة كولومبيا إحدى أفضل الجامعات في ذلك المجال آنذاك. كان مدير المعهد أستاذًا يُدعى مارشال شولمان (Marshall Shulman) وهو مختص مشهور في الشؤون السوفييتية الذي عمل أيضًا مستشارًا لشؤون الاتحاد السوفييتي في البيت الأبيض لدى إدارة جيمي كارتر (Jimmy Carter).

وكما هو حال كل المختصين بالشأن السوفييتي درس شولمان الصحافة السوفييتية بعناية بالغة لمعرفة أي دلالات عن المواقف السياسية في الكرملين. هذه العملية تكاد تكون مقدسة في تحليل النصوص، وكانت لغزًا بالنسبة لمن لم يمارسها منا قط. سألناه عندما كنا طلابًا كيف كان يصل إلى نتائج منطقية من المنشورات المتكلفة التي تعج بها الصحف السوفييتية، أو يستشف أي معنى من تلك الفقرات الطنانة؟ كيف يمكن لآلاف القصص المصاغة عن الكفاح البطولي للمزارع التعاونية أن تميط اللثام عن أحد أكثر الأنظمة المنغلقة على وجه الأرض؟ هز شولمان كتفيه وقال: «لا يمكنني شرح ذلك حقًا، أنا أقرأ

صحيفة (برافدا) فحسب إلى أن أشعر بحكة في أنفي».

حينها كنت أعتقد أن هذا أغبى شيء سمعته على الإطلاق، بل بدأت أتساءل إن كنت قد اتخذت خيارًا مصيريًا سيئًا باستثماري في مزيد من هذا التعليم. على أي حال، ما كان يعنيه شولمان أنه أمضى سنوات في قراءة الدوريات السوفييتية، وبالتالي، أصبح على ألفة شديدة بوسائلهم في التواصل إلى درجة أنه يستطيع رصد التغيرات أو الفلتات غير المتسقة عندما تمر أمام عينه المدربة والخبيرة.

ومع أني كنت متشككًا، إلا أنني فعلت الشيء ذاته خلال دراستي وفي السنوات الأولى من مسيرتي المهنية. كنت أقرأ المواد السوفييتية كل يوم تقريبًا، وحاولت أن أرى الأنماط التي فيها، والتي كانت خفية عني من قبل. في النهاية، فهمت ما كان يعني شولمان. لا يمكنني القول: إني شعرت بحكة في أنفي أو بذبذبة في أذنَيَّ، لكني أدركت أن قراءة أشياء من دولة أجنبية بلغة أجنبية كان نوعًا محددًا من الخبرة. لم يكن من المستطاع دمجها في دورة علمية أو اختبار، ولا توجد أي وسائل سريعة لتنمية مهارة مشابهة: تطلب الأمر وقتًا وممارسة ونصيحة من خبراء محنكين أكثر في نفس المجال.

ومن العلامات الأخرى للخبرة الحقيقية تقبلهم للتقييم والتصحيح من الخبراء الآخرين، فكل جماعة محترفة ومجتمع من الخبراء لديه: حراسه، ومجالسه، وجهات الاعتماد، وهيئات إصدار الشهادات، ووظيفتهم مراقبة أعضائه، وضمان

أنهم لا يرتقون إلى معايير تخصصهم فحسب، لكن أيضًا أن من يمارس فنونهم أناس يعرفون بحق ما يفعلونه.

هذه المراقبة الذاتية محورية في مفهوم المهنية، وهي طريقة أخرى يمكننا تحديد الخبراء من خلالها. كل مجموعة من المتخصصين تضع حواجز للدخول إلى مهنتهم. وبعض تلك الحواجز يكون معقولًا وأمينًا أكثر من مثيلاتها، لكن عادة ما تكون مترسخة في الحاجة إلى ضمان أن اسم المهنة لم تبخس قيمته بانعدام الكفاءة أو الاحتيال. بإمكاني جمع حفنة من الزملاء، وأعلق لوحًا خشبيًا خارج منزلي، وأكتب عليه: «معهد توم نيكولز لفيزياء الجسيمات»، لكن حقيقة الأمر أني لا أعرف أي شيء عن فيزياء الجسيمات. ولهذا السبب، فإن ذلك المعهد الذي تخيلته في نزوتي تلك لن يعتمد من الفيزيائيين الحقيقيين الذين لن يتعاملوا معي بلطف لو طبعت شهادات بدرجات رنانة، ولن يلبثوا أن يسعوا إلى إغلاق نشاطي لحماية معنى كلمة: «فيزيائي».

تعتمد مجتمعات الخبرة على تلك المؤسسات التي يديرها الأقران للحفاظ على المعايير وتعزيز الثقة الاجتماعية.

إن الآليات مثل مراجعة الأقران واعتماد المجالس والجمعيات المهنية والمؤسسات والمهن الأخرى تساعد في حماية الجودة وطمأنة المجتمع -أي: عملاء الخبراء- بأنهم في مأمن عند قبول ادعاءات أهلية الخبراء. عندما تستقل مصعدًا إلى الطابق العلوي في مبنى مرتفع، لا تقول الشهادة على المصعد «حظًا موفقًا بالأعلى»، بل تقول: إن هيئة مدنية، قائمة

على التدريس للمهندسين ومحصت من مهندسين آخرين، قد نظرت في شأن ذلك الصندوق وتعرف أنك بأمان بأقصى قدر يمكن لأي شخص معرفته.

إن الخبرة والتثبت المهني مهمّان، لكن من الحقيقي أيضًا ولكن من الصحيح أيضًا أن هناك قدر كبير من الحكمة في التحذير الصيني القديم من الحِرَفي الذي يدعي أن لديه عشرين عامًا من الخبرة، بينما هو في الواقع لم يكن لديه سوى سنة واحدة من الخبرة مكررة عشرين مرة. أطباء أسنان يتصفون بالسوء كانوا مهملين في خلع الأسنان عندما تخرجوا في كلية طب الأسنان، ولم يتحسن مستواهم كثيرًا في هذا الصدد قبل التقاعد، ويوجد أطباء يجعلون النوم يتغشى طلابهم في أول حصة لهم تمامًا كآخر حصة. لكن يجب أن نتذكر أمرين مهمين بشأن الخبراء، حتى بالنسبة لمن ليسوا من الصفوة في مجالهم:

أولًا: في حين أن طبيب الأسنان المهمل الذي ضربنا به المثل ربما لا يكون أفضل شخص يمكنه خلع ضرس في المدينة، فإنه أفضل منك في هذا الخصوص. إننا لا نحتاج جميعًا إلى عميد كلية طب الأسنان من أجل تاج صناعي للضرس أو تسوس بسيط. ربما يحالفك الحظ مرة وتخلع ضرسًا، لكنك لست متعلمًا أو محنكًا بما فيه الكفاية لتفعل هذا بدون قدر هائل من المخاطرة. بل إن معظم النَّاس لا يقدمون حتى على قص شعرهم. (ففي النهاية يتعامل المزينون مع أنواع المواد الكيميائية والأدوات الحادة كافة، وهم جماعة أخرى

تتطلب التدريب والترخيص.) قليل منا مَن سيخاطر بخلع أسنانه أو أسنان من يحبه.

ثانيًا: وفيما يتعلق بتلك النقطة عن المهارة النسبية، سوف يقترف الخبراء أخطاء، لكن تقل احتمالية اقترافهم أخطاء عن الشّخص العادي، وهذا تمييز مهم بين الخبراء وسائر النَّاس، حيث إن الخبراء يعرفون أفضل مما سواهم عن سقطات مهنتهم. أو حسب تعبير الفيزيائي المعروف فيرنر هايزنبيرج (Werner Heisenberg)، فإن الخبير «هو شخص يعرف بعض الأخطاء السيئة التي يمكن اقترافها في مجاله وكيف يتجنبها». (بينما يعبر زميله الفيزيائي نيلز بور (Niels Bohr) عن ذلك بطريقة مختلفة قليلًا: «الخبير هو شخص أخطأ الأخطاء كافة التي يمكن ارتكابها في مجال محدود جدًّا»).

من شأن هاتين النقطتين أن يساعدانا في فهم خطورة الفكرة الخبيثة القائلة: إنه «بإمكان كل شخص أن يصبح خبيرًا». من الصحيح نسبيًا أن كل شخص لديه مهارات محددة يمكن أن يُطور معرفة مُتخصصة يجب على الآخرين في معظم الظروف أن ينصاعوا إليها. إلَّا أنَّ المشاكل تطل برأسها عندما يبدأ النَّاس في الاعتقاد بأن معرفة القليل عن شيءٍ ما يعني توافر «الخبرة». يُوجد خط رفيع يفصل بين الهاوي الذي يعرف الكثير عن السفن الحربية جراء قراءته النشرة المرجعية السنوية (جينز للسفن الحربية) والخبير الفعلي فيما يخص معرفة قدرات السفن البحرية الحربية في العالم، لكن هذا الخط موجود على أي حال.

إنَّ معرفة الشيء وفهمه لا يستويان، فالاستيعاب ليس مرادفًا للتحليل. فالخبرة ليست لعبة كلامية تمارس بالأفكار الزائفة.

ومع أنه يُوجد خبراء تدربوا ذاتيًا، إلا إنهم استثناءات نادرة. أما الأكثر شيوعًا فهم الأشخاص الذين يسعون إلى الدخول سريعًا إلى مجالات معقدة، لكن ليست لديهم فكرة عن مدى ضعف جهودهم تلك. إنهم مثل مغنو كاراوكي المسليين إلى حدٍّ ما الذين يعتقدون أن لديهم الفرصة ليصبحوا الفائز التالي في برنامج (أمريكان آيدول)، أو لاعب الغولف الهاوي الذي يعتقد أنه قد يحظى بفرصة ليصبح محترفًا. إن الأداء الجيد لشيءٍ ما لا يعني أن تكون مصدرًا موثوقًا للمشورة أو التعلم عن موضوعٍ ما. (لاحظ أن نفس الأشخاص الذين يعتقدون أنه في استطاعتهم أن يكونوا مغنيين لا يعتقدون أبدًا أن بإمكانهم أن يصبحوا مدربي أصوات).

هذا الافتقار إلى إدراك الذات والحدود الفكرية يمكن أن تنتج عنه تفاعلات غريبة بين الخبراء والأشخاص العاديين. منذ بضعة سنوات على سبيل المثال تلقيت مكالمة هاتفية من أحد السادة المحترمين الذي أصر أنَّ لديه عملًا مهمًا ربما يفيد منهجنا العلمي في كلية الحرب البحرية، وقد أحاله إليَّ أحد الطلاب السابقين في كلية أخرى، وكانت لديه رغبة شديدة أن أقرأ مقالًا مُهمًا عن الشرق الأوسط. سألته من كتب تلك المقالة، فأجاب: أنا. كان رجل أعمال وقرأ «كثيرًا». سألته إن كان قد حصل على أي تدريب في هذا الموضوع أو زار الإقليم أو قرأ بأي من لغات الشرق الأوسط، لكن لم تكن لديه هذه

الخلفية كما اعترف، ثم قال: «لكن في النهاية يمكنك أن تصبح خبيرًا إذا قرأت كتابًا كل شهر، أليس كذلك؟».

كلا!

إن الثقافة الأمريكية تميل إلى تأجيج هذا النوع من الأفكار الحالمة عن حكمة العوام أو نباهة العبقري الذي علّم نفسه بنفسه. هذه الصور تعزز نوعًا محددًا من الصور الخيالية الاجتماعية التي تبعث على الشعور بالرضا، والتي يتفوق فيها الشّخص العادي على الأستاذ الجامعي المُتزمّت، أو العالم المهووس من خلال العزيمة والأصالة.

يوجد عدد من الأمثلة لهذا في الثقافة الشعبية الأمريكية، خاصة في الأفلام التي تصور الشباب اللامعين الذين يتفوقون بذكاء على الشركات والجامعات وحتى الحكومات. على سبيل المثال: شارك بن أفليك (Ben Affleck) ومات ديمون (Matt Damon) في تمثيل فيلم (Good Will Hunting) عن عامل نظافة يتضح أنه عبقري في السر. وفي أحد المشاهد التي صارت أيقونية الآن، يتحدث ديمون بنبرة صوت هادئة ولهجة العاملين في بوسطن، ويواجه في حانة طالبًا بتصفيفة ذيل حصان من خريجي أشهر الجامعات الأمريكية التي تنتمي لرابطة اللبلاب:

> أنت طالب دراسات عليا في السنة الأولى، وفرغت لتوّك من قراءة أحد الكتب عن التّاريخ المكسيكي لبيت جاريسون على الأرجح. ستظل مقتنعًا بهذا حتى الشهر التالي عندما تصل إلى جيمس ليمون، ثم ستتحدث عن كيف كانت اقتصادات

ولاياتي فرجينيا وبنسلفانيا قائمين على طريقة ريادة الأعمال والرأسمالية إبان العام 1740.

وسيدوم هذا حتى العام القادم، إذ ستكون هنا لتتقيأ بما لديك عن جوردون وود، وتتحدث كما تعرف عن يوتوبيا ما قبل الثورة وتأثيرات التحركات العسكرية... عرفت هذا من فيكارز (العمل في مقاطعة إيسيكس) الصفحة 98، أصحيح؟ أجل قرأت هذا أيضًا. هل كنت ستنسب لنفسك كل هذا أمامنا؟ هل لديك بنات أفكار في هذا الصدد؟

لقد أهدرت 150 دولارًا في [حشو] تعليمي كان بإمكانك تحصيله مقابل دولار وخمسين سنتًا لقاء رسوم الفترات المسائية في المكتبة العامة.

لاحقًا يتبار الشاب مع معالجه النفساني حول أعمال هوارد زين (هوارد زين) ونعوم تشومسكي (Noam Chomsky). ومع إن هذه المواقف متكلفة وسخيفة، إلَّا أنَّها بدت منطقية لرواد الأفلام آنذاك. عاد مات ديمون وبين أفليك بجائزتي أوسكار؛ بسبب أدائهما في الفيلم، وبلا شك، إنهما شجعا بعض المشاهدين على الأقل؛ لكي يعتقدوا أن قراءة ما يكفي من الكتب يشبه تقريبًا ارتياد الجامعات.

في النهاية يصعب تعريف الخبرة، وأحيانًا تصعب معرفة الخبراء من الهواة. إلا أنه يجب أن يكون في مقدورنا التفريق بين من لديهم إلمام عابر بموضوعٍ ما ومن لديهم معرفة شافية. لا أحد لديه معرفة تامة، ويدرك الخبراء هذا أفضل من أي أحد. لكن التعليم والتدريب والممارسة والخبرة واعتماد

الآخرين في نفس المجال يجب أن تعطينا كل هذه الأشياء على الأقل دليلًا قويًا لنفرق بين الخبراء وبقية المجتمع.

أحد أكثر الأسباب الأساسية التي تجعل الخبراء والعوام يصيبون بعضهم بالجنون أن جميعهم من البشر، أي: إن لديهم مشاكل متشابهة في طريقة استيعابهم وتفسيرهم للمعلومات. حتى من حصلوا على أرفع درجات التعليم يمكنهم اقتراف أخطاء بدائية في الاستنتاج، في حين أنَّ الأشخاص الأقل ذكاءً يكونون عرضة إلى الإغفال عن حدود قدراتهم. سواءً أكنا خبراء أم عوامًا، تعمل أدمغتنا (أو أحيانًا لا تعمل) بنفس الطرق: نسمع أشياء بالطرق التي نريد سماعها بها، ونرفض الحقائق التي لا نحبها، لكن سنتناول تلك المشاكل في الفصل التالي.

2

كيف صارت المناقشات مُرهقة؟

«منذ بضعة قرون... كان البشر مازالوا يعرفون جيدًا متى يصبح شيء ما مثبتًا ومتى لا يكون كذلك؛ وإن صار مثبتًا، فهم يؤمنون به بحق».

كليف ستيبلز لويس، رواية **رسائل سكروتيب**

«أجل، حسنًا، كما تعرف، إنه مجرد رأيك فحسب يا رجل».

«الرفيق»، فيلم **ليباوسكي الكبير**

أودُّ الجدال من فضلك:

إنَّ النقاش في القرن الحادي والعشرين أمر مرهق، وعادة ما يكون مزعجًا، ليس بين الخبراء والعوام فحسب، لكن بين الجميع أيضًا. لو نال الخبراء قدرًا كبيرًا من الاهتمام في العصور السالفة، فاليوم لا ينال أي أحد سوى قليل من الاهتمام. حتى بين العوام في تفاعلاتهم اليومية، انحدر الخلاف والتناظر ليصبح تبادلًا مرهقًا للتناقضات والأفكار الزائفة والمصادر غير المُعتبرة التي لا يفهمها إلا قليل من المتحاورين أنفسهم. كان يفترض أن سنوات من التعليم الأفضل وزيادة الوصول إلى البيانات وانفجار وسائل التواصل

الاجتماعي وقلة الحواجز المفروضة على الوصول إلى الساحة العامة أن تُحسِّن جميعها قدراتنا على التفكر واتخاذ القرار، بيد أنَّ هذا التقدم يبدو وكأنه جعل كل هذا يتحول إلى الأسوأ وليس إلى الأفضل.

انحدر مستوى الحوار العام بشأن كل شيء ليصبح حرب خنادق هدفها في المقام الأول إثبات أن الطرف الآخر مخطئ. حيث اضمحل اختلاف الآراء المعقول إلى جدال سقيم كجدالات المدارس الثانوية التي يكون هدفها الفوز الذي يكون هدفه الفوز، وتُستخدَم الحقائق كقطع الشطرنج على رقعة اللعب -لا شيء من هذا يرقى إلى مستوى الشطرنج- غالبًا لدحض حقيقة أخرى. مثل: العميل في الحلقات الهزلية الأسطورية «عيادة الجدال» لفريق مونتي بايثون، نجد أنفسنا ننكر آخر ما يقوله الشّخص الآخر أيًا ما كان هو. («ليس هذا حجة قوية»، فيقول العميل الغاضب للمجادل المحترف «بل هو كذلك»، فيجيب: «لا ليس كذلك، إنه مجرد تناقض»، «لا، ليس كذلك»، «أجل إنه كذلك»).

عندئذٍ، يجب علينا أن نبدأ بالمشكلة الواضحة والعالمية: أنت وأنا. أو على وجه الدقة أكثر، الطّريقة التي نفكر بها أنا وأنت. من الأحياء إلى علم النفس الاجتماعي نخوض معركة حامية الوطيس في محاولة لفهم بعضنا.

لدينا جميعًا ميل متأصل وطبيعي للبحث عن دليل ينسجم بالفعل مع معتقداتنا، وقد تركبت أدمغتنا بدقة للعمل بتلك الطّريقة، ولهذا السبب نجادل حتى وإن لم ينبغي علينا هذا.

وإن كنا نشعر بالتهديد اجتماعيًا أو شخصيًا، فسوف نجادل إلى أن يصبح وجهنا شاحبًا. (على الأرجح في عصر الإنترنت، يجب أن يكون التعبير على وسائل التواصل الاجتماعي «إلى أن تصبح أصابعنا خاملة»)، والخبراء ليسوا باستثناء هنا؛ فمثلما هو حال الجميع، نريد أن نصدق ما نميل إليه قبلًا.

وفي حياتنا الشّخصية نميل أن نصبح أكثر تسامحًا؛ لأننا حيوانات اجتماعية تريد التقبل والعاطفة من أقرب النَّاس إلينا، في دوائرنا الاجتماعية المقربة، يعتقد معظمنا أننا أصحاب كفاءة وجديرون بالثقة، ونريد من الآخرين رؤيتنا بنفس الطّريقة أيضًا. جميعنا نريد أن نؤخذ على محمل الجد، وأن نحظى بالاحترام. وبالممارسة، يعني هذا أننا لا نريد من أي شخص التفكير في أننا أغبياء، ولهذا نتظاهر بالذكاء أكثر مما نحن عليه، ومع مرور الوقت نصل حتى إلى مرحلة تصديق هذا.

بالطبع، تُوجد أيضًا مشكلة رئيسة أن بعض النَّاس ليسوا بهذا الذكاء. كما سنرى، فإن أكثر الأشخاص يقينًا بأنهم على حق عادة ما يكونوا الأقل جدارة بالشعور بمثل هذه الثقة بالنفس، لكن من السهل جدًّا أن نرفض ببساطة الطبيعة المتفاقمة للمناقشة العصرية؛ لأن وظيفتها فحسب إبداء غباء الآخرين. (وليس معنى هذا، إن هذا لا يكون حقيقيًا في بعض الأحيان). إن معظم النَّاس ببساطة ليسوا من ذوي القدرات العقلية المحدودة، على الأقل ليس إذا ما قسناهم بالمؤشرات الأساسية مثل معدلات الأمية أو إتمام المرحلة الثانوية.

الحقيقة، إن سقطات النقاش والجدال لا تنحصر على الأخطاء

التي يقترفها الأدنى ذكاءً بيننا، فجميعنا نسقط فريسة سلسلة من المشاكل، بما فيها الطّريقة التي نحاول بها جميعًا حل المشاكل والأسئلة بطريقة تجعلنا نشعر بحال أفضل حيال أنفسنا وأصدقائنا.

إنَّ المؤثرات الكثيرة التي سببت موت الخبرة، ومنها: التعليم العالي، والإعلام، والإنترنت، جميعها تمكن تلك السمات البشرية الأساسية. إلا أنه يمكن تخطي تلك التحديات كافة التي تعيق التواصل الأفضل بين الخبراء والمواطنين بالتعليم وتحري الدقة والأمانة، لكن فقط إذا ما عرفنا كيف بُلينا بها في المقام الأول.

ربما نكون جميعًا أغبياء فحسب:

دعنا نواجه أصعب الاحتمالات أولًا، ربما يعاني الخبراء والعوام مشاكل في الحديث مع أنفسهم؛ لأن المواطن العادي ليس ذكيًا فحسب. من الوارد أن الفجوة الفكرية بين الصفوة المتعلمة والجماهير متسعة جدًا الآن إلى درجة أنه لا يمكنهم ببساطة الحديث مع بعضهم إلا للتعبير عن الازدراء المتبادل، أو وارد أن المناقشات والمجادلات تبوء بالفشل؛ لأن أحد الطرفين -أو كليهما- غبي فحسب.

إنها كلمات تناحر، فلا أحد يُحب أن يُنادَى بالغبي، إنها كلمة تصنيفية قاصية* لا تشير إلى الافتقار إلى الذكاء فحسب،

(*) قاصية: من الإقصاء، أي: البُعد.

بل الجهل المُطبِق الذي يصل تقريبًا إلى درجة السقطة الأخلاقية. (استخدمت تلك الكلمة أكثر مما ينبغي. وكذلك فعلتَ أنت على الأرجح) بإمكانك أن تنادي النَّاس الذين تخالفهم بأنهم مخطئون، أو معلوماتهم مغلوطة، أو جانبهم الصواب، أو أي شيء آخر تقريبًا، لكن لا تدعُهم بالأغبياء.

لحُسن الحظ، لا يعد استخدام كلمة «غبيًا» وقاحة فحسب، لكنها غالبًا غير دقيقة. فبالمقاييس كافة يعد الأمريكيون أذكى، أو على الأقل ليسوا أقل ذكاءً عما كانوا عليه منذ بضعة عقود. كما لم يكن مطلع القرن العشرين كالعصر الذهبي لأثينا في الثقافة والتعليم. من ذلك إنه في العام 1943 كان الطلاب الجدد بالجامعات -6% منهم فقط أمكنهم تحديد المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية- يقولون بأن أبراهام لينكون (Abraham Lincoln) كان أول رئيسٍ للولايات المتحدة، وهو من «أنهك [كذا في الأصل] العبيد». وقد لفتت تلك النتائج صحيفة نيويورك تايمز، وتفرغت قليلًا من الكتابة عن تقارير الحرب العالمية الثانية لترثي حال شباب الأمة «الجاهلون إلى حدٍّ مخيف»[1].

إن السؤال عن استطاعة النَّاس في القرن الحادي والعشرين أن يبقوا على تلك الفجوة بين تعليمهم وسرعة التغير في العالم هو أمر مختلف تمامًا. لقد تعلم طلاب المدارس الابتدائية في العامين 1910 و2010 كيف يحسبون مساحة المثلث، لكن يجب على طلاب اليوم أن يستخدموا تلك المعرفة؛ ليستوعبوا وجود محطة فضائية دولية دائمة، بينما على الأرجح لم ير

أجداد أجدادهم سيارة على الإطلاق، أو لنقل طائرة. ولا شيء يمكنه أن يمنع الانفصال طواعية في أي عهد. لا يُوجد قدر من التعليم يمكنه أن يعلم شخصًا ما اسم عضو مجلس الشيوخ الذي يمثله في الكونغرس لو لم يهتموا في المقام الأول.

وبما إننا تطرقنا لهذا، مازالت تُوجد مشكلة أن بعض النَّاس على الأقل يعتقدون أنهم أذكياء، وهم ليسوا كذلك على الإطلاق. لقد تورطنا جميعًا في حضور حفلة أو عشاء كان فيها الشّخص الأقل معرفة في الغرفة هو مَن يدير الحوار، ولا يشك أبدًا في ذكائه ويحاضر بقيتنا بثقة بوابل من الأخطاء والمعلومات المغلوطة. ليس هذا محض خيالك: إن الأشخاص الذين يُسهبون في الحديث عن مواضيع لا يعرفون عنها إلا القليل وبثقة لا أساس لها على الإطلاق موجودون، وقد اكتشف العلم هذا مؤخرًا.

يُطلق على هذه الظاهرة «تأثير دانينج-كروجر»؛ تيمنًا بديفيد دانينج (David Dunning) وجاستن كروجر (Justin Kruger)، عالمي النفس الباحثين في جامعة كورنيل اللذان حددا هذه الظاهرة في دراسة بارزو في العام 1999. يعني تأثير دانينج-كروجر باختصار أنه كلما زادت درجة غبائك زادت ثقتك بأنك لست غبيًا بالفعل. وقد أطلق دانينج وكروجر بأدب على هؤلاء «غير موهوبين» أو «غير أكفاء». لكن لا يغير هذا اكتشافهم المحوري: «إنهم لا يصلون إلى استنتاجات خاطئة فحسب ويتخذون خيارات مؤسفة، لكن عدم كفاءتهم جردتهم من القدرة على إدراك هذا»[2].

لكن إنصافًا «لغير الموهوبين»، فإننا جميعًا نميل إلى المبالغة في تقدير أنفسنا. سَل النَّاس عما يعتقدوا أنه تصنيفهم في أي عدد من المواهب، وسوف تجد أن تقييمهم «تأثير فوق المتوسط» الذي يعتقد فيه الجميع أنهم... حسنًا، فوق المتوسط. وهذا كما يذكر دانينج وكروجر بدون مواربة، «نتيجة تتحدى منطق الإحصاءات الوصفية»، لكن مع ذلك فهو من الزلات البشرية المعروفة حتى إنه من المعروف أن الفكاهي جاريسون كيلور (Garrison Keillor) صنع مدينة بأكملها بناءً على هذا المبدأ، Lake Woebegone الأسطورية، حيث «يكون كل الأطفال فيها فوق المتوسط» في برنامجه الإذاعي (A Prairie Home Companion).

أو كما شرح دانينج لاحقًا: جميعنا نبالغ في تقدير أنفسنا، لكن الأقل كفاءة بيننا يفعلون هذا أكثر من بقيتنا.

في دراسات عدة أجريتها أنا وآخرون أكدت أن الأشخاص الذين لا يعرفون الكثير حيال مجموعة مُحددة من المهارات: المعرفية، أو التقنية، أو الاجتماعية يميلون إلى المُبالغة بإفراط في تصوير قدراتهم وأدائهم، سواءً أكانت قواعد لغويَّة، أم ذكاء عاطفيًا، أم استنتاجًا منطقيًا، أم العناية بالأسلحة النارية وسلامتها، أم التناظر، أم المعرفة المالية.

> إنَّ الطُّلاب الجامعيين الذين يحضرون اختبارات لا تتعدى درجاتهم فيها (المقبول، والضعيف) يميلون إلى التفكير في أن جهودهم ستستحق درجات أعلى بكثير؛ وبالمثل نجد أن

ذوي الترتيب المنخفض من لاعبي الشطرنج ولاعبي بريدج وطلاب الطب والمسنين الذين يتقدمون لتجديد رخصة قيادتهم، جميعهم يبالغون في تقدير كفاءتهم بقدر كبير[3].

يُفضل الطلاب الذين يدرسون من أجل اختبار، والمسنون الذين يحاولون الحفاظ على استقلاليتهم وطلاب الطب الذين يتطلعون إلى مسيرتهم المهنية أن يكونوا متفائلين وألا يقللوا من شأن أنفسهم. بخلاف مجالات مثل المنافسات الرياضية التي تتضح فيها عدم الكفاءة، ولا يمكن إنكارها، من الطبيعي أن يتجنب النَّاس قول: إنهم سيئون في شيءٍ ما.

لكن كما يتضح، فإن أكثر الأسباب التي تجعل مَن يفتقرون إلى المهارة أو الكفاءة يبالغون في وصف قدراتهم أكثر من الآخرين، إنهم يفتقرون إلى مهارة رئيسة تُدعى: «إدراك الإدراك»، أو ما وراء المعرفة. وهي القدرة على معرفة متى لا تكون بارعًا في شيءٍ ما بالتراجع خطوة إلى الوراء، وتركز النظر فيما تفعله، ثم تدرك أنك تفعله بطريقة خاطئة.

يعرف المطربون الجيدون متى يصبح صوتهم نشازًا؛ ويعرف المخرجون الجيدون متى لا يتسق مشهدٌ ما مع باقي الفيلم؛ ويعرف المسوقون الجيدون أي حملة من الحملات الدعائية ستبوء بالفشل. أما أقرانهم الأقل كفاءة، فليست لديهم تلك القدرة بالمقارنة، فيعتقدون أنهم يؤدون عملًا رائعًا.

عند مقارنة هؤلاء بالخبراء يمكن توقع نتائج كارثية بكل أرْيَحِيَّة. إن الافتقار إلى إدراك الإدراك ينتج عنه حلقة مفرغة،

وفيها من لا يعرفون قدرًا كبيرًا عن موضوعٍ ما لا يعرفون متى يمارون أحد الخبراء في ذلك الموضوع. يعقب ذلك جدل، لكن من ليس لديهم فكرة عن كيفية الدفع بحجة منطقية لا يمكنهم إدراك متى لا يكون في استطاعتهم الدفع بتلك الحجة المنطقية. باختصار، يُصاب الخبير بالإحباط، ويشعر العامي بالإهانة، ويرحل الجميع غاضبين.

بل ما يثير السخط أكثر أنه لا تُوجد طريقة لتعليم أو تعريف النَّاس الذين سوف يختلقون أشياء إذا ساورهم الشك. وصف دانينج البحث الذي جرى في جامعة كورنيل بأنه مثل: «نسخة لامعة من سخرية جيمي كيميل (Jimmy Kimmel) اللاذعة»، وقد أثبت وجهة نظر مقدم البرنامج الساخر أنه عندما لا تكون لدى النَّاس أي فكرة عما يتحدثون عنه، فلا يردعهم هذا عن الحديث على أي حال.

في عملنا، نسأل من شملهم المسح عما إذا كانوا على دراية بمفاهيم تقنية محددة من: الفيزياء، والأحياء، والسياسة، والجغرافيا. ويدعي عدد لا بأس به أنه على ألفة بمصطلحات جوهرية مثل: «قوة الجذب المركزي» و«الفوتون».

> لكن المثير للاهتمام أنهم يدعون معرفتهم بمفاهيم مختلقة تمامًا، مثل: «صفائح التزيّح»، و«فائق الدهن»، و«كولارين». في إحدى الدراسات ادّعى حوالي 90% بعض المعرفة بواحدة على الأقل من تسعة مفاهيم خيالية سألناهم عنها.

الأسوأ من ذلك، «كلما عدَّ المجيبون أنفسهم ملمين بموضوع

عام، ادعوا ألفتهم أكثر بالمصطلحات عديمة المعنى المرتبطة به في المسح»، وهذا يصعب الجدال مع هؤلاء «الأشخاص غير الأكفاء»؛ لأنه عند مقارنتهم بالخبراء «كانت قدرتهم أقل في رصد الكفاءة عند رؤيتها».

بعبارةٍ أخرى: تقل احتمالية الأشخاص الأقل كفاءة في معرفة أنهم كانوا مخطئين، أو معرفة أن الآخرين على صواب، وتزيد احتمالية ادعائهم للمعرفة، وتقل قدرتهم على تعلم أي شيء.

لدى دانينج وكروجر تفسيرات عدة لتلك المشكلة. لا يحب النَّاس في العموم أن يؤذوا مشاعر بعضهم، وفي بعض أماكن العمل ربما يتردد النَّاس وحتى المشرفون في تصحيح الأصدقاء أو الزملاء غير الأكفاء.

إن بعض الأنشطة مثل الكتابة أو الخطابة لا تُوجد لها أي وسائل واضحة لينتج عنها رأي فوري.

يمكنك فقط أن تفشل في تصويب عدد من الضربات في كرة القاعدة قبل أن يجب عليك الاعتراف أنك لست على الأرجح مسدد رميات جيدًا، لكن يجوز أن تشوه قواعد اللغة والنحو كل يوم، ولا تدرك أبدًا مدى ضعف حديثك.

مشكلة «الأقل كفاءة» في تحديهم الفوري للنقاش بين الخبراء والعوام، لكن لا يوجد كثير مما يمكننا فعله حيال سمة جوهرية في الطبيعة البشرية. مع ذلك لا يفتقر الجميع للكفاءة، ولا يوجد تقريبًا أي أحد غير كفء في كل شيء. ما أنواع

الأخطاء التي يقترفها الأكثر ذكاءً أو سريعو البديهة في محاولة فهم المواضيع المعقدة؟ لا عجب أن المواطنين العاديين يواجهون سقطات وتحيزات تنطلي على الخبراء أيضًا.

الانحياز التأكيدي: لأنك كنت تعرف هذا بالفعل:

إنَّ «الانحياز التأكيدي» هو أكثر المعضلات شيوعًا -والأسرع في إثارة انزعاجنا- التي تواجه المناقشات المثمرة، ولا ينحصر هذا بين الخبراء والعوام فحسب. يشير المصطلح إلى الميل إلى البحث عن معلومات تؤكد فحسب ما نؤمن به، ونتقبل الحقائق التي تعزز فقط من تفسيراتنا المفضلة، وأن نرفض البيانات التي تشكك فيما ارتضيناه كحقيقة بالفعل. جميعنا نفعل هذا، ويمكنك التيقن من أنك وأنني وسائر النَّاس الذين دخلوا في نقاش مع أي أحد حيال أي شيء أثرنا جميعًا غضب شخصٍ ما بهذا الانحياز التأكيدي.

على سبيل المثال: لو اعتقدنا أنَّ العسران أشرار (فهذا المعنى قد اشتق منه كلمة «sinister» في الإنكليزية والتي تعني في اللاتينية «على الجانب الأيسر»)، فسيثبت كل قاتل أيسر وجهة نظرنا. وسنلاحظهم في الأخبار كافة، حيث إن تلك هي القصص التي اخترنا أن نتذكرها. ولن يزعزعنا أي قدر من البيانات حول عدد القتلة الأيامِن المنتظرين عقوبة الإعدام. فيغدو كل أيسر بمثابة دليل؛ وكل أيمن استثناء. وبالمثل، لو سمعنا أن سائقي بوسطن وقحون، فالمرة التالية التي نزور فيها

مدينة الفول تلك سنتذكر من يطلقون أبواق سياراتهم علينا أو يقطعون طريقنا، وسنتجاهل توًّا أو ننسى من يجعلونا نمر في الزحام أو يلوحون لنا بالشكر. (بالمناسبة، في العام 2014 صنفت شركة لخدمات جانب الطّريق «أوتوفانتاج» مدينة هيوستن على إنها أسوء المدن من حيث وقاحة السائقين، في حين جاءت بوسطن في المرتبة الخامسة).

في فيلم (رجل المطر) الصادر في العام 1988 كانت شخصية راي المُتوحّد نموذجًا مثاليًا وإن كان مُتطفّلا على الانحياز التأكيدي. كان راي واسع المعرفة، ويعمل عقله كالحاسوب: يمكنه إجراء عمليات حسابية مُعقدة بسرعةٍ فائقة، وهو عبارة عن مستودع ضخم من الحقائق غير المرتبطة ببعضها. لكن نظرًا لحالة راي، فلا يمكنه ترتيب تلك الحقائق في سياق متماسك. أيًا كان ما يتذكره عقل راي نجده يكون أهم من الحقائق الأخرى كافة في العالم.

وعليه، عندما سافر راي وأخوه جوًّا من ولاية أوهايو إلى ولاية كاليفورنيا شعر راي بالذعر. فالخطوط الجوية الأمريكية كافة في مرحلة أو أخرى عانت كارثة مريعة، ويمكن لراي أن يتذكر التواريخ وأعداد ضحايا كافة الرحلات، وبالتركيز على تلك الاستثناءات المريعة، رفض راي الركوب في أي رحلة طيران. وعندما سأله أخوه المنزعج عن أي شركات الطيران التي سيثق بها، فيقول بهدوء: خطوط الطيران الأسترالية. قال له: «كانتاس، لم تتحطم طائرات كانتاس قط»، بالطبع لا تطير رحلات شركة كانتاس داخليًا في الولايات المتحدة، فما كان

من راي وأخيه إلا أن قادا عبر الولايتين، وهذه القيادة تفوق في خطرها رحلة الطيران بكثير؛ لأن راي ليس لديه بنك معلومات في رأسه عن حوادث الطرق التي تبعث على الرهبة، فإنه يستقل السيارة بسعادة.

جميعنا نشبه راي بعض الشيء، فنحن نركز على البيانات التي تؤكد مخاوفنا أو تلهب آمالنا. ونتذكر الأشياء التي تترك فينا انطباعًا ونتجاهل الوقائع الأقل عاطفية. وعندما نجادل مع بعضنا بعضًا أو نلجأ لمشورة خبيرة، يعاني معظمنا أوقاتًا عصيبة في التخلي عن تلك الذكريات مهما كان مدى عدم العقلانية في التركيز عليها.

هذه المشكلة إلى حدٍّ ما ليست مشكلة ذكاء عام بل مشكلة تعليم. لا يفهم النَّاس ببساطة الأرقام أو المخاطرة أو الاحتمالية، ويمكن لبعض الأشياء أن تجعل النقاش بين الخبراء والعوام أكثر إحباطًا من «الجهل بالرياضيات» هذا، وهو الاصطلاح الذي اشتهر بعد أن أطلقه عالم الرياضيات جون ألن بولوس (John Allen Paulos). بالنسبة لمن يعتقدون أن الطيران خطير، لن يوجد أي عدد من عمليات الهبوط الآمنة التي ستفوق الخوف من تحطم الطائرة مرة واحدة. كتب بولوس في العام 2001: «عند المواجهة بهذه الأعداد الكبيرة وبالاحتماليات الصغيرة في المقابل المرتبطة بها، سوف يستجيب الجاهل بالرياضيات بالقول الهزلي، 'أجل، لكن ماذا لو كنت أنت هذا الـ 1%؟،' ثم يومئ برأسه كالعارفين، وكأنه دحض حجتك ببصيرته الثاقبة»[4].

يمكن للبشر أن يصبحوا مبدعين للغاية في الجدال القائم على جملة «لكن ماذا لو كنت أنا تلك الحالة التعيسة النادرة جدًّا». من ذلك أني زرت في سبعينيات القرن الماضي عمًّا يعيش في ريف اليونان. كان رجلًا قويًا ورياضيًا، لكنه كان يعاني الرهاب من الطيران، وهو ما كان يحول بينه وبين السفر إلى لندن من أجل العلاج الطبي لأجل مرض عضال. حاول أبي أن يطمئنه بالاقتراح القدري أنه لكل نفس أجلها، وأنه تتحتم عليهم مغادرة الدنيا بطريقة أو بأخرى، وعلى الأرجح إنه لم يحن أجله. فاستدعى عمي الاعتراض العام مثل بقية النَّاس الذين يخشون الطيران: «أجل، لكن ماذا إن كان أجل الطيار قد حان؟».

لا أحد منا عقلاني إلى درجة مثالية، ويخشى معظمنا مواقف لا نمسك فيها بزمام الأمور. كان عمي رجلًا غير متعلم، وُلِد في قرية باليونان في نهاية القرن التاسع عشر. وأنا رجل متعلم في القرن الحادي والعشرين ولدي إلمام جيد بالإحصاء والتَّاريخ.. مع ذلك لست أفضل حالًا منه حيال الطيران في تلك الليالي التي كنت أضع فيه حزام الأمان بمقعد على طائرة نفاثة مع انتهاج بعض الأفكار المتخبطة في العناية الإلهية. في الأوقات المشابهة، أحاول التفكير في آلاف الطائرات التي على مقربة مني في جميع أنحاء العالم، والفرصة الضئيلة جدًّا أن طائرتي سوف تربح قرعة الكارثة. عادة أشعر بالبؤس: الرحلات كافة التي قد تهبط بأمان من فانكوفر إلى جوهانسبرج لا علاقة لها بي، بينما أمسك بذراعي مقعدي وأنا في طائرتي، وأتفقد أسطح منازل رود آيلاند.

استخدم كاتب الخيال العلمي والطبيب الراحل مايكل كريتون (Michael Crichton) مثالًا من أول أيام وباء متلازمة نقص المناعة المكتسبة في مطلع ثمانينيات القرن الماضي ليبين كيف أنَّ النَّاس عادة ما يقتنعون بأنهم أن الاحتمال الضئيل جدا سيكون من نصيبهم، لم تفهم طبيعة المرض في حينه على أكمل وجه، واتصلت صديقة بكريتون للاطمئنان، عوضًا عن هذا انتهى بها المطاف وهي مغتاظة من إصرار الطبيب على المنطق:

حاولت أن أشرح المخاطرة؛ لأني لاحظت مؤخرًا كيف أن قليلًا من النَّاس يفهمون بحق المخاطر التي يواجهونها، فأنا أرى النَّاس يحتفظون بمسدسات في منازلهم، ويقودون بغير أحزمة أمان، ويأكلون أطعمة فرنسية تسد الشرايين ويدخنون السجائر، مع ذلك لا ينتابهم القلق قط حيال تلك الأمور. لكنهم يقلقون من وباء متلازمة نقص المناعة المكتسبة، هذا درب من الجنون.

«إلين، هل ينتابك القلق من الموت في حادث تحطم سيارة؟».

«لا، أبدًا».

«هل ينتابك القلق أن تُقتلي؟»

«لا».

«حسنًا، من المرجح أكثر أن تموتي في حادث سيارة أو أن يقتلك أحد الغرباء من أن تموتي بوباء متلازمة نقص المناعة المكتسبة».

قالت إلين: «شكرًا جزيلًا»، بدت متضايقة: «يسعدني أنك اتصلت بي، أنت مطمئن بحق يا مايكل»[5].

بعد ذلك بعقد، صار النَّاس يفهمون أفضل وباء متلازمة نقص المناعة المكتسبة، وتلاشى هذا الهوس. لكن في السنوات اللاحقة، بدأت مخاطر صحية جديدة مثل: إيبولا، وسارس، وابتلاءات أخرى نادرة سببت ردود فعل منافية للمنطق، جميعها سببت قلقًا لعددٍ لا يُحصى من الأمريكيين الذين يشعرون بالقلق من المرض الغريب أكثر من الحديث على جوالاتهم في أثناء القيادة للمنزل بعد تناول بضعة مشروبات كحولية في الحانة المحلية.

لاحظ أيضًا كيف أن هذا التحيز لا ينفع أبدًا تقريبًا في الاتجاه المعاكس. القليل منا لديهم يقين بأنهم الاستثناء الإيجابي، سنشتري تذكرة اليانصيب، ونسرح بخيالنا معها للحظة، ثم نضعها في جيبنا وننساها، لكن لا أحد يتجه إلى وكالة بيع سيارات أو بيع بالتجزئة مع رقم قرعة (باوربول) للغد.

ينتابنا شعور الخوف غير العقلاني عوضًا عن التفاؤل غير العقلاني؛ لأن الانحياز التأكيدي بطريقة أو بأخرى نوع من آليات النجاة. إن الأشياء الجيدة تجيء وتذهب، لكن الموت أبدي، وبالتالي، لا يهتم عقلك كثيرًا بكل هؤلاء الآخرين الذين نجوا من ركوب الطائرة أو العلاقة العابرة: إنهم ليسوا أنت. من هنا فإن تفكيرك الذي يعتمد على معلومات محدودة أو خاطئة يؤدي وظيفته في محاولة لتقليل أي مخاطر على حياتك، مهما كانت صغيرة. وعندما نكافح الانحياز التأكيدي نحاول أن نصحح وظيفة أساسية -سمة وليست فيروسًا- في العقل البشري.

سواءً أكان السّؤال عن خطورة مميتة أو إحدى معضلات الحياة اليومية، يلعب الانحياز التأكيدي دوره؛ لأن النَّاس يجب عليهم الاعتماد على ما يعرفونه بالفعل. لا يمكنهم التعامل مع كل مسألة وكأن عقولهم صفحات خالية، ليست تلك طريقة عمل الذاكرة، والأهم على وجه الخصوص، إن بدء كل يوم في محاولة لاستكشاف كل شيء من الصفر لا يعد استراتيجية ناجعة.

إن العلماء والباحثين في صراع دائم مع الانحياز التأكيدي بصفته يشكل خطورة مهنية. إلا أنه يجب عليهم اللجوء إلى الافتراضات من أجل إعداد تجارب أو شرح ألغاز، وهو ما يعني أيضًا بدوره أنهم يطرحون بعض النظريات البالية في مشروعاتهم، ويجب أن يُخمنوا ويستخدموا حدسهم، تمامًا مثل بقيتنا؛ لأنه سيهدر كثيرًا من الوقت إن بدأ كل برنامج بحثي انطلاقًا من افتراض بأن لا أحد يعرف أي شيء، ولم يحدث أي شيء إطلاقًا قبل يومنا هذا[6]. إن «الفعل قبل المعرفة» من المشاكل الشائعة التي تعرقل أي دراسة متمعنة: في النهاية، كيف نعرف ما نبحث عنه ونحن لمَّا نكتشفه بعد؟»[7].

يعرف الباحثون كيف يدركون تلك المعضلة في وقت باكر في تدريبهم، ولا ينجحون دائمًا في التغلب عليها، إذ يمكن للانحياز التأكيدي أن يضلل حتى أكثر الخبراء المحنكين. فالأطباء على سبيل المثال أحيانًا يميلون إلى تشخيص محدد بمرض، ثم يبحثون عن دليل للأعراض التي يشكون بالفعل أن مريضهم مصاب بها، وفي الوقت ذاتها يتجاهلون مسببات

الأمراض أو الإصابات الأخرى. (في المسلسل التلفازي عن الخبير بتشخيص الأمراض د. هاوس نجد أنه يخبر طلابه: «إنه ليس بمرض الذئبة أبدًا»، وهو ما يؤدي بالطبع إلى أن أكثر طبيب متعجرف في العالم ستنبغي عليه محاولة التغلب على فشله لرصد الحالة الوحيدة التي كانت في واقع الأمر، مرض الذئبة)، ومع أن كل باحث يقال له: إن «النتيجة السلبية تعد نتيجة على أي حال»، فلا أحد يريد بحق اكتشاف أن افتراضه المبدئي ذهب أدراج الرياح.

هكذا على سبيل المثال انحرفت عن المسار الصحيح إحدى الدراسات في العام 2014 حول الاتجاه العام بشأن زواج الشواذ، إذ ادعى أحد طلاب الدراسات العليا أنه اكتشف دليلًا إحصائيًا دامغًا أن المعارضين لزواج الشواذ إن تحدثوا عن الموضوع مع شخص شاذ فعليًا، تزداد حينئذٍ احتمالية تغير رأيهم. وقد دعم نتائجه تلك أحد أعضاء هيئة التدريس الكبار في جامعة كولومبيا الذي أجازت دراسته تلك بصفته مؤلفًا مشاركًا في الدراسة. كان استنتاجًا لافتًا للنظر يصل تقريبًا إلى درجة الإثبات أن الأشخاص العقلاء يمكن دحض رهاب الشواذ لديهم بالنقاش.

المشكلة الوحيدة أن الباحث الشاب الطموح زوَّر البيانات، فالمناقشات التي ادعى تحليلها لم تحدث من قبل. وعندما أثار الشكوك آخرون من غير المشاركين في الدراسة بعد مراجعتها، سحب أستاذ جامعة كولومبيا المقال. أما الطالب الذي كان على وشك البدء في العمل كعضو هيئة تدريس وأمامه مستقبل

مشرق في جامعة برنستون، فقد وجد نفسه عاطلًا عن العمل.

لماذا لم يكتشف هذا الاحتيال منذ البداية مباشرة أعضاء هيئة التدريس والمراجعين الذين يفترض بهم تمحيص بحث الطالب ومراجعته بعناية؟ بسبب الانحياز التأكيدي. من هنا أفادت لاحقًا الكاتبة الصحفية ماريا كونيكوفا (Maria Konnikova) في مجلة (نيويوركر) أن مشرف الطالب اعترف بأنه أراد تصديق نتائج بحثه، أراد هو وأكاديميون آخرون أن تكون النتائج حقيقية، وبناءً عليه قلَّ احتمال تشكيكهم في المناهج المتبعة التي نتجت عنها إجابتهم المفضلة. «الخلاصة أن الانحياز التأكيدي -الذي يكون تأثيره قويًا على وجه التحديد عندما نفكر في المشاكل الاجتماعية- ربما سهل أكثر التغاضي عن مصداقية الدراسة»، هذا ما كتبته كونيكوفا في مراجعة للعمل بأكمله[8]. في الواقع، كان «الحماس الذي يحيط بتلك الدراسة هو سبب فضحها»؛ لأن الباحثين الآخرين الذين كانوا يأملون البناء على تلك النتائج، اكتشفوا الاحتيال فقط عندما تعمقوا في تفاصيل البحث الذي ظنوا أنه وصل بالفعل للاستنتاج المفضل لهم.

ولهذا السبب يجري العلماء تجارب مرارًا وتكرارًا إذا تسنى لهم ذلك، ويقدمون النتائج إلى آخرين وهو الإجراء الذي يطلق عليه: «مراجعة الأقران».

وفي هذا الإجراء -عندما يفلح- يستدعى زملاء الخبير (قرينه أو قرينتها) للعب دور محامي الشيطان، حيث المراجعة بنية

حسنة، لكنها لا تخلو من الصرامة. ويحدث هذا عادة من خلال عملية «التجربة العمياء»، أي: إن الباحث والمحكمين لا يعرفون هوية بعضهم، وذلك أفضل للحيلولة دون تأثير التحيزات الشّخصية أو المؤسساتية على المراجعة.

وهي عملية لا تُقدر بثمن، فحتى أكثر الأكاديميين أو الباحثين دراية بالذات يحتاجون تدقيقًا للواقع من شخصٍ تقل درجة اهتمامه الشّخصي بنتيجة المشروع. (لقد خضع مقترح الكتاب الذي تقرأه الآن إلى مراجعة الأقران: ولا يعني هذا أن الأكاديميين الذين قرأوه يتفقون معه، لكن طلب منهم أن يضعوا الحجج في الحسبان، ويقدموا أي اعتراضات، أو يسدوا أي نصيحة ربما تكون لديهم). عادة ما يكون دور المحكمين منوطًا بكبار الخبراء، حيث إن القدرة على اكتشاف وإدراك وجود دليل يدحض أو حتى يبطل فرضية ما هو شيء يتطلب وقتًا طويلًا نوعًا ما لتعلمه. من هنا يمضي الأكاديميون والباحثون وقتًا لا يُستهان به في حياتهم المهنية في محاولة لإتقان تلك المهارة لتكون ضمن مهاراتهم الجوهرية.

تلك المراجعات والتمحيصات لا يراها العوام؛ لأنها تحدث قبل إصدار المنتج النهائي، لكن يدرك العوام تلك العمليات فحسب عندما تخطئ.. وعندما تخطئ مراجعة الأقران، يمكن أن يكون الخطأ فادحًا، فعوضًا عن إنتاج ضمانات جودة ذات خبرة، يمكنن أن تتحول كل المؤسسة إلى الزيف وتبادل المصالح وتصفية الحسابات والمحسوبية والسلوكيات الحقيرة الأخرى كافة التي يكون البشر عرضة لها، بيد أنه في حالة

دراسة زواج الشواذ، اكتشف الاحتيال وظل النّظام ساريًا، وإن لم يكن في الوقت المناسب لوقف النشر المبدئي للمقال.

مع ذلك في الحياة المعاصرة خارج الحياة الأكاديمية، لا يخضع الجدال والنقاش لمراجعة خارجية، فالحقائق تُضحِي متقلبة وفق أهواء النَّاس في الوقت الراهن، وبالتالي فإن الانحياز التأكيدي يجعل محاولات الجدال المنطقية منهكة؛ لأنه ينتج عنها جدال ونظريات لا سبيل لدحضها. وتلك هي طبيعة الانحياز التأكيدي نفسه برفض الأدلة المناقضة كافة، ووصفها بأنها غير متعلقة بالموضوع، وأن دليلي هو القاعدة دائمًا في حين أنَّ دليلك ما هو إلا خطأ أو استثناء دائمًا. ومن المستحيل الجدال مع هذا النوع من التفاسير؛ لأنه لا يكون خطأ أبدًا كما هو منصوص عليه.

والمشكلة الإضافية هنا أن معظم العوام لم يتعلموا قط، أو أنهم نسوا أسس «المنهجية العلمية». إنها مجموعة الخطوات التي تنتقل من سؤال عام إلى فرضيات واختبار وتحليل. ومع أن النَّاس عادة ما يستخدمون بصفة عامة كلمة «دليل»، إلا إنهم يستخدمونها بطريقة مطاطة؛ ففي معرِض المناقشات يميل النَّاس إلى استخدام كلمة «دليل» لتعني «الأشياء التي نتصورها حقيقية»، وليست «الأشياء التي خضعت لاختبار عن طبيعتها الحقيقية وفق قواعد متفق عليها».

في تلك المرحلة ربما يعترض العوام على كل هذا بصفته كلامًا طنانًا في الجدال الفكري، فلماذا يحتاج الشّخص العادي

لكل هذا الوعي الأكاديمي؟ فالحس العام موجود دائمًا، لماذا لا يكفي هذا؟

في معظم الأحيان، عادةً ما لا يحتاج العوام أي أداة من تلك الأدوات الأكاديمية، وفي الشؤون اليومية، ينفعنا الحس العام جيدًا، وعادة ما يكون أفضل من التفسيرات المُعقدة التي لا داعي إليها، فمثلًا: لا نحتاج أن نعرف بالضبط مقدار سرعة السيارة في عاصفة رعدية قبل أن تبدأ الإطارات في الارتفاع عن الطّريق، ففي مكانٍ ما تُوجد معادلة رياضية تسمح لنا بمعرفة الإجابة بدقة شديدة، لكن حسّنا العام لا يحتاج إلى تلك المعادلة ليخبرنا أن نبطئ السرعة في الطقس السيئ، وهذا جيد بما فيه الكفاية.

إلا أنه عندما يتعلق الأمر بتبسيط المواضيع الأكثر تعقيدًا، لا يكون الحس العام كافيًا.

إنَّ السبب والتأثير وطبيعة الدليل والتكرار الإحصائي جميعها أكثر تشابكًا مما في قدرة الحس العام على التعامل معه. عادة ما تُوجد إجابات تنافي الحدس لعديد من المشاكل البحثية الأكثر تعقيدًا، حتى إنها تتعارض بطبيعتها مع (حسّنا العام). (ففي النهاية، استشف البشر الأوائل من خلال الملاحظة البسيطة أن الشّمس تدور حول الأرض، وليس العكس).

يمكن لأدوات الحس العام البسيطة أن تخدعنا وتجعلنا عرضة للأخطاء الهائلة والصغيرة، ولهذا السبب عادةً ما يتحدث كل من العوام والخبراء في اتجاهات مختلفة اعتقادًا منهم أنهم

يتحدثون في الموضوع ذاته حتى وإن كانت مواضيع هامشية نسبيًا، مثل: الخرافة، والحكم الشعبية.

الحكايات الخيالية والخرافة ونظريات المُؤامرة:

إنَّ «حكايات عجائز ربات البيوت» والخرافات الأخرى هي أمثلة تُراثية أخرى للانحياز التأكيدي والجدال الذي لا سبيل لدحضه.

بعض الخرافات لها أسس عقلانية حكم التجربة العملية. فمثلا: هناك خرافة تقول إن المسافة التي تفصل السلم الخشبي عن الحائط المستند إليه هي مأوى للأرواح الخبيثة ومن ثم فإن السير فيها يجلب الحظ السيء. بالتأكيد هذه خرافة، ولكن لا يزال السير في هذه المساحة خطرًا بسبب احتمال أن يكون حظك سيئًا وينهار السلم فوق رأسك.

إن الخرافات على وجه التحديد تكون عرضة للانحياز التأكيدي؛ وهي تزدهر وتستمر في الرواج لأن الحس العام والانحياز التأكيدي عادة ما يدعمان بعضهما بعضًا. هل القطط السوداء تجلب النحس؟ إن القطط سواءً أكانت سوداء أم غير ذلك تميل إلى السّير أسفل الأقدام، لكننا ربما نتذكر فقط القطط السوداء التي تجعلنا نتعثر في تحركاتنا. أنا شخصيًا أعيش مع قطة سوداء لطيفة تُدعى: «كارلا»، ويمكنني التأكيد أنها أحيانًا ما تكون مصدر تهديد عند صعودي ونزولي درجات السلم. ربما يصدق على هذا الكلام الشّخص المؤمن بالخرافات؛ فحقيقة أن كارلا هي أيضًا القطة الوحيدة في

المنزل بالطبع، أو سواءً أتعثر أصحاب القطط الآخرين بسبب قططهم أم لم يتعثروا، فهذا لن يعني له أي شيء.

إن أكثر الحالات تطرفًا للانحياز التأكيدي لا نجدها في حكايات ربات البيوت وخرافات الجهلة، لكن في نظريات المؤامرة لدى الأشخاص الأعلى علمًا أو ذكاءً. فعلى عكس الخرافات التي تكون بسيطة، نجد أن نظرية المؤامرة معقدة بدرجة مريعة. في الواقع يتطلب الأمر شخصًا ذكيًا بقدر معتدل لتفسير نظرية مؤامرة مثيرة للاهتمام بحق؛ لأن نظريات المؤامرة ذات تفسيرات شديدة التعقيد فعليًا. كما أنها تمرينات فكرية صعبة على كل من معتنقيها ومفنديها، فالخرافات يمكن تفنيدها بسهولة كافية، ويمكن لعلماء الإحصاء إثبات أن قطتي لا تشكل خطورة تفوق أو تقل عن أي قطة أخرى على درجات السلم. لكن في أعماقنا نعرف ذلك على أي حال، ولهذا السبب، فإنَّ الخرافات من العادات الأقل كثيرًا في خطورتها.

على العكس، فإن نظريات المؤامرة تثير الإحباط تحديدًا؛ لأنها بالغة التعقيد، فكل تعقيب أو تفنيد لما قيل تنتج عنه نظرية أكثر تعقيدًا.

إن أصحاب نظرية المؤامرة يتلاعبون بالأدلة المادية كافة لتلائم تفسيرهم، لكن الأسوأ من ذلك أنهم سيشيرون أيضًا إلى غياب الأدلة بصفتها تأكيدًا أقوى حتى. في النهاية، ما الإشارة الأفضل لمؤامرة فعالة بحق أكثر من الافتقار التام لأي دليل على وجود المؤامرة؟ الحقائق وغياب الحقائق والحقائق المناقضة: كل شيء يكون دليلًا، ولا شيء يمكنه أبدًا تغيير الاعتقاد الراسخ.

هذا النوع من التفاسير بالغة التعقيد يتعارض مع المبدأ الشهير «شفرة أوكام» أو نسبة إلى اسم راهب في العصور الوسطى دعا إلى الفكرة المباشرة التي تقول بأنه ينبغي علينا دائمًا البدء بأبسط التفاسير في تحليل أي شيء نراه، وينبغي علينا عدم التدرج في لجوئنا إلى التفاسير الأعقد ما لم نحتج إليها، وهذا ما يُطلق عليه أيضًا «مبدأ القصد»، أي: أن التفسير الأرجح هو الذي يتطلب أقل عددٍ من القفزات المنطقية أو الافتراضات الواهية.

تخيل على سبيل المثال أننا سمعنا ضوضاء، تبعها سباب شخصٍ ما بصوت عالٍ من الغرفة المجاورة، فنهرع إلى الغرفة، ونرى رجلًا بمفرده وهو يمسك بقدمه، ويقفز بوجهٍ عابس، فإذا ما وجدنا صندوقًا خشبيًا خاويًا وزجاجات جعة مكسورة على أرجاء الأرض، ماذا حدث؟

معظمنا سيتوصل إلى استنتاج بسيط بأنَّ الرجل أسقط الصندوق على الأرض، وتأذت قدمه، فتفوه بهذه البذاءات. لقد سمعنا التحطم، ورأينا أناسًا يسبون عند تعرضهم لإصابات، ولدينا فكرة جيدة عما يبدو عليه الآخرون عندما يعانون ألمًا، وهذا الرفيق يتألم بوضوح، فلا مجال لافتراضات عدد للوصول إلى تفسير معقول، لكنه انطباع أولي معقول بالنظر إلى الأدلة المتاحة.

لكن مهلًا، ربما كان هذا الرجل سكيرًا، وكان يسبُّ؛ لأنه غاضب، وأسقط الصندوق، وضاعت الجعة الآن. أو ربما إنه مناصر لمنع الخمور بموجب القانون، وحطم الجعة على الأرض بنفسه في أثناء سبابه لوجودها القذر. وربما يمسك بقدمه ويقفز في الأرجاء؛ لأنه ينتمي إلى ثقافة مطمورة في

القطب الشمالي الكندي، حيث يغطي النَّاس عادة وجوههم بمعطف من الفرو، وبعدها يُعبِّرون عن الحزن (أو الفرحة أو الغضب) بإمساك قدمهم والقفز. أو ربما انه أجنبي، ويعتقد أن بعض الكلمات الآنجلو سكسونية الحادة تعني فعليًا «النجدة، أسقطت صندوق جعة على قدمي».

هنا يأتي دور مبدأ القصد، فأي احتمال من تلك الاحتمالات الغريبة وغير المحتملة إلى حدٍّ بعيد يمكن أن تكون حقيقية، لكن سيكون من السخف القفز مباشرة إلى تلك النظريات بالغة التعقيد إذا كان لدينا تفسير مباشر ونافع أمام وجهنا. ليست لدينا فكرة ما إذا ما كان الرجل ممتنع عن المسكرات أو سكيرًا، سواءً أكان من كندا أم كليفلاند، أم إذا كانت لغته الأم هي الإنكليزية. وفي حين أنه يمكننا إجراء بعض التحقيقات النهائية لنكتشف ما إذا كان أي شيء من تلك الأشياء حقيقيًا، لكن البدء بأي افتراض من تلك الافتراضات يتعارض مع المنطق والتجربة الإنسانية.

إذا كانت نظريات المؤامرة معقدة جدًا وسخيفة، فلماذا تخلب ألباب العامة في مجتمعات كثيرة؟ ولا غضاضة إن قلنا: إنها في الواقع شهيرة جدًا، وظلت مستمرة لقرون، وأمريكا المعاصرة ليست استثناءً. فعلى سبيل المثال: في أوائل سبعينيات القرن العشرين، برع الروائي روبرت لودلم (Robert Ludlum) في ابتكار تلك المؤامرات في سلسلة روايات تحظى بشعبية طاغية، بما فيها رواية عن عصبة من القتلة السياسيين المسؤولين عن اغتيال الرئيس فرانكلين روزفلت (Franklin

Roosevelt). (لكن مهلًا، أتقول: إن فرانكلين روزفلت لم يتعرض للاغتيال؟) بالضبط، باع لودلم ملايين النسخ من رواياته، وابتكر الشّخصية الخيالية للقاتل المحترف الخارق جيسون بورن الذي يعد الشّخصية الرئيسة لسلسلة من الأفلام الجذابة في القرن الحادي والعشرين.

من هناك كانت للروايات والأفلام والمسلسلات التليفزيونية تلك الشعبية بالملايين بداية من (The Manchurian Candidate) في ستينيات القرن الماضي وحتى مسلسل The X- Files) بعدها بثلاثين عامًا.

في الحياة السياسية الأمريكية المعاصرة، نجد شططًا في نظريات المؤامرة، من ذلك أن الرئيس أوباما مسلم في الخفاء ووُلِد في إفريقيا، وأن الرئيس بوش كان جزءًا من مؤامرة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأن ملكة إنكلترا تتاجر في المخدرات، وأن الحكومة الأمريكية تنثر بعض المواد الكيميائية في الهواء من خلال منافذ العوادم بالطائرات النفاثة، وأن اليهود يتحكمون في كل شيء.. ما لم يكن الحديث عن تحكم السعوديين أو المصرفيين السويسريين في كل شيء.

إنَّ أحد الأسباب التي تجعلنا جميعًا نهيم حبًا في نظرية المؤامرة الجيدة والمثيرة أنها تلقى استحسانًا لدى شعورنا بالبطولة، فرد شجاع ضد مؤامرة عظمى وقوى مناوئة تتغلب على الشّخص العادي، وهي من الصور المجازية القديمة قدم أساطير الأبطال نفسها، كما أن الثقافة الأمريكية على وجه التحديد تنجذب لفكرة الهاوي الموهوب (التي تقابل على سبيل

المثال الخبراء والصفوة) الذين يمكنهم إسقاط حكومات بأكملها -أو حتى منظمات أكبر- ويغلبون. فلم يواجه جيمس بوند المؤامرة العظمى الشريرة لسبيكتر إلى أن أدرك المؤلف البريطاني إيان فلمنج أنه بحاجةٍ لشيء يفوق الشيوعية كي يناضل بوند ضدها عندما بدأت رواياته في الظهور على شاشة هوليود من أجل الجمهور الأمريكي.

إلا أن الأهم والأكثر صلة بموضوع موت الخبرة أن نظريات المؤامرة تكون شديدة الجاذبية للناس الذين يمرون بأوقات صعبة في استيعاب هذا العالم المعقد، ومن لا صبر لهم بتفاسير أقل مأساوية. مثل هذه النظريات أيضًا تنسجم مع باع طويل من النرجسية: يوجد أشخاص سوف يختارون الاعتقاد في هراء مُعقد عوضًا عن تَقبّل أن ظروفهم الخاصة مبهمة، أو أن نتائج المواضيع تتعدى قدرتهم الفكرية على الفهم أو حتى خطأهم الشّخصي.

كما أن نظريات المؤامرة من طرق إضفاء سياق ومعنى على أحداث يخشونها. فمن غير تفسير متماسك عن سبب وقوع الأشياء الفظيعة للأبرياء، سيتعين عليهم قبول مثل هذه الوقائع كأنها لا تتعدى مجرد قسوة عشوائية إما من كون لا يعبأ بهم، وإما من معبود لا يُحاط بعلمه. إنها خيارات مريعة، ومجرد التفكير فيها يمكن أن ينتج عنه نوع اليأس الوجودي الذي حدا بشخصية من القرن التاسع عشر في الرواية التراثية (الإخوة كارامازوف) لإصدار إعلان شهير عن المأساوية: «لو أن معاناة الأطفال ستشكل مجموع المعاناة اللازمة للوصول إلى الحقيقة، فأنا أحاجج بأن الحقيقة لا تستحق هذا الثمن».

الطّريقة الوحيدة للخروج من تلك المعضلة هي تخيل العالم الذي تكون فيه مشاكلنا نتيجة أخطاء أناس أقوياء في أيديهم تجاوز تلك المأساة، وفي مثل هذا العالم، فإن مرض الأحبة الذي لا شفاء له لا يكون نتيجة أحداث طبيعية، بل نتيجة إخلال بالمهام الوظيفية في صناعةٍ ما أو من حكومةٍ ما. كما أن الكشف عن السلوكيات البشعة للمشاهير ليس بدليل على أن إعجابنا بشخصٍ ما يعني بطبيعة الحال أنه شخص شرير، بل إنه مُخطط لتلطيخ سمعة رمز محبوب. حتى خسارة نادينا الرياضي المفضل ربما يكون مدبرة. («لا أريد رؤية فريق بوفالو بيلز يفوز بكأس السوبر باول»، هذا ما قالته الشّخصية الشريرة الرئيسة في مسلسل (الملفات السرية) في إحدى الحلقات في العام 1996: «طالما أني على وجه الحياة، فلن يحدث هذا»). أيًا كان الحال، فشخص ما ارتكب خطأً؛ لأنه بخلاف ذلك، فليس أمامنا إلا أن نلوم الرب أو المصادفة المحضة أو أنفسنا.

تمامًا كما أن الأشخاص الذين يواجهون أسى أو ارتباكًا يبحثون عن أسباب ربما لا يجدون أيًا منها أيضًا، كما تنجذب أيضًا مجتمعات بأكملها نحو النظريات الأجنبية التي تخضع في العقل الجمعي إلى تجربة قومية مريعة. إن نظريات المؤامرة والاستنتاج المعيب وراءها كما ذكر الكاتب جوناثان كاي (Jonathan Kay) أصبحت مغرية على وجه التحديد، «ففي أي مجتمع عانى صدمة حادة أحس بها الجميع، يعقب ذلك أن ملايين البشر يجدون أنفسهم يفكرون في إجابة عن السّؤال القديم حول سبب وقوع الشرور للأخيار»[9]. لهذا السبب طغت

شعبية نظريات المؤامرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية واغتيال جون فيتزجيرالد كينيدي (John F. Kennedy) وهجمات سبتمبر 2001 الإرهابية من ضمن أحداث تاريخية أخرى.

أما اليوم، فإن نظريات المؤامرة في أغلبها هي رد فعل على الإزاحة الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن العولمة، كما كانت في أعقاب الحرب والتقدم السريع للهيمنة الصناعية في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وليست تلك بالمعضلة الهامشية عندما يتعلق الأمر بمشاكل انخراط الخبير مع العامة: فقرابة 30% من الأمريكيين مثلًا يعتقدون أنه «تُوجد صفوة سرية لديها جدول أعمال عالمي، ويتآمرون في النهاية على حكم العالم»، فيما يعتقد 15% أنَّ الإعلام أو الحكومة أضافوا تقنية سرية «للتحكم في العقول» بالبث التلفازي. (فيما لم يبت 15% آخرون في أمر التلفاز هذا). وقرابة نصف المجيبين كافة يعتقدون أنه من المُرجَّح على الأقل أن الأميرة ديانا من المملكة المتحدة قتلت نتيجة مخطط. من هنا يشير كاي مباشرة أنه: «بتلك المعدلات لا يمكننا الحديث عن أن التفكير التآمري ليس ظاهرة هشة أو ظاهرة لها تأثير تافه أظنها في الأجواء الحضارية والقيم الثقافية».

إن نظريات المؤامرة ليست حميدة، ففي أسوأ الحالات يمكن أن ينتج عن نظريات المؤامرة ذعر معنوي يتأذى بسببه الأبرياء. على سبيل المثال: بداية ثمانينيات القرن العشرين، اجتاح الهوس أنحاء الولايات المتحدة عندما صار عدد من

الآباء مقتنعين بأن طوائف تدعو للجنس الشيطاني منتشرة في مراكز الرعاية اليومية للأطفال، وقد ساعد «خبراء» مزيفون في تزكية هذا الذعر، حيث فسروا كل الكلمات المرتبكة من الأطفال حديثي العهد بالمشي على أنه تأكيد على التحرش بأغرب الأنواع. وغني عن القول أن التحرش بالأطفال موجود، لكن وجود نظرية عظمى -التي تعكس على الأرجح مخاوف ومشاعر الذنب للآباء العاملين أكثر من أي شيء آخر- استحوذت على الخيال الأمريكي، ودمرت حيوات عدة إلى الأبد، وعتمت مؤقتًا على آراء أفضل بخصوص مشكلة حقيقية جدًا وإن كانت محدودة للغاية[10].

لو أن محاولة الالتفاف حول الانحياز التأكيدي صعبة، فإن محاولة التعامل مع نظرية المؤامرة مستحيلة، فمن يعتقد أن شركات النفط تقف في طريق سيارة جديدة يمكن تشغيلها بأعشاب البحر من غير المحتمل أن يعجب بسيارتك الجديدة البريوس أو الفولت. (أي: السيارة الفعالة التي يمكن لأقطاب صناعة السيارات أن يسمحوا\ لك بامتلاكها).

إن الأشخاص الذين يعتقدون أن هيئات لها علاقة بالمخلوقات الفضائية موجودة في المنطقة 51 لن يغيروا معتقداتهم إن تجولوا في تلك القاعدة. (معمل أبحاث المخلوقات الفضائية أسفل الأرض، أرأيت؟).

إنَّ الجدال المُطوَّل مع أصحاب نظرية المؤامرة ليس عقيمًا فحسب، لكن أحيانًا ما يكون خطرًا، ولا أنصح به. إنه تكرار مُضجر للهُراء الذي يمكنه استنزاف حتى أكثر المعلمين تماسكًا.

مثل هذه النظريات تعد متراسًا ضخمًا ضد الخبراء؛ لأن بالطبع كل خبير يُعارض النظرية هو في حدِّ ذاته جزءٌ من المؤامرة، أو كما يعبر عن هذا الكاتب جف رونر (Jef Rouner):

> تذكر أن نوع الأشخاص الذين يؤمنون فعليًا بنظريات المؤامرة يخشون بالفعل وجود قوى مهولة وكبيرة متحالفة بخبث ضد مجالات الحياة التي تعنيهم كثيرًا، وأي إنكار للتهديد يزيد قوة التهديد؛ لأنه سمح له بالعمل دون أن يُلحظ[11].

وذلك موضع من النقاش لا يرغب أي منا في أن يكون طرفًا فيه.

لحُسن الحظ، فإنَّ تلك حالات اللاعقلانية على نطاق واسع لا تتكرر كثيرًا. مع ذلك يقبع القدر الأكبر من الابتذال وعدم الاستعداد عمومًا لتقبل نصيحة الخبراء في نفس نوع الشك ذائع الصيت لمن يُتصور أنهم أذكى أو أكثر تعليمًا من العوام، ربما يكون الضرر أقل مأساوية، لكنه لا يقل تأثيرًا، بل أحيانًا تكون تكلفته باهظة.

الصور النمطية والتعميمات:

«لا يمكنك أن تعمم هكذا» من التعبيرات القليلة التي ربما تصدر حتى في مناقشة جدالية بسيطة، فالنَّاس يقاومون التعميم -يميل الفتيان أن يكونوا هكذا، بينما تميل الفتيات أن يكن كذلك- لأننا جميعًا نريد الاعتقاد بأننا متفردون، ولا يمكن تصنيفنا بتلك السهولة.

إلا أن ما يقصده أكثر النَّاس عادة عندما يعترضون على «التعميم» ليس بأنه لا ينبغي علينا التعميم، لكن ينبغي علينا عدم استخدام الصور النمطية، وهذا بطبيعة الحال موضوع مختلف. مشكلة النقاش غير الرسمي أن النَّاس عادة لا يفهمون الفارق بين الصور النمطية والتعميمات، وهذا يجعل المحادثات شاقة ومرهقة خاصة بين الخبراء والدهماء. (أعرف بالطبع أني أعمم هنا، لكن تحلَّ معي بالصبر).

إنَّ الخلاف يهم، فالصور النمطية عادة اجتماعية قبيحة، لكن التعميم في صميم كل العلوم. والتعميمات من العبارات حمالة الأوجه، بناءً على حقائق يمكن ملاحظتها. مع ذلك، فإنها ليست بتفاسير في حد ذاتها.. وهو اختلاف آخر مهم عن الصور النمطية. إنها قابلة للقياس ويمكن تأكيدها، وأحيانًا يمكن للتعميمات أن تفترض السبب والنتيجة وفي بعض الحالات ربما حتى لا نلاحظ ما يكفي لوضع نظرية أو قانون يبقى حقيقيًّا على الدوام في ظل الظروف كافة.

من التعميم على سبيل المثال قول: إن «النَّاس في الصين عادة ما يكونون أقصر من النَّاس في أمريكا»، ربما يكون هذا صحيحًا أو لا. فمن يخلطون بين هذا وبين الصورة النمطية سوف يسارعون على الفور بالبحث عن استثناءات، وسرعان ما يصبح النقاش عديم الجدوى: «أعتقد أن الصينيين يكونون أقصر عادة من الأمريكيين»، «لا يمكنك التعميم هكذا!»، فلاعب كرة السلة الأمريكية ياو مينج (Yao Ming) طوله متران وثمانية وعشرون سنتيمترًا».

إنَّ وجود لاعب كرة سلة صيني طويل لا يثبت أي شيء على أي حال، ومن ثم يمكننا تسوية تلك المشكلة فقط بالذهاب إلى الولايات المتحدة والصين، ونقيس أطوال النَّاس، ثم نرى عدد المرات التي يصبح فيها افتراضنا حقيقيًا عادة، فلو كان الواقع أنَّ الصينيين أقصر إجمالًا من الأمريكيين، فقد لاحظنا فقط شيئًا حقيقيًا بالفعل بعدد مرات كافٍ، بحيث لا نكون مخطئين إن أكدناه كقاعدة عامة وإن لم تكن خالية من الاستثناءات.

ثم يتبع التعميم التفسير الذي يتطلب جهدًا شاقًا .لماذا يفوق الأمريكيون الصينيين في طولهم؟ هل السبب في الجينات؟ هل هو نتيجة حمية غذائية مختلفة؟ هل توجد عوامل بيئية مسببة لذلك؟ ثمة إجابات على هذا السّؤال في مكانٍ ما، لكن أيًا ما كانت تلك الإجابات، فليس من الخطأ القول: إن الأمريكيين عادة ما يكونون أطول من الصينيين، مهما كان عدد الاستثناءات التي قد تصادفنا من لاعبي كرة السلة البارعين.

مع ذلك، إن قلنا: إنَّ كل الصينيين قِصار، فتلك صورة نمطية. إن جوهر الصورة النمطية أنها حصينة ضد الاختبار الوقائعي، فالصورة النمطية لا تتحمل التدخل المزعج من الحقيقة، وتعتمد على الاستخدام الماهر للانحياز التأكيدي لرفض الاستثناءات كافة وعدّها غير ذات صلة. (تفوق العنصريون في هذا اللون من الجدال: «كل الرومانيين لصوص باستثناء السيدة الوحيدة التي عملت معها، لكنها مختلفة»).

إن الصور النمطية ليست تنبؤات، بل هي استنتاجات، ولهذا يطلق عليها: «حكم مسبق»؛ لأنها تعتمد على الحكم المسبق.

ثم يحدث التعقيد عندما ندفع بتعميم سلبي أو متأصل في معايير قابلة للجدال. لا يمكن لأحد فعليًا أن يدحض تعميمًا عن الطول، فهو شيء يسهل قياسه بطرق نقبلها جميعًا، ولسنا هنا في معرِض إلصاق أي نوع من التهم الأخلاقية أو السياسية بالطول. «طويل، ألست كذلك؟» هذا ما قالته إحدى الفاتنات للمحقق فيليب مارلو (Phillip Marlowe) في رواية النوم العميق في العام 1939. فرد مارلو: «ليس بقصد مني»، وهذا رد دقيق وذكي؛ لأننا نعرف أنه إذا كنت قصيرًا أو طويلًا، فهذا شيء لا يمكننا التحكم فيه، أو ينبغي لنا الاعتذار عنه.

مع ذلك، فإن التعميم السلبي يثير الحفيظة، خاصة عندما يستند إلى تعريفات قابلة للجدال. فإذا قلنا مثلًا: إنَّ «الروس أكثر فسادًا من النرويجيين»، تكون تلك عبارة حقيقية، لكن فقط إذا تبنينا معًا تعريفًا مشتركًا لكلمة «فساد»؛ فحسب التعريف الغربي، يعم الفساد أرجاء روسيا، لكن يمكن الاعتراض أيضًا بمنطقية شديدة وذكر أن «فساد» إحدى الثقافات يعد من «محاسن» ثقافة أخرى. ولهذا السبب تجب صياغة التعميم بعناية فائقة قدر الإمكان إن كان سيشكل أساسًا للبحث المستقبلي، كما يوجد اختلاف واضح بين «الروس في المناصب الرسمية الذين لديهم استعداد لخرق القواعد عند تنفيذ الأعمال الحكومية أكثر من نظرائهم النرويجيين» مقابل عبارة أشمل بأن «الروس أكثر فسادًا من النرويجيين».

لو لجأنا إلى هذا الانتقاء المحدود، فستكون لدينا عبارة أقل إثارة للحساسية وقابلة للقياس فعليًا، مع ذلك، فمرة أخرى

ليست لدينا فكرة عن السبب الذي يجعل هذا حقيقيًا في العموم، إننا نعرف فقط أننا إذا طبقنا المعيار ذاته باستمرار - أي: إذا لاحظنا تعاملات المسؤولين الروس والنرويجيين ذاتها بعدد مرات كافٍ- يمكننا أن نؤصل لشيء أقرب إلى الحقيقة منه إلى الزيف، ربما السبب أن القوانين الروسية عفا عليها الزمن، ويستحيل اتباعها حتى من أكثر الموظفين التقليديين نزاهة. (إنه إطناب بعض الشيء، لكن فيه عنصر الحقيقة، وهي حجة يدفع بها كثيرًا روس حقيقيون). هنا يأتي دور مزيد من الأبحاث: دعم السبب بعد التأكد من الوقائع.

بالطبع لا يهم أي من هذا كثيرًا في المحادثات اليومية، فتلك الأشياء ربما تكون حقيقية بأحد المفاهيم المحددة الضيقة، لكن من سيرغب في سماع أشياء إذا ما طُرحت دون سياق تبدو كأنها تأكيدات تحريضية؟ يمكن للمحادثات بين العوام وما بين العوام والخبراء أن تزداد صعوبة؛ لأن العواطف البشرية جزء منها، خاصة لو كانت تتعلق بأشياء حقيقية في العموم، لكن ربما لا تنطبق على أي حالة أو ظرف.

لذلك، فإن إحدى أهم سمات الخبير هو القدرة على تنحية العواطف جانبًا حتى في كنف أكثر المواضيع إثارة للجدل. على الخبراء أن يتعاملوا مع كل شيء بداية من السرطان إلى الحرب النووية كأنها مشاكل يجب حلها بالتجرد والموضوعية، ومن ثم، فإنَّ ابتعادهم عن النظرة الذاتية تمكن من فتح النقاش والتدبر في البدائل بطرق من شأنها التغلب على المغريات العاطفية التي تشمل الخوف الذي يؤدي إلى التحيز، وهذا

المطلب صعب المرام، وإلا فلن تصبح المحادثة شاقة فحسب، لكن أحيانًا بالغة التوتر.

أنا على صواب بالتأكيد؛ أما أنت فربما تكون مصيبًا:

تُوجد حقائق اجتماعية ونفسانية أخرى تعيق قدرتنا على تبادل المعلومات، فمهما عانينا من الانحياز التأكيدي أو وطأة تأثير دانينج- كروجر مثلًا، فلا نحب أن نخبر النَّاس بأننا نعرف أو نهتم بأنهم على خطأ. (على الأقل ليس في وجوههم) وبالمثل، بقدر استمتاعنا بالإحساس الطبيعي أننا على صواب حيال شيءٍ ما، فأحيانًا ما نتردد في الدفاع عن خبرتنا الفعلية، وفي المجمل نجد أنه من الصعب تفريق المعلومات سواءً أكانت الخاطئة أم غير ذلك التي تكوّن أسس معتقداتنا السياسية والاجتماعية عن صورتنا الذاتية ومفاهيمنا حيال ما نحن عليه.

على سبيل المثال: توصلت دراسة عالمية في العام 2014 إلى استنتاج مذهل: سيقطع النَّاس أشواطًا مذهلة ليستمعوا إلى بعضهم بعضًا بإنصاف، ويرجحوا الآراء كافة بالتساوي، حتى عندما يعرف كل المشاركين في المحادثة أنه يُوجد اختلاف جوهري بينهم في الكفاءة. اقترح مؤلفو الدراسة (التي تضمنت أشخاص من: الصين، وإيران، والدانمارك)، إننا جُبلنا على هذا «الانحياز للمساواة» بناءً على الحاجة البشرية أن نقبل كجزء من جماعة، فعندما يشارك شخصان في مناقشات متكررة

واتخاذ للقرار -وكانت إحدى الأجزاء الرئيسة هي توطيد العلاقة وجد الباحثون أن الأشخاص الأقل كفاءة وقدرة حجاجية دافعوا عن آرائهم بصورة أكبر مما كان متوقعًا، بينما الشخص الأكثر كفاءة وصاحب الحجة الأقوى في المحادثة فنزع إلى التماشي مع وجهات النظر الخاطئة تلك حتى عندما كان من الواضح جدًا أنها خاطئة[12].

أولًا: لا يبدو هذا أكثر من سلوكيات جيدة ورغبة في القبول، فكل طرف يرغب في أن يكون ذا صلة بالطرف الآخر، عوضًا عن المخاطرة بقطع العلاقة، ويريد الشّخص الأقل كفاءة أن ينال الاحترام، ويشارك دون أن يعد مُخطئًا أو جاهلًا. وفي حوالي ذلك لم يرغب الشّخص الأكثر كفاءة في نبذ أي أحد مقابل أن يصبح على حق دائمًا.

ربما يلائم هذا أمسية لطيفة، لكنها طريقة سيئة لاتخاذ القرارات، أو كما ذكر كريس موني (Chris Mooney) الكاتب العلمي في جريدة واشنطن بوست، فإن هذا النوع من الحراك الاجتماعي ربما يشحم تروس العلاقات الإنسانية، لكن يمكن أيضًا أن يسبب هذا ضررًا شديدًا حينما تكون الحقائق على المحك، فكتب أن الدراسة أكدت «أننا بحاجة إلى الشعور بالعرفان أكثر نحو الخبراء، ونحترمهم، وننصت إليهم. لكنه يظهر أيضًا كيف أنَّ تطورنا في المجموعات الاجتماعية يجعلنا نترابط بقوة، ويعزز الأعراف الجمعية، لكن يمكن أن يصبح خبلًا عندما يتعلق باعتراف وقبول حقائق غير مريحة»[13].

لماذا لا يقبل النَّاس ببساطة تلك التفاوتات في المعرفة أو

الكفاءة؟ إنه سؤال غير منطقي، إذ يضاهي مقولة: «لماذا لا يقبل النَّاس فحسب أن الآخرين أذكى منهم؟» (أو العكس، «لماذا لا يفسر الأذكياء فحسب سبب أن الآخرين أغبى منهم؟») الحقيقة، إن الشعور بعدم الأمان الاجتماعي يعيق كلًّا من الذكي والغبي، فجميعنا نرغب في أن نحظى بحب الآخرين.

وفي صعيد متصل، يرغب قلة منا فحسب إلى الاعتراف بالخسارة في محادثةٍ ما، خاصة مع توافر عدد كبير من المعلومات في وقتنا هذا. بل إن الضغط الاجتماعي كان عامل إغراء دائمًا حتى للذكي، فالأشخاص المطلعون يملون إلى التظاهر بمعرفة أكثر مما يعرفون، لكن هذا الدافع يزداد في عصر المعلومات. يصف الروائي والكاتب كارل تارو جرينفيلد (Karl Taro Greenfeld) هذا النوع من التوتر في تأمله حول سبب محاولة النَّاس أن «يزيفوا المعرفة الثقافية».

> ما نشعر به جميعًا الآن هو الضغط المستمر لمعرفة ما يكفي في الأوقات كافة، وإلا سنبدو وكأننا أميون ثقافيًا، لذلك حتى ننجو في محادثة سريعة بالمصعد أو لقاء عمل، أو زيارة إلى مطبخ المكتب، أو حفلة عامة، وحتى نتمكن من النشر على مواقع التواصل الاجتماعي، أو نغرد، أو نتجاذب أطراف الحديث، أو نعلق، أو نبعث رسالة نصية كأننا رأينا، وقرأنا، وشاهدنا، واستمعنا. ما يهمنا ونحن مغمورون بآلاف الوحدات من البيانات، ليس أننا استنزفنا فعليًا هذا المحتوى بالاستقاء من المصدر الأول، لكن ببساطة معرفة أنه موجود.. وأن يكون لدينا موضع فيه، ونكون قادرين على المشاركة في

اللغو حوله. لقد صرنا على مقربة إلى حدٍّ خطير من تشكيل مزيج من المعرفة بالقوة لا بالفعل التي تعد بحق نموذجًا جديدًا لعدم المعرفة[14].

يلقي النَّاس نظرة خاطفة على العناوين الرئيسة أو المقالات، ثم يشاركونها على وسائل التواصل الاجتماعي، لكنهم لا يقرأونها. ومع ذلك، فكون النَّاس يريدون أن يتصورهم الآخرون أذكياء ومثقفين، فإنهم يزيفونها بأفضل ما في وسعهم.

وكأن كل هذا ليس كافيًا ليشكل تحديًا، فإذا بإضفاء الطابع السياسي يزيد من تعقيد الأمور. إنَّ المعتقدات السياسية بين العوام والخبراء تسير إلى حدٍّ كبير بنفس طريقة الانحياز التأكيدي. لكن الاختلاف أن المعتقدات بشأن السياسة والأمور الذاتية الأخرى يصعب تغيير القناعات فيها أكثر؛ لأن رؤانا السياسية متأصلة جدًا في صورتنا الذاتية ومعتقداتنا الأعز بالنسبة لنا حول ما نحن عليه كبشر.

حسب وصف كونيكوفا في تمحيصها لدراسة زواج الشواذ الاحتيالية، فإنه من المرجح أكثر أن تنتج عن الانحياز التأكيدي «معتقدات واضحة الزيف» عندما تنبع «من مشاكل وثيقة الصلة بتصورنا عن أنفسنا»، إنها الرؤى التي لا تطيق أي معارضة، والتي عادة ما ندافع عنها بصرف النظر عن أي عقلانية، حسبما ذكر داننج:

إن بعض معتقداتنا الخاطئة التي تتمسك بها بكل تعنت ليست

نتاج أفكار طفولية بدائية أو أخطاء من التصنيف المهمل، لكن من نفس القيم والفلسفات التي تحدد ما نحن عليه كأفراد، يمتلك كل منا معتقدات راسخة محددة -سردية عن الذات وأفكار حول النّظام الاجتماعي- التي لا يمكن انتهاكها في جوهرها: وإذا عارضناها، فسوف نشكك في تقديرنا لذواتنا. وعليه، تتطلب تلك الرؤى ولاء الآراء الأخرى.

أو للتعبير عن هذا بطريقةٍ أخرى، ما نؤمن به يفصح عن شيءٍ مهم حول الكيفية التي نرى بها أنفسنا كأشخاص، يمكننا أن نقر بأننا مخطئون حول نوع الطائر الذي رأيناه للتو في باحتنا الخلفية أو أول شخص طاف أرجاء البسيطة، لكن لا يمكننا التسامح مع خطئنا حيال المفاهيم والحقائق التي نستند إليها لنحكم الكيفية التي نعيش بها حياتنا.

إليك على سبيل المثال: جدال شائع إلى حدٍّ كبير على طاولة المطبخ الأمريكية: أسباب البطالة، إذا تطرقت إلى مشكلة البطالة مع أي مجموعة تقريبًا من العوام، فستجد أن كل مشكلة فكرية محتملة تطل برأسها، الصور النمطية، والانحياز التأكيدي، وأنصاف الحقائق، وعدم الكفاءة الإحصائية التي تربك تلك المناقشة.

ضع في الحسبان شخصًا يتمسك بشدة كما يفعل معظم الأمريكيين بفكرة أن العاطلين عن العمل مجرد كسالى، وأن إعانات البطالة ربما تشجع حتى على هذا الكسل. كما هو الحال في كثير من أمثلة الانحياز التأكيدي، ربما ينجم هذا من

التجربة الشّخصية. ربما هو نتاج حياة مليئة بالعمل المستمر، أو ربما يكون نتيجة معرفة شخصٍ ما مبغض للعمل فعليًا. أيضًا ستغدو كل لافتة «مطلوب للعمل» -التي سيلاحظها الانحياز التأكيدي ويخزنها في ذاكرته- بمنزلة دليلًا على كسل العاطل، وتصبح صفحة إعلانات عن الوظائف أو ابن أخ عديم المسؤولية بدرجة مزرية دليلًا دامغًا على أن البطالة نتاج فشل شخصي أكثر من كونها مشكلة تتطلب تدخلًا حكوميًا.

والآن تخيل أنَّ شخصًا آخر على الطاولة يعتقد أن طبيعة الاقتصاد الأمريكي نفسها تجبر النَّاس على أن يكونوا عاطلين، ربما يتحدث هذا الشّخص أيضًا من واقع تجربته: إذ ربما يعرف شخصًا أطلق شركته الناشئة، وانتهى به الأمر مفلسًا وبعيدًا عن وطنه، أو طرد تعسفيًا من مشرف فاسد أو عديم الكفاءة. حينئذٍ يصبح كل تسريح عمالة من شركة وكل رئيس عمل عنصري أو متحيز جنسيًا وكل مؤسسة فاسدة دليلًا على أن النّظام مُحتشد ضد الأبرياء الذين لا يختارون البطالة أبدًا، ويفضلونها عن العمل. حينها لا تكون إعانات البطالة تلك دعمًا للكسل، لكنها خط حياة، وربما الشيء الوحيد الذي يفصل بين الشّخص النزيه والفساد التام.

بالطبع يُوجد موضع نقاش حقيقي حول مدى صحة أي حجة من هذه الحجج، لكنْ هذان الشّخصان -بالتأكيد شخصيتين متخيلتين لغرض هذا الكتاب- لن يكونا الشّخصين اللذين يخوضان هذا النقاش. بالطبع لا خلاف على أن إعانات البطالة تكبح الحاجة إلى العمل على الأقل لدى بعض النَّاس؛ كما أنه

لا جدال في أن بعض الشركات لديها تاريخ من القسوة على حساب عمالهم الذين ينفرون من الاتكال على الإعانات، وإن لجأوا إليها يكون هذا مؤقتًا. يمكن لهذا النقاش أن يستمر إلى الأبد؛ لأن كلًّا من العامل المجتهد من جهة، وصاحب القلب الطيب من جهة أخرى يمكنهما الاستشهاد بحكايات مفصلة تمامًا وفق انحيازهما التأكيدي التي تكون حقيقية دائمًا، لكنها ليست حاسمة بأي حال.

لا توجد أي طريقة للفوز بهذا الجدال؛ لأنه في النهاية لا توجد إجابات سترضي الجميع. يريد العوام إجابات شافية من الخبراء، لكن لا يمكن الحصول على أي منها؛ لأنه لا تُوجد إجابة وحيدة، بل إجابات عدة حسب الظروف. متى تشجع إعانة البطالة على الكسل؟ ما مدى تكرار التخلص من النَّاس في العمل رغمًا عن أنوفهم، ولكم من الوقت؟ إنها فروق دقيقة في مشكلة كبيرة، وحينما تكون صورتنا الذاتية متضمنة لا تجدي الفروق الدقيقة نفعًا. عندما يعجز النَّاس عن رؤية تحيزاتهم، فإن معظمهم سيدفعون الآخرين إلى حافة الجنون عوضًا عن قبول الإجابات التي تتعارض مع ما يعتقدونه بالفعل حيال الموضوع، وقد لخص عالم النفس الاجتماعي جوناثان هايدت (Jonathan Haidt) هذا بلطف عندما لاحظ أنه عندما تتعارض الحقائق مع قيمنا، «يبحث الجميع تقريبًا عن طريقة للالتزام بقيمهم ورفض الدليل»[15].

هذه النزعة قوية جدًّا في الواقع حتى إن عددًا لا بأس به من النَّاس سوف يقتلون الرسول عوضًا عن سماع شيء لا يحبونه

بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية. ففي دراسة أُجريت في العام 2015 على سبيل المثال قيست ردة فعل كل من الليبراليين والمحافظين حيال أنواع محددة من القصص الإخبارية، وتوصلت إلى أنه «كما أن المحافظين يتغاضون عن النظريات العلمية التي تعارض نظرتهم العالمية، فسيفعل الليبراليون نفس الشيء بالضبط»[16]. بل حتى المثير للإزعاج أكثر أن الدراسة كشفت أنه عند تقديم بحث علمي لهم يعارض رؤاهم، كانت ردة فعل الليبراليين والمحافظين مشككة في العلم التجريبي، وليس في أنفسهم. ذكر أحد مؤلفي الدراسة: «مجرد القراءة عن تلك المواضيع المستقطبة يؤثر سلبًا؛ بسبب بسبب الطريقة التي ينظر بها الناس إلى العلم التجريبي».

ولهذا السبب، كما سنكتشف لاحقًا في هذا الكتاب، فإن الطّريقة الوحيدة لحسم هذا الجدال من حيث الاختيارات السياسية يكون بنقلها من مجال البحث عن معترك السياسة والخيار الدّيمقراطي. لو أن الدّيمقراطية تعني أي شيء على الإطلاق، لوجب على الخبراء والعوام أن يحلوا المشاكل المعقدة سويًا. لكن أولًا يجب أن يتخطوا الفجوة المتزايدة بينهم، ربما تبدو زيادة التعليم حلًا واضحًا، لكن في الفصل التالي سوف نرى أن التعليم جزءٌ من المشكلة على الأقل في المرحلة الجامعية.

3

التعليم العالي

الزبون دائمًا على حق

«إنَّ الأشخاص الذين حبتهم الطبيعة بالعبقرية والفضيلة يجب أن يعدّوا حسب التعليم الحر جديرين بتلقي وحماية وديعة الحقوق والحريات المقدسة لإخوتهم المواطنين».

توماس جفرسون

السيد برادوك: «هلّا أخبرتني عن فائدة تلك السنوات الأربع في الجامعة؟ ما القصد من كل هذا العمل المضني؟».
بنجامين: لقد نلت مني

رواية الخريج

تلك السنوات السبع السحرية:

من المُفترض أن يداوينا التعليم العالي من الاعتقاد الزائف بأن كل شخص بنفس ذكاء أي شخص آخر. للأسف، في القرن الحادي والعشرين، فإن تأثير ارتياد الكليات على نطاق واسع كان عكسيًا، إنَّ الغالبية العظمى من الأشخاص الذين ارتادوا كلية أو درسوا فيها يعتقدون أنهم النظراء المتعلمون حتى لأعتى

الأكاديميين والخبراء، فلم تعد الكلية مكانًا مخصصًا للتعليم والنضج الشّخصي؛ بل صارت شتاتًا من قطيع الشباب الأمريكيين الذي يفر إليها والمنافسة المحتدمة التي تلي ذلك على رسوم تعليمهم بالدولار، والتي نتجت عنها تجربة متمحورة حول الزبون، والتي يتعلم فيها الطلاب قبل أي شيء أن الزبون دائمًا على حق.

قبل الحرب العالمية الثانية لم يُتِم معظم النَّاس تعليمهم في المدرسة الثانوية، وارتاد بعضهم الكليات، ففي ذلك العهد المبكر كانت النسبة الكبيرة للمقبولين في كليات القمة من العائلات الثرية، مع أنه أحيانًا يكون في مقدرة بعض الشبان وقلة من النساء أن يدبروا المال من أجل رسوم التعليم أو الحصول على منحة دراسية. كانت تجربة حصرية عادة ما يؤثر فيها بشدة الطبقة الاجتماعية كما تهيمن عليها الأهلية. مع ذلك، كان ارتياد الجامعة بمثابة دليل على القدرة الكامنة، والتخرج علامة على الإنجاز. كانت الدرجة الجامعية نادرة، تشكل علامة فارقة بين الخبراء والعارفين عن باقي المجتمع.

واليوم، فإن ارتياد التعليم بعد الثانوي من التجارب التي يمر بها عدد كبير من النَّاس، ونتيجة هذه الزيادة في الالتحاق بالتعليم العالي، فقدت كلمة «كلية» نفسها معناها، على الأقل من حيث الفصل بين المتعلمين والنَّاس كافة. إن «الخريج الجامعي» في أيامنا هذه له عدد من المعاني، وللأسف لا تشمل تلك المعاني دائمًا «شخص لديه إنجاز تعليمي واضح».

إنَّ الانتقاد اللاذع للكليات والجامعات من العادات

الأمريكية، كما هو حال الانتقاد اللاذع لأعضاء هيئة التدريس مثل الذين يدرسون فيها، كما أن الصور النمطية وافرة، بما فيها الأستاذ الجامعي المتكلف (أو المتطرف أو غير الواقعي) الذي يدرس لجمع من الأطفال الذين يشعرون بالملل وجاؤوا هم أنفسهم إلى الحرم الجامعي من أجل أي عدد من الأنشطة باستثناء التعليم. كان الشباب ينعتون بمصطلح: «فتى الكلية» الأكبر سنًا التي تعني ضمنيًا بوضوح أن التعليم ليس بديلًا عن النضج أو الحكمة.

لكن هذا الكتاب لا يتناول سبب إخفاق الكليات، فليس لديَّ عدد كافٍ من الأوراق لهذا، بيد أنه يتعلق بالسبب الذي يجعل عددًا أقل من النَّاس يحترمون التعليم والخبرة، وهذا الفصل بدوره يتعلق بالكيفية التي صارت بها الكليات والجامعات -للمفارقة- جزءًا أصيلًا في تلك المشكلة.

وبالرغم من قولي لهذا، فإني أظل من المدافعين عن النّظام الجامعي الأمريكي، بما في ذلك العلوم الإنسانية التي كثيرًا ما يساء إليها، فأنا شخصيًا ممن استفادوا من زيادة القدرة على الالتحاق بالتعليم العالي في القرن العشرين والحراك الاجتماعي الذي نتج عنه. ولا جدال بشأن الأرقام القياسية التي حققتها تلك المؤسسات: مازالت الجامعات في الولايات المتحدة هي مصادر التأثير الفكرية الرائدة في العالم، ومازال لديَّ إيمان في قدرة المعاهد والكليات على إنتاج المعرفة، وأن يتخرج منها مواطنون واسعو المعرفة.

مع ذلك، ففي واقع الأمر، إن عددًا من مؤسسات التعليم

العالي الأمريكية فشلت في تقديم المعرفة الأساسية والمهارات لطلابها التي تشكل الخبرة، والأهم، فإنها فشلت في تقديم القدرة على إدراك الخبرة والانخراط بفاعلية مع الخبراء والمهنيين الآخرين في الحياة اليومية. أما الأكثر أهمية في تلك القدرات الفكرية، وأكثرها عرضة للهجوم في الجامعات الأمريكية، فهو التفكير النقدي: ويعني القدرة على فحص المعلومات الجديدة وتمحيص الأفكار بلا مشاعر وبمنطق ودون أي مفاهيم مسبقة عاطفية أو شخصية.

وذلك لأن ارتياد تلك المؤسسات بعد التعليم الثانوي لم يعد يضمن «تعليمًا في الكلية» في المقابل توفر الكليات والجامعات الآن تجربة الخدمة الشاملة «لارتياد الكلية»، وليس هذين بنفس الشيء ولو من بعيد، مع ذلك يتخرج الطلبة الآن ولديهم اعتقاد بأنهم يعرفون أكثر مما يعرفونه في الواقع، أما اليوم، فحينما يقول أحد الخبراء: «حسنًا، لقد ارتدت كلية». يصعب حينها إلقاء اللوم على العامة إن أجابوا، «ومن لم يرتدها؟» إن الأمريكيين الذين يحملون درجات جامعية يعدون أنفسهم الآن على نطاق واسع «متعلمين»، بينما في الواقع أفضل ما يمكن لأكثرهم قوله: إنهم واصلوا الدراسة في أحد أنواع الفصول الدراسية بعد المرحلة الثانوية، وتتنوع النتائج تنوعًا هائلًا.

لقد تسبب تدفق الطلاب إلى المؤسسات التعليمية بعد المرحلة الثانوية في زيادة تسليع التعليم، إذ يعامل الطلاب اليوم في معظم الكليات كأنهم زبائن، وليسوا طلابًا. معظم

الشبان الذين تخرجوا بالكاد من المدرسة الثانوية يمارس عليهم دور القوادة ماديًا وفكريًا، ما يعزز بعض أسوأ الميول بداخل الطلاب الذين لمَّا يتعلموا بعد الانضباط الذاتي الذي كان ضروريًا يومًا ما للسعي وراء التعليم العالي. أما الآن، فيُسوق للكليات وكأنها باقة لإجازة على سنوات عدة، وليس تعاقدًا مع مؤسسة وهيئتها التدريسية من أجل مقرر تعليمي لدراسته. هذا التسليع للتجربة الجامعية نفسه كمنتج لا يدمر فحسب قيمة الدرجات الجامعية، لكنه يُقوِّض أيضًا الثقة بين سائر الأمريكيين بأن الكلية تعني أي شيء.

إنها مشكلة أعمق من الأعمال المثيرة والبدع والسخافات الفكرية في الأحرام الجامعية التي تستحوذ على مخيلة العامة من آن لآخر، وسيكون هناك دائمًا درجة محددة من الحماقة في أغلب الأحرام الجامعية.

كتب دكتور دان دريزنر (Dan Drezner) بصفته أستاذًا في جامعة تافتس: «أحد أغراض الجامعة أنها تفصل بوضوح الحجج الغبية بطرق غبية، ثم تلقين الطلبة مدى غبائها من خلال التفاعل بين الطلاب والأساتذة الجامعيين»[1].

إنَّ الحياة الجامعية خاصة في معظم كليات الصفوة تكون بمعزل عن المجتمع، وحينما يعزل الشباب والمثقفون عن العالم الحقيقي يمكن أن تحدث أمور غريبة.

وبعضها ليست إلا تفاهة باهظة الثمن، وإن لم تكن مضرة في حد ذاتها، فبعض أولياء أمور الطلبة في جامعة براون على

سبيل المثال يهدرون أموالًا طائلة، بحيث يتمكن أبناؤهم من المشاركة في أشياء من قبيل «أسبوع التعري في الحرم الجامعي». (قالت إحدى المشاركات من جامعة براون في العام 2013 أن «ردة الفعل السلبية» على هذه الفعالية «ساعدتها في الاستعداد من أجل الحياة بعد الجامعة»، ولا يسع المرء إلا أن يأمل هذا)، لكن في النهاية، لست قلقًا إلى هذه الدرجة حيال طلاب عراة يندفعون إلى شوارع المقاطعة كالمجانين. بل إن قلقي حيال الكليات وكيف أنها زادت من وتيرة موت الخبرة لترقد مع ما يحدث -أو لا يحدث- في القاعات الدراسية.

في أفضل حالتها يجب على الكليات أن تهدف إلى إنتاج مزيد من الخريجين ممن لديهم خلفية معقولة عن موضوعٍ ما، واستعدادًا لمواصلة التعليم لبقية حياتهم، وقدرة على تقلد الأدوار بصفتهم مواطنين يتمتعون بالقدرة والأهلية. عوضًا عن هذا صارت الكلية بالنسبة لعدد من النَّاس حسب كلمات أحد خريجي الكليات التي اشتهرت برواج الكحوليات والمخدرات في كاليفورنيا، «تلك السنوات السبع السحرية بين المرحلة الثانوية ووظيفتك الأولى في مستودع». لم تعد الكلية مسارًا لتعليم النضج، بل لم تعد إلا أسلوبًا لتأجيل الانطلاق إلى حياة الرشاد، في بعض الحالات، يسري هذا الكلام على أعضاء هيئة التدريس كما يسري على الطلاب.

يكمن جزءٌ من المشكلة في أنه يوجد عدد كبير من الطلاب، لا ينتمون ببساطة إلى الجامعة. تقضي الثقافة التعليمية الجديدة في الولايات المتحدة بأنه يجب ويتحتم على الجميع ارتياد

الجامعة، وهذا التغيير الثقافي مهم بالنسبة لموت الخبرة؛ لأنه مع انتشار البرامج التي تلبي الطلب، صارت الكليات بمثابة آلات صك الدبلومات التي تكون درجاتها الفعلية دالة على التدريب أكثر مما تدل على التعليم، وهما مفهومان مختلفان تمامًا، ويختلطان في ذهن العامة. في أسوأ الحالات، لا تثبت الدرجات تعليمًا أو تدريبًا، بل حضور الفصول، وعلى أقل تقدير فهي لا تفيد أكثر من دفع الرسوم في أوانها.

وتلك إحدى الأشياء التي لا يفترض للأساتذة الجامعيين قولها في صحبة أناس مهذبين، لكنها الحقيقة. إن الشبان الذين كان يفترض أن يكون أداؤهم أفضل في التجارة التحقوا بالجامعة دون التفكير كثيرًا كيف سيتخرجون، أو ما سيفعلونه عندما ينتهي كل هذا، فتتحول السنوات الأربع إلى خمس، وازدادوا ستًا أو أكثر. وفي النهاية يتحول النّظام الدراسي المحدود إلى زيارات متكررة لمقصف أطعمة تعليمية منوعة وباهظة التكاليف والمليئة في الغالب بأطعمة فكرية مضرة صحيًا، كما يقل إشراف البالغين المفترض أن يحرصوا على اختيار الطلاب للتغذية وليس الهراء.

إن كليات وجامعات الصفوة والأكثر تنافسية لا تعبأ إلا قليلًا بهذا الشأن، إذ يمكنهم الانتقاء والاختيار من بين المشاركين كما يتمنون ويملؤون محاضراتهم الدراسية القادمة بطلاب ممتازين في العموم. وبالتالي، يتلقى طلابهم تعليمًا كاملًا أو مشابهًا لذلك، ومن ثم يلتحقون بوظائف مُربحة. مع ذلك، فإن المؤسسات الأخرى انتهى بها الحال في سباق نحو القاع، ففي

النهاية كل هؤلاء الصغار سيلتحقون بالكلية في مرحلةٍ ما، وبالتالي، فإن الجامعات التي لا يمكن تمييزها عن غيرها من حيث الجودة الفكرية ستتنافس على تقديم بيتزا أفضل في ساحات الأطعمة، وسكن طلبة أكثر ترفًا ومزيد من الأنشطة إلى جانب الجهد الممل المترتب على الذهاب فعليًا إلى المحاضرات.

ولا يوجد عدد كبير من الطلاب فحسب، بل يوجد أيضًا عدد من الأساتذة الجامعيين. إن أفضل الجامعات الوطنية التي تعد أفضل المصادر لهيئة التدريس الجامعية، تضخ بلا تمييز درجات دكتوراه بمعدلات أعلى بكثير مما في استطاعة سوق العمل الأكاديمي أن يستوعبه، كما إن عددًا أقل من الكليات التي لها مصلحة في منح درجات علمية متقدمة -وعدد منها مؤهل بالكاد ككليات مرموقة حتى على مستوى الطلاب الجامعيين- تقدم شهادات دكتوراه بدرجات متدنية، حتى إنها نفسها لن تعين أي أحد من خريجيها.

حشود من العاطلين الحاملين للدكتوراه الذين يحملون أطروحات دكتوراه متوسطة في شتى المواضيع المُعدَّة لفئة قليلة من النَّاس التي تجوب المشهد الأكاديمي ومستعدين حرفيًا للتدريس من أجل أن يقتاتوا.

حتى إن مصطلح «أستاذ جامعي» صار مبتذلًا من كثرة استخدامه، هذا اللقب الذي كان نادرًا يومًا ما، صارت المؤسسات بعد المرحلة الثانوية تستخدمه حسب مشيئتها. فأي شخص يدرس أي شيء فوق مستوى المدرسة الجامعية صار

أستاذًا الآن، بداية من الأقسام العليا في الجامعات البحثية الكبيرة إلى المعلمين بدوام جزئي في الكليات الأهلية. وكما أن كل معلم صار «أستاذًا جامعيًا»، فكذا كل كلية صغيرة صارت «جامعة»، وهي ظاهرة وصلت إلى مستويات سخيفة. والكليات المحلية الصغيرة التي كانت تخدم مناطق سكنية عادت للظهور مجددًا باسم «جامعات» وكأنها الآن تمتلك مصادر جزيئات خلف مقصف الطعام.

إنَّ بزوغ تلك الجامعات الوهمية هو جزئيًا استجابة للطلب النهم على الدرجات العلمية في ثقافة يعتقد فيها الجميع أنه ينبغي عليه الالتحاق بكلية، وهذا بدوره نتجت عنه دوامة من التضخم في الدرجات العلمية، تسبب الكليات هذا المدى من التضخم بنفس الطّريقة التي تسبب بها الحكومات تضخمًا ماليًا: بطبع مزيد من الورق. ذات يوم كانت شهادة الثانوية من متطلبات الدخول في عالم التجارة أو البدء في وظيفة. لكن الجميع يحملون تلك الشهادات الآن بما في ذلك من لا يستطيعون القراءة حتى، وبالتالي، كانت فائدة الكليات أنها أثبتت إتمام المرحلة الثانوية، وبالتالي، تلبي درجة الماجستير حاليًا المتطلبات التي كانت تلبيها فيما مضى درجة شهادة الثانوية. سوف يفلس الطلاب عندما يركضون داخل عجلة الهامستر التعليمية تلك دون محصلة تعليمية كبيرة[2].

كيفية حل كل هذا من الأسئلة الحاسمة لأجل مستقبل التعليم الأمريكي، من هنا قال المرشح الرئاسي للحزب الدّيمقراطي وعضو مجلس الشيوخ بيرني ساندرز (Bernie

Sanders) في العام 2016 أن شهادة الكلية توازي اليوم ما كانت تمثله شهادة الثانوية منذ خمسين عامًا، وإنه وجب على الجميع ارتياد الكليات تمامًا كما يذهب الجميع الآن إلى المدرسة الثانوية. في الواقع، فإن معاملة الكليات مثل مدارس ثانوية إصلاحية من الأسباب الكبرى التي أوصلتنا إلى تلك المرحلة في المقام الأول. لكن النقطة الأهم أن النتيجة المتراكمة لذلك العدد الكبير من «الطلاب»، والعدد الكبير من «الأساتذة الجامعيين»، والعدد الكبير من «الجامعات»، والعدد الكبير من الدرجات الجامعية أن الحضور إلى الكليات لم يعد ضمانًا بأن النَّاس يعرفون ما يتحدثون عنه.

إنَّ إخفاقات الجامعات المعاصرة سببت مزيدًا من الهجمات على نفس المعرفة التي عملت تلك المؤسسات لقرون كي تصنعها وتعلمها للأجيال المستقبلية، وقد أُهمِل دور الانضباط والنضج الفكري. إن تدريس العلم الثقافي المهم -بما يشمل كل شيء بداية من كيفية طَرْح جدالٍ منطقي وصولًا إلى الحمض النووي الأساسي للحضارة الأمريكية- لم يعد مهمة جامعات خدمة العملاء.

مرحبًا يا زبائن!

من المفترض أن تكون الجامعة تجربة غير مريحة، إنها المكان الذي يترك فيه الإنسان تعليم الحفظ والصمّ الذي كان يعهده في الطفولة، ويتقبل القلق وعدم الراحة وتحدي التعقيد الذي يؤدي

إلى تحصيل المعرفة الأكثر عمقًا.. على أمل استمرار هذا لبقية حياته. إذ يفترض أن الدرجة الجامعية، سواءً أكانت في الفيزياء أم الفلسفة، هي علامة على شخص «متعلم» بحق الذي لم يتقن موضوعًا محددًا فحسب، لكن أيضًا لديه فهم أشمل لثقافته وتاريخه، ولا يفترض أن يكون هذا سهلًا.

لم تعد تلك هي الطّريقة التي ينظر بها إلى الجامعة في أمريكا المعاصرة سواءً أكان من مقدمي خدمة التعليم أم متلقي التعليم العالي، لقد صار التعليم بطريقته المرتكزة حول الزبون تلك يعني بتقديم خدماته للمراهقين لا الأخذ بأيديهم بعيدًا عن المراهقة. وعوضًا عن تحرير الطلاب من الذاتوية الفكرية، انتهى المآل بالجامعات المعاصرة وهي تعززها، يمكن للطلاب مغادرة الحرم الجامعي، ولا يقبلون تمامًا أنهم التقوا شخصًا أذكى منهم، سواءً أكان بين أقرانهم أم أساتذتهم. (وهذا على افتراض أنهم حتى يعبؤون بالتفريق بين أقرانهم وأساتذتهم على الإطلاق). إنهم يقبلون شهاداتهم الجامعية كإيصال يشهد بأنهم أمضوا سنوات عدة رفقة عدد كبير من الأشخاص المثيرين للاهتمام الذين دفعوا هم وعائلاتهم لقاء خدمتهم.

وليس هذا قولًا بأنَّ طلاب اليوم عديمي الكفاءة فكريًا، فمعظم الشبان في الكليات المنافسة أتقنوا بالفعل شعائر الخضوع إلى اختبار والتوصيات والأنشطة اللامنهاجية وشارات جدارة أخرى ذات علاقة بالكلية، لكن للأسف ما إن يتغلبوا على متاهة القبول بالكليات ويصلوا إليها، يمضون السنوات الأربع التالية في تلقي قدرٍ قليل من التعليم، وقدر هائل من

المديح. بل ربما حتى يشكّون بنفس القدر، ونتيجة لهذا يكونون عرضة لخطر المزج بين توليفة مسممة من عدم الأمان والعجرفة التي لا تخدمهم بفاعلية ما إن يتركوا أحضان آبائهم ويخرجون من أسوار كلياتهم.

وفي الوقت نفسه، في الكليات الأقل تنافسية، يشعر الطلاب بقدر أقل من القلق خلال عملية التقديم للكلية. أو كما أشار الكاتب الاقتصادي بن كاسيلمان (Ben Casselman) في العام 2016، فإن معظم المتقدمين للكليات «لا تنبغي عليهم أبدًا كتابة مقال عن الدخول إلى الكلية، أو حشو سيرة ذاتية، أو يتحدثون بكلام معسول إلى كاتب خطاب محتمل»؛ لأن أكثر من ثلاثة أرباع الطلاب الجامعيين الأمريكيين يلتحقون بكليات تقبل على الأقل نصف المتقدمين لها، بينما يلتحق 4% فقط بكليات تقبل 25% أو أدنى من ذلك، وأقل من 1% يلتحقون بكليات القمة التي تقبل أقل من 10% من المتقدمين إليها[3]. وبناءً عليه، فإن الطلاب في تلك المؤسسات التعليمية الأقل منافسة يعانون لإتمام تعليمهم، حيث يكمل نصفهم فقط درجة البكالوريوس خلال ست سنوات.

أيضًا أكثر هؤلاء الطلاب الملتحقين غير مؤهلين لكي يكونوا في الكلية وبحاجة إلى قدر مهول من الدراسة العلاجية. تعرف الكليات هذا، لكنها تقبل الطلاب الذين يلتحقون بتلك الكليات رغمًا عنها، ويلزمونهم بدراسة مقررات دراسية تمهيدية كبيرة (لكنها قليلة التكلفة)، ويأملون أن يتحقق الأفضل. لماذا تفعل الكليات هذا وتنتهك بوضوح بعض معايير شروط القبول التي

يمكن أن يفرضوها؟ كما كتب جيمس بيرسون (James Piereson) من معهد مانهاتن في العام 2016، «تتبع المال». حقيقة الأمر أن «الكليات الخاصة -على الأقل تلك الأدنى مرتبة من كليات القمة- تتحرق شوقًا للطلاب وعلى استعداد لقبول الطلبة غير المؤهلين بالمرة إن كان هذا يعني تلقي رسوم التعليم بالدولار». بعضهم يُتِم دراسته، والبعض الآخر لا يُتِممها، لكن يدفع للمؤسسة التعليمية بضع سنوات على أي حال، وفي مرحلةٍ ما يمكن لشابٍّ ما أن يقول بأنه تلقى على الأقل «بعض التعليم في كلية».

حتى بغير تلك الضغوط المالية، فإنَّ التدافع الحاشد إلى الكليات من الطلاب غير المستعدين سببه أيضًا ثقافة التأييد وتأكيد الذات التي تمنع مواجهة الأطفال بالفشل. أو كما كتب روبرت هيوز (Robert Hughes) في العام 1995: إنَّ أمريكا عبارة عن ثقافة «يدلل فيها الأطفال على الاعتقاد بأنهم غير مغفلين»[5]. وقد سجلت مُدرِّسة مبتدئة بمدرسة ثانوية بماريلاند جوهر تلك المشكلة بعد عقدين من ذلك العام 2014 في مقال نشرته بجريدة واشنطن بوست بعد أن قررت الاستقالة من وظيفتها، قالت: إنَّ إدارة مدرستها أعطتها تعليمات كانت بالنسبة لها «شعارات محددة للتعليم العام». أحدها أن الطلاب لا يسمح لهم بالفشل، والأخرى عكست النهج المتمركز حول العميل في الكليات: «لو حصلوا على درجة مقبول أو راسب، فهذا يعني أن هناك تقصيرًا من جانبك»[6].

لقد واجهت هذا بنفسي مرات عدة، وليس بين الأطفال فحسب

أو صغار الطلاب الجامعيين، إذ كان من ضمن طلاب الدراسات العليا لديَّ من أخبروني أنَّهم إن لم يحصلوا على درجة ممتاز في المقرر الذي أدرسه، فإن درجاتهم الأقل من هذا ستكون دليلًا على التعليم السيئ من جانبي. وكان لديَّ طلاب أيضًا فشلوا تقريبًا في حلقتي الدراسية، وطلبوا مني -بل في بعض الحالات استوجبوا- إعطائهم توصية من أجل الالتحاق ببرنامج خريجين أو كلية مهنية. ربما لا يكون طلاب الكليات أغبى مما كانوا عليه منذ ثلاثين عامًا، لكن زاد شعورهم بالاستحقاق وثقتهم في النفس التي لا أساس لها إلى حد كبير.

ومما لا ريب فيه أنَّ التنشئة من الأبوين تلعب دورًا كبيرًا هنا، فالآباء الذين يفرطون في حماية أبنائهم صاروا متطفلين إلى درجة أن عميدة سابقة لطلاب السنة الأولى في جامعة ستانفورد ألفت كتابًا كاملًا قالت فيه: إن هذه «الرعاية الأبوية الأشبه بطوافة» كانت تفسد جيلًا من الأطفال، فهؤلاء هم الآباء الذين يدافعون ويدللون أطفالهم حتى المدارس الثانوية والكليات، فيؤدون واجباتهم المدرسية نيابة عنهم -تطلق عميدة ستانفورد على هذا بأدب: «إفراط في المساعدة»- وفي العموم المشاركة في كل جوانب حياة الطفل[7]. بعضها أسوأ من الأخرى، بل يُوجد حتى آباء انتقلوا إلى نفس المدينة التي فيها كلية أبنائهم؛ ليكونوا قُربهم عند حضورهم إلى الكليات، وليست تلك «بالرعاية الأبوية الأشبه بطوافة»، لكنها أشبه «بالرعاية الأبوية كطائرة حربية نفاثة للدعم عن قرب».

ومن المشاكل الأخرى على النقيض إلى حدٍّ ما نجد رغد

العيش، يبدو هذا وكأنه ادعاء في وقت يقلق فيه عدد من الآباء والشبان حيال كيفية الوفاء بالتكاليف التعليمية، لكن في واقع الأمر، إنَّ عددًا أكبر من النَّاس يلتحق بالكليات عن ذي قبل، في الأغلب من خلال استغلال مدد لا ينضب افتراضيًا من القروض المهلكة، فإذا بالشباب اليافعين من طبقات المجتمع الأمريكي كافة والمتشبثين بتلك الأموال التي تضمنها الحكومة، يتسوقون لاختيار أي كلية من تلك الكليات، تمامًا كما يتسوق أي منا لشراء سيارة، في استجابة منهم للدعاية الشرسة من تلك المؤسسات التي تحفزها الرسوم التعليمية.

ومن الأمثلة المناسبة على طقوس التسوق تلك زيارة المدن الجامعية التي يتعلم فيها هؤلاء اليافعون اختيار الكليات لأي عدد من الأسباب إلى جانب التعليم. ففي كل ربيع وكل صيف تمتلئ الطرق السريعة بهؤلاء اليافعين وآبائهم في رحلات على الطّريق لزيارة الكليات التي ما قبل فيها بعد هؤلاء الزبائن الصغار، بل يفكرون في التقديم فيها. هؤلاء ليسوا يافعين أثرياء فحسب، بل يجوبون جامعات النخبة، فعادة ما يخبرني أصدقائي ممن لديهم أبناء يافعون عن أنهم يقطعون أميالًا لزيارة كليات صغيرة وحكومية لم أسمع عنها على الإطلاق، وفي كل عام يطلب هؤلاء الآباء مشورتي، وفي كل عام أقول لهم: إنها فكرة سيئة. وفي كل عام يشكروني على مساهمتي بالرأي، ويفعلون ذلك على أي حال. وفي نهاية تلك العملية، تكون العائلة بأكملها مرهقة ومتعبة، ويبدو أن السّؤال عما علمته لهم تلك الكليات فعليًا بمثابة فكرة هامشية تقريبًا.

عادة ما يحب الشباب معظم الكليات؛ لأنها بالنسبة لهؤلاء اليافعين كونهم كانوا عالقين في المدرسة الثانوية، فإن الكليات كافة تبدو أماكن عظيمة جدًا. بالطبع بعض الخيارات تسقط سريعًا من الحسبان، كأن تكون المدينة قبيحة أو الحرم الجامعي قذرًا أو يكون السكن الجامعي رثًا، وهذا كل ما في الأمر. وأحيانًا أخرى يقع الطلاب المحتملون في حب الكلية، ثم يمضون شهورًا في أسى كأحد الخاطبين المتوترين، على أمل أن الكلية التي اختاروها بعدما تخطوا بالكاد سن السادسة عشر سوف تومئ إليهم بالموافقة وتغير مسار حياتهم.

صار من الغريب الآن على عدد من أولياء الأمور والشبان الصغار فكرة أنه ينبغي على الشباب اليافعين التفكير أولًا في سبب رغبتهم في ارتياد الكليات أصلًا، ويبحثون عن كليات ربما تلائم قدراتهم، ويتقدمون إلى تلك الكليات بعدها، ثم يزورون أي كلية من تلك الكليات التي يقبلون فيها، فإذا سألت الآباء عن سبب اصطحاب ابنتهم بالسيارة إلى أرجاء الأرض كافة لزيارة الكليات التي ربما لا تكون لدى ابنتهم رغبة في ارتيادها، أو ليست لديها فرصة للقبول بها، ونادرًا ما تخرج الإجابات عن: «حسنًا، لقد أرادت رؤيتها»، والجملة التي يضيفها بعض منهم هي: «واخترنا إنفاق المال على فعل هذا». إن استمارات التقديم للكليات بخمسين دولارًا أو أكثر، وليس هذا بالمبلغ الهين، لكنه أغلى بكثير عندما تضاف إليه رحلة على الطّريق من مدينة أميرست إلى مدينة أطلنطا.

هذه العملية بأكملها لا تعني فقط أنَّ الأبناء مسؤولون،

لكنهم يتلقنون بالفعل تقييم الكليات لبعض الأسباب بخلاف التعليم الذي قد توفره إليهم، والكليات تعرف هذا ومستعدة لفعله، تمامًا كما يعرف تاجر السيارات المحلي بالضبط كيف يضع طرازًا جديدًا في غرفة عرض، أو كما تعرف صالات القمار بالضبط كيف تعطر الأجواء بالعطر عندما يدلف زبون دائم من الباب، فكذلك الكليات لديها أنواع المزايا الإضافية كافة والبرامج جاهزة كنقاط لتبيعها، ومعظمهم يتفوق على منافسيه بأشياء لا تهم إلا الصغار.

وبدافع من التنافس على اليافعين ودولارات قروضهم التعليمية، تقطع المؤسسات التعليمية وعودًا بتقديم تجارب ممتعة وليس تعليمًا. (أنحي جانبًا الكليات التي تهدف للربح هنا، والتي تعد بنسبة كبيرة مجرد مصانع لإنتاج الديون واستبعدها عمومًا من تعريف «التعليم العالي»).

لا ضير في إنشاء مركز طلابي جذاب أو تقديم عدد وافر من الأنشطة، لكن عند مرحلةٍ ما يشبه الأمر مُستشفى تغوي المرضى بالقلب؛ كي يختاروها من أجل إجراء جراحة فتح مجرى جانبي للشريان التاجي؛ لأن بها طعامًا شهيًا.

وقد صار الصغار والشبان اليافعون مخولين أكثر بالانتقاء في تلك العملية على الأقل جزئيًا؛ لأن برامج القروض أحالت السيطرة على الرسوم التعليمية من الآباء إلى الطلاب، كذلك يُوجد أيضًا ذلك الاتجاه السائد الأعم، حيث تنازل الآباء منذ بضعة عقود عن القرارات التي كانوا يتخذونها حيال عدد من الأشياء التي تخص أبنائهم. على أي حال، من الصعب مخالفة

الملاحظة التي توصل إليها كاتبة العمود في بلومبيرج ميجان مكاردل (Megan McArdle) بأن القرارات حيال هذا العمل بأكمله انتقلت من الآباء إلى الأبناء، مع نتائج متوقعة عندما «يكون الطلاب أكثر قلقًا من آبائهم حيال ما إذا كانت التجربة التي سيمرون بها غير سارة»[8].

من هنا تلعب مؤسسات التعليم العالي على أوتار تلك المطالب بالسبل كافة. على سبيل المثال، بعض الكليات الآن تحاول أن تخفف التوتر الذي ينتاب كل طالب في المدرسة الثانوية حول العيش مع الغرباء. ذات مرة، كان تعلم العيش مع رفيق غرفة جزء من عملية النضج، لكنها تجربة يُفهم أنها كانت مخيفة من الصغار الذين مازالوا يعيشون مع آبائهم، لكن لم يعد هذا هو الحال كما كتب عضو هيئة التدريس في جامعة ولاية أريزونا في العام 2015:

> في عدد من الكليات يتعرف الطلاب الجدد بالفعل على رفاقهم في الغرف على مواقع التواصل الاجتماعي، ويعيشون في مساكن طلاب أشبه بشقق فارهة. وهذا يضمن أنهم في الأساس لن يشتركوا أبدًا في غرفة واحدة أو حمام، أو حتى يأكلون في قاعات الطعام إن لم يرغبوا في هذا. كانت تلك هي الأماكن التي تعلمت فيها الأجيال السابقة أن تعيش مع أناس مختلفين وإدارة النزاعات عندما يُختارون عشوائيًا للعيش مع غرباء في مساكن قريبة ومشتركة[9].

لو اختار أحد الطلاب الالتحاق بجامعة ولاية أريزونا لأنه لا

يحب فكرة تناول الطعام أبدا في قاعة طعام، فثمة شيء خاطئ بالفعل في العملية بأكملها. بالطبع يتخذ عدد من الشباب خيارات أسوأ لأسباب أكثر سخافة حتى.

الطلبة صغار ويحب الآباء أبنائهم، هذا منصف بما فيه الكفاية، لكن عندما يكون مهرجان المتقدمين والقبول بالكليات قد ولى، على هيئة التدريس أن تعلم الطلبة الذين يدخلون إلى محاضراتهم بتوقعات لا علاقة لها تمامًا بالمتطلبات الفعلية لتحصيل التعليم الجامعي. فاليوم لا يعلم الأساتذة طلابهم؛ بل يعلم الطلبة أساتذتهم، بسلطة تخوّل إليهم بطبيعة الحال. على سبيل المثال: طالبت مجموعة من طلاب جامعة ييل في العام 2016 أن يلغي قسم اللغة الإنكليزية محاضراته في مادة شعراء اللغة الإنكليزية؛ لأنه كان زاخرًا بالذكور الأوروبيين البيض: قالوا في التماسهم، «لقد تحدثنا، ومازلنا نتحدث. ألقوا لنا بالًا»[10]. وكما قال لي أحد الأساتذة في كلية مرموقة: «في بعض الأيام يقل شعوري بأني مُدرِّس، ويزداد شعوري بأني موظف في محل ملابس فاخر».

وما المانع في أن يقول هذا؟ فقد تعلم هؤلاء الصغار أن ينادوا الراشدين بأسمائهم الأولى منذ أن كانوا يتعلمون المشي، ومنحوا «درجات» من شأنها أن تزيد تقديرهم لذواتهم، لا أن تحفزهم على الإنجاز، وقبل تسجيلهم في الكليات بعد أن سمح لهم بالسعي وراءها وكأنهم يفحصون شقة صغيرة قُرب ملعب غولف. هذا الدَّفق من تنازلات الراشدين الصغيرة ذات المعنى لصغار السن وتقديرهم لذواتهم ينحل في قدرتهم على

التعلم، ويطبع في أذهانهم إحساسًا زائفًا بالإنجاز والثقة المفرطة في معرفتهم التي تدوم فترة كبيرة في مرحلة الرشد.

عندما التحقت بكلية دارتموث للمرة الأولى في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، سمعت قصة عن أحد أعضاء هيئة التدريس المعروفين (وما زال حيًا يُرزق إلى الآن) توضح ببساطة هذه المشكلة والتحدي الذي تشكله أمام الخبراء والمعلمين. ألقى عالم الفيزياء الفلكية المشهور روبرت جاسترو (Robert Jastrow) محاضرة حول خطة الرئيس رونالد ريجان (Ronald Reagan) لتطوير صواريخ دفاعية تطلق من الفضاء التي كان يدعمها بشدة. لكن أحد الطلاب الجامعيين تحدى جاسترو خلال وقت الأسئلة والإجابات، وبإجماع من شهدوا الواقعة تحلى جاسترو بالصبر، لكنه أضمر في اعتقاده أنَّ مثل هذا البرنامج ممكن وضروري. في النهاية هز الطالب كتفه، واستسلم بعدما أدرك أنَّ عالمًا في جامعة كبيرة لم يكن ليغير رأيه بعد جدال لبضعة دقائق مع طالب في سنته الدراسية الثانية.

قال الطالب: «حسنًا، تخمينك جيد تمامًا مثل تخميني».

فقاطع جاسترو هذا الشاب على الفور، وقال بصيغة تأكيدية: «بل إن تخميناتي أفضل بكثير جدًا من تخميناتك».

تُوفي الأستاذ جاسترو في تلك الأثناء، ولم تسنح لي الفرصة عندما كنت في هانوفر لأسأله عما حدث ذاك اليوم، لكني أعتقد بأنَّه كان يحاول تلقين بعض الدروس الحياتية تقاوم بازدياد من طلبة الكليات والمواطنين على حد سواء، مفادها أن

القبول في الكلية مجرد بداية، وليست نهاية التعليم، وأن احترام رأي شخصٍ ما لا يعني أن معرفة هذا الشّخص تحظى بالاحترام ذاته. ومع أن موضوع الصواريخ الدفاعية الوطنية سواء أكانت سياسة حكيمة أم ما تزال محل نقاش، إلا إن ما لم يتغير أن تخمينات عالم الفيزياء الفلكية وطالب السنة الثانية بالكلية ليسوا سواءً في جودتهم.

ليس هذا مجرد شخص مغرور بجامعات رابطة اللبلاب يتذاكى على أساتذته الجامعيين، لنستعرض هذا المثال الأكثر عبرة، لجأت شابة لوسائل التواصل الاجتماعي في العام 2013 لمساعدتها في إحدى المهام الدراسية. (لم يكن معروفًا مكان عيشها، أو مكان دراستها، لكنها وصفت نفسها بالطبيبة المستقبلية)، ومن الواضح أنه عهد إليها ببحث عن المادة الكيميائية المميتة السارين، وكما شرحت للآلاف على موقع تويتر، فإنها كانت بحاجة للمساعدة؛ لأنه وجب عليها الاعتناء بطفلها وهي تؤدي واجباتها. وخلال دقائق لبى طلبها دان كاسزيتا، مدير شركة استشارية أمنية في لندن وخبير أول في مجال الأسلحة الكيميائية الذي تطوع لمساعدتها.

وما تلى ذلك بهت عددًا من القراء. (رصد جيفري لويس خبير الأسلحة في كاليفورنيا هذا التبادل للمراسلات على الإنترنت.) غردت الطالبة: «لا يمكنني العثور على الخصائص الكيميائية والفيزيائية لغاز السارين [بالعبارة خطأ لغوي]، هلا ساعدني أحدهم رجاءً». عرض كاسزيتا مساعدته، فصحح لها بقوله: إن السارين ليس غازًا، ويجب استخدام حرف كبير أول

الكلمة الإنكليزية، أو كما ذكر لويس بتهكم لاحقًا، «[قوبلت] مساعدة دان بتنهيدة ارتياح من طالبتنا المتورطة في موقف صعب».

في الواقع، قُوبل بوابل من الكلمات النابية، فالطالبة ألقت محاضرة على الخبير بغضب عاصف نابع من ذاتها المتضخمة: «أجل [كلمة نابية] إنه غاز أيها الجاهل [كلمة نابية]. السارين سائل ويمكن أن يتبخر... اخرس [كلمة نابية]».

من الواضح أنَّ كاسزيتا صُعق، فحاول مرة أخرى: «ابحثي عني على موقع جوجل، أنا خبير في السارين، وآسف على عرض المساعدة»، ولم تتحسن الأمور قبل أن ينتهي تبادل الرسائل أخيرًا.

يمكن لهذا الفتى من جامعة دارتموث ومستخدمة موقع تويتر الغاضبة تلك أن يكونا ناشزين، وهما بالتأكيد مثالان شاذان في محاولة التعامل مع الطلبة، لكن تزداد مؤخرًا إفادات أعضاء هيئة التدريس بقاعات المحاضرات ووسائل التواصل الاجتماعي، حيث يعد تصحيح الطلاب بمنزلة إهانة، فالإشادة غير المستحقة والنجاحات الخاوية بنت عجرفة هشة داخل الطلاب يمكن أن تؤدي بهم إلى تعنيف أول أستاذ أو موظف يُبدد هذا الوهم، وهي عادة ثبت أنه من الصعب تحطيمها في مرحلة الرشد.

هل يمكنني مراسلتك بالبريد الإلكتروني؟

من الجلي في الكليات هذه الأيام خدمة العملاء ومعاملة الخبرة كمنتج، حتى في صغائر الأمور. تدبر مثلًا في تأثير البريد الإلكتروني الذي يشجع على أنواع السلوكيات الغريبة كافة التي يتردد الطلبة عادة في إظهارها وجهًا لوجه.

حتى لو نحينا جانبًا القرار السيئ العرضي بعد عطلة نهاية أسبوع من السكر والعربدة بكتابة شيءٍ ما، والضغط على زر «إرسال»، فإن البريد الإلكتروني يشجع على إحساس زائف بالتقارب الذي ينخر في الحدود اللازمة من أجل تعليم فعال، وكما سنرى في الفصل التالي، فإن هذه هي سمة التفاعلات في جميع أنحاء وسائل التواصل الإلكترونية عمومًا، لكن التواصل غير الرسمي بين المعلمين والطلبة من الأمثلة الأخرى على كيفية مساهمة الحياة الجامعية على وجه الخصوص في التقليل من احترام الخبراء وقدراتهم.

شاع استخدام البريد الإلكتروني في الحُرُم الجامعية مع مطلع تسعينيات القرن العشرين، وخلال عقد من الزمان، لاحظ الأساتذة الجامعيون التغيرات التي صاغها ذلك التواصل الفوري. إذ طرحت صحيفة نيويورك تايمز في العام 2006 سؤالًا على المعلمين في الكليات حيال تجربتهم مع البريد الإلكتروني الوارد من الطلاب، وكان سخطهم واضحًا.

كتبت الصحيفة: «على ما يبدو، إن الطلبة هذه الأيام يعدون [هيئة التدريس] متاحة على مدار الساعة، فيرسلون دفقًا هائلًا

من رسائل البريد الإلكتروني طوال الوقت... التي تكون غير رسمية بالمرة أو غير ملائمة صراحة»، أو كما قال أحد أساتذة اللاهوت للصحيفة: «كانت النبرة التي يستخدمونها في البريد الإلكتروني مذهلة تمامًا' .أحتاج معرفة هذا، وعليك أن تخبرني الآن،' بألفة يمكن أحيانًا أن تشبه كثيرًا صيغة الأمر»[11].

إن البريد الإلكتروني مثل وسائل التواصل الاجتماعي يساوي بين الرؤوس بدرجة هائلة، ويجعل الطلبة مرتاحين مع فكرة بعث رسائل إلى الأساتذة تمامًا كحال أي تواصل مع قسم خدمة العملاء، ولهذا تأثير مباشر على احترام الخبرة؛ لأنه يمحو أي فارق بين الطلاب الذين يطرحون الأسئلة والأساتذة الذين يعرفونها، أو كما ذكرت الصحيفة:

> في حين أنَّ الأساتذة الجامعيين ربما يكونون قد توقعوا اختلافًا ذات مرة، إلا أن خبراتهم تبدو وكأنها صارت مجرد خدمة أخرى يشتريها الطلاب بصفتهم زبائن، لذلك ربما لا يخشى الطلاب من التعامل بازدراء أو استغلال وقت الأستاذ أو حتى طرح سؤالٍ يعكس فساد عقولهم.
>
> تقول كاثلين إي. جينكينز (Kathleen E. Jenkins) أستاذة علم الاجتماع في كلية ويليام وماري في ولاية فرجينيا، إنها تلقت حتى بريدًا إلكترونيًا في مطالبات من طلاب فاتتهم المحاضرة، ويريدون نسخة من ملاحظاتها التدريسية.

عند مواجهتهم بهذه الأنواع من شكاوى أعضاء هيئة التدريس حول البريد الإلكتروني قال أحد طلاب كلية أميرست في السنة

الثانية: «لو أنَّ الطّريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها التواصل مع أساتذتي هي الذهاب إلى مكتبهم أو الاتصال بهم، فهذا نوع من التصنيف الذي يُعلِي مقامهم أو إعطائهم الأولوية، فهل يستحق هذا السّؤال الذهاب إلى مكتبهم؟».

وعلى هذا ربما يجيب أحد أعضاء هيئة التدريس: تلك هي النقطة المنشودة بالضبط. فالأساتذة الجامعيون ليسوا خدمًا من المفكرين يطلبون مع قرع الجرس، وليس منوطًا بهم حل كل سؤال للطلبة على الفور.. بما في ذلك كما أفاد أستاذًا في جامعة كاليفورنيا، نصيحة عما إذا كان يُفضل استخدام مفكرة مكعبة أو مفكرة مقسمة إلى موضوعات. أحد الأشياء التي يفترض أن يتعلمها الطلبة في الكلية هو الاعتماد على الذات، لكن لماذا يعبؤون بالبحث عن شيء ما إذا كان عضو هيئة التدريس على بُعد بضع نقرات على لوحة المفاتيح فحسب؟

إن التعليم مصمم ليداوي الطلبة من كل هذا ولا يشجعه؛ ونظرًا لأسباب عدة من ضمنها المجازفة بوظائفهم، أحيانًا ما يتردد الأساتذة في تولي المسؤولية، خاصة لو لم يكونوا مثبتين في وظائفهم أو مساعدين. وبعضهم بالطبع يعامل الصغار كنظير له؛ لأنه تشرّب فكرة أن الطلبة أقران لهم بحق، وهو خطأ يؤذي التدريس والعملية التعليمية، حتى إن بعض المدرسين يكررون حتى القول المأثور القديم: «أنا أتعلم من طلابي بقدر تعلمهم مني». (مع كامل احترامي لزملائي في مهن التعليم الذين يستخدمون هذا التعبير، أنا مجبر على قول: لو كان هذا حقيقيًا، فلستَ بمعلم قدير).

أما الحل لهذه الأدوار التي انعكست في قاعة المحاضرة، فهو إعادة تأكيد المدرسين على سلطتهم. إلا أنه لكي يتسنى لهم فعل هذا، فسيجب عليهم أولًا أن يرفضوا إجمالًا فكرة التعليم كخدمة عملاء. وبالكاد سيرحب الإداريون الذين يركزون على الرسوم التعليمية بمثل هذه الثورة المُضادة في قاعات المحاضرات، لكن على أي حال، لن يلقى هذا ترحيبًا على الإطلاق لدى الزبائن.

لسنوات عدة كان الأب جيمس شال (James Schall) في جامعة جورج تاون يصدم طلابه بمادة الفلسفة السياسية في أول محاضرة بتقديم مقالة لهم عنوانها: «ما يدين به الطالب لأستاذه»، إليك نبذة منها:

> لدى الطلبة التزامات تجاه مدرسيهم، أعرف أن هذا يبدو مثل تعاليم غريبة، لكن لنستمر في طرحها.
>
> أولى الالتزامات الذي يسري على وجه التحديد مع الأسابيع الأولى من الفصل الدراسي الجديد هي النية الحسنة باعتدال تجاه المدرس، استئمان وثقة تجعل الطالب مستعدًا أن يعترف لنفسه بأن المدرس مر بهذا الموضوع على الأرجح، وعلى عكس الطالب، فإنه يعرف ما سيفضي إليه بجوانبه كافة، ولا أريد هنا أن أهمل مخاطر الأستاذ الجامعي الذي يتبنى فكرة عقائدية محددة بالطبع الذي يفرض أفكاره على ما يطرح، لكن لكي تكون طالبًا، فهذا يتطلب درجة محددة من التواضع اليسير.
>
> وعليه، يدين الطالب لمدرسه بالثقة والانقياد وبذل الجهد والتفكير[12].

كان شال يُلزم جميع الطلبة بقراءة تلك المقالة لسنوات عدة قبل تقاعده، ولا يسع المرء إلا أن يتخيل العواء الغاضب الذي يمكن أن تستثيره مثل تلك المقالة الآن في معظم الأحرام الجامعية إن أخبرت الطلبة بأن عليهم الاجتهاد أكثر في عملهم، ويكون لديهم منظور أشمل حيال مواهبهم، ويثقون بمدرسيهم. ربما يتفق مع شال اليوم عدد من أعضاء هيئة التدريس في الكليات، لكن ليس في استطاعتهم المخاطرة بإثارة غضب الطلاب؛ لأنه كما يعرف جميع العاملين في الصناعات الخدمية، فإن الزبون دائمًا على حق.

أما الطلاب، فسواء أكانت نيتهم حسنة أم لا، فهي تُشوِّش عليهم فكرة أن الطلاب والأساتذة متساوون فكريًا واجتماعيًا، وأن رأي الطالب بنفس جودة معرفة الأستاذ. وعوضًا عن تحرير الشباب من تلك الخرافات، كثيرًا ما تشجع عليها الكلية، والنتيجة أن ينتهي الأمر بالشباب وهم مقتنعون بأنهم حقًا أذكى مما هم عليه. أو كما ذكر عالم النفس الاجتماعي ديفيد دانينج: «إنَّ الطّريقة التي نتصور بها الجهل عادة -بأنه غياب المعرفة- يجعلنا نفكر في التعليم كترياق طبيعي له. لكن التعليم، حتى وإن قدم بمهارة، يمكن أن ينتج عنه ثقة وهمية»[13].

تخيل فحسب مدى صعوبة الأشياء عندما لا تتم العملية التعليمية بمهارة.

الجامعات العمومية:

يمكن لأحد المديرين في كلية صغيرة -معذرة «جامعة»- أن يقرأ هذا الفصل بتركيز، ويحتج بأني أسلخ بظلم أماكن العمل؛ لأنها تتصرف بصفتها أماكن عمل. بَعْدَ لأيٍ، يمكن القول: إن التعليم العالي صناعة ولا جرم إن حاولت الشركات فيه أن تنافس بعضها. مع ذلك، فإن المقارنة مع أماكن العمل لا يصح عندما تفشل الكليات نفسها في تقديم ما وعدت به: تعليمًا.

تبدأ اللعبة قبل أن يملأ الطالب المرتقب استمارة القبول بوقت طويل. وحتى بعد أن تحولت الكليات إلى اتباع برامج ذات تأثير فكري ضئيل، وصارت تزخم بتحسينات في أنماط الحياة والأنشطة غير الأكاديمية، فقد حاولت بالتوازي أن تضخم من أهميتها وتلمع علاماتها التجارية. لم يكن تعليقي الأسبق عن انتشار «الجامعات» ملاحظة شاردة: بل يحدث فعليًا، وكان يحدث منذ تسعينيات القرن العشرين على الأقل، حيث إنه تُوجد كثير من الأشياء الأخرى المرتبطة بالأمراض الحالية للتعليم العالي، إنه تغيير مدفوع بالمال والحالة الاجتماعية.

أحد الأسباب التي جعلت الكليات الصغيرة تصبح جامعات أنها تريد إغواء الطلبة الذين يريدون الاعتقاد بأنهم يدفعون مقابل شيء في مستوى عالٍ... أي: للالتحاق «بجامعة» إقليمية أو قومية، وليس كلية محلية[14].

إنَّ الكليات الحكومية وكليات المجتمع من المؤسسات

التعليمية الأقل شأنًا إذا ما قُورنت بالكليات ذات الأربع سنوات في عيني طالب الثانوية الذي يقصد الكلية. ومن ثم عدد منهم حاول تمييز نفسه بمحاولة الظهور بعلامة تجارية جديدة «كجامعات».

أحد الدوافع المملة خلف لعبة المسميات تلك إيجاد مصادر تمويل جديدة بإقحام برامج تخرج في كليات صغيرة، وهكذا فإن التنافس على اجتذاب مزيد من المال والانتشار الذي يلي ذلك لبرامج التخرج أجبر تلك «الجامعات» الجديدة على ما يشبه سباق التسلح لمنح تلك الدرجات، فلم تعد الكليات تضيف برامج تخرج فحسب في درجات مهنية، مثل: إدارة الأعمال، لكنَّ عددًا منها يُضخِّم برامج طلابها مع مزيد من المهام الدراسية لإتمام درجة الماجستير.

عند مواجهتهم بهذا الضغط التنافسي من كليات أخرى تفعل نفس الشيء، فإن بعض هذه الجامعات الوليدة تزيد درجة التنافسية في اللعب، وتضيف برنامج دكتوراه. ولأن تلك الكليات الصغيرة لا يمكنها إضافة برنامج دكتوراه في أحد المجالات الراسخة، فإنها تنشئ مجالات معرفية متداخلة غير مفهومة إلا لفئة قليلة من النَّاس التي فائدتها فقط ابتكار شهادات جديدة، ليس من الصعب رؤية كيف ينتهي هذا بابتكار شهادات لا تشير فعليًا إلى درجة ملائمة من المعرفة.

كل هذا يكاد يقارب الإهمال الوظيفي الأكاديمي، صناعة برامج تخرج في الجامعة يمكن أن توفر بالكاد تعليمًا معقولًا للطلبة الجامعيين يغش الخريجين والطلاب الجامعيين.

لا تمتلك الكليات الصغرى الموارد -بما في ذلك المكتبات والمؤسسات البحثية والبرامج المتعددة- التي تمتلكها الجامعات الكبرى، ولا يمكن لإعادة دهان اللافتات على البوابات الأمامية أن يصنع هذا النوع من البنية التحتية الأكاديمية بمفعول السحر.

إن تحويل كلية في قرية صغيرة إلى جامعة عمومية ربما يبدو رائعًا فيما يخص الأدوات الكتابية الجيدة، لكن هذا هو نوع الخطوات التي يمكن أن تخدم كلية محلية وتنقلها إلى مكانة جديدة كجامعة نصف مطهوة.

إعادة تجديد تلك العلامات التجارية يخفف من قيمة الشهادات كافة التي تلي المرحلة الثانوية، عندما يرتاد الجميع الجامعة يصعب حينئذٍ تمييز الإنجاز والخبرة الحقيقية بين «خريجي الجامعات» هؤلاء كافة.

صار الأمريكيون يطمرون أنفسهم في عاصفة من الدرجات العلمية والشهادات وتوكيدات أخرى ذات قيم منوعة.

إن الأشخاص المتحمسين لتضليل أقرانهم المواطنين عادة ما يقولون إن لديهم تعليمًا عاليًا، وبناءً عليه يجب أن يُؤخذوا على محمل الجد. الشيء الوحيد المثبط للهمة أكثر من اكتشاف أن هؤلاء الرفاق يكذبون بشأن امتلاكهم لعدد من الدرجات العلمية هو اكتشاف أنهم يقولون الحقيقة.

فعلى الأرجح أن الطلبة سيعترضون بأن متطلبات تخصصهم العلمي تستلزم منهم عملًا أكثر بشدة، مما أمنح شهادات عليه هنا. ربما، لكن هذا يعتمد على التخصص نفسه.

إن متطلبات الدرجة العلمية في أحد مجالات: العلوم التجريبية، والتقنية، والهندسة، والرياضيات، أو تعلم لغة أجنبية، أو درجة علمية دقيقة جدًا في العلوم الإنسانية يمكن أن يكون لها شأن مختلف جدًا عن التخصص في الاتصالات أو الفنون التشكيلية أو العلوم السياسية، وإن كان يؤلمني ذكر هذا. ففي كل حرم جامعي نجد «تخصصات مُعدَّة مسبقًا» التي يختارها الطالب الذي ليست لديه فكرة عما يفعله، وبعضها متفرع من برامج ذات متطلبات أكثر بعد أن يتعلم الطلبة حدود قدراتهم.

يجب أن أوضح نقاطًا عدة حتى لا يُساء فهمي. أولًا ليس جديدًا بالنسبة لي أو أي شخص آخر في التعليم العالي حتى أفضل الكليات بها مقررات تعليمية «حدسية»، حيث يمكن أن يجتاز الطالب بمجرد استنشاق الأوكسجين وزفير ثاني أوكسيد الكربون لأسابيع عدة، ربما يكون من المذهل أن يعترف أستاذ جامعي بهذا، لكن لا ضير في مقررات تعليمية سهلة أو مرحة، بل حتى سأدافع عن بعضها على الأقل وأقول: إنها ضرورية، يجب أن توجد مقررات دراسية يمكن للطلبة أن يجربوا فيها المادة، وتكون مسلية، ويحصل الطلاب على شهادة لتعلم شيء ما.

لكن تبدأ المشكلة عندما تصبح المقررات التعليمية كافة عبارة عن مقررات تعليمية حدسية، إنها موجودة في: العلوم التجريبية، والعلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، وتزداد أعدادها على الأقل وفق حكمي الخاص، لا يوجد مجال

محصن، وإذا نظرت للعروض في عدد من البرامج بأرجاء البلد - فضلًا عن إتمام الدرجة العلمية المقدمة فيها- فهذا يشير إلى أن ما كان ذات يوم من الآثام الاستثنائية التي يرتكبها أساتذة الجامعات صار من العادات الشائعة في أقسام الكليات الآن.

كما يجب أن أذكر بأني لا أحاجج هنا بأن تقتصر الكليات على مجموعة من الأقسام في: العلوم التجريبية، والتقنية، والهندسة، والرياضيات مع نزر يسير من التخصصات في اللغة الإنكليزية أو التَّاريخ، فأنا أستنكر هذا النوع من الجدال، ولطالما اعترضت على ما أعده هجومًا على الفنون الليبرالية. في الغالب من يشوهون سمعة الفنون الليبرالية هم في الواقع لا ينادون إلا بتحويل الكليات إلى كليات تجارة، ودائمًا ما يلقى تخصص تاريخ الفن بتعليقات غير منصفة هنا، مع أن عددًا من النَّاس لا يدركون أن كثيرًا من تخصصات تاريخ الفن يمكن الاستمرار فيها في عديد من الوظائف الجذابة. أيًا ما كان، لا أريد أن أعيش في حضارة لا يُوجد فيها تخصص تاريخ الفن، وفي هذا الصدد دراسات الأفلام أو الأفلام أو تخصصات العلوم الاجتماعية.

السّؤال هو: كم عدد الطلاب في تلك التخصصات الذين يتعلمون فعليًا أي شيء أو هل كان يلزم أن يوجد هذا العدد الكبير من الطلاب الذين يدرسون تلك المواد في مؤسسات تعليمية تأتي في المرتبة الثالثة من الأولويات.. خاصة لو كانت مدعومة من أموال دافعي الضرائب؟

لا يوجد التفاف حول حقيقة أن الطلبة كثيرًا ما يهدرون

أموالهم، ويحصلون على وهم التعليم بالانجذاب إلى مقررات تعليمة أو تخصصات يجب ألا توجد، أو يجب حصر تسجيلاتها على عدد الطلاب الصغير الذي ينوي أن يسعى لإتمامها بجدية ودقة علمية.

وهذه أيضًا من الأشياء التي ينبغي على أعضاء هيئة التدريس عدم قولها بصوت عالٍ؛ لأنه بالنسبة للآباء الحانقين والطلاب الآملين يبدو هذا انتقاءً نخبويًا لا أساس له.

ربما تكون نخبوية، لكنها ليست بلا أساس، فعديد من الكليات الصغيرة كان يطلق عليها ذات يوم «كليات المعلمين»، وكانت تفي بهذا الغرض جيدًا، وقد أدت أقسام التَّاريخ أو اللغة الإنكليزية فيها الوظيفة المفيدة تمامًا بتخريج أساتذة في التَّاريخ واللغة الإنكليزية. أما اليوم، فإن تلك «الجامعات» الصغيرة تقدم علم الإنسان أو فلسفة العلوم وكأن طلابها اختيروا للدراسات العليا في جامعة ستانفورد أو جامعة شيكاغو. أحيانًا ما تصمم هذه التخصصات بناءً على رغبات بعض أعضاء هيئة التدريس الذين يدرسونها أو تعرض كطريقة للتضخيم من حجم قائمة المواد التي تدرس بالكلية، والتي لن تبدو قوية فكريًا بما فيه الكفاية للطلاب المرتقبين.

لا شيء يعيب تحقيق الذات أو السعي وراء موهبتك.. إن كان في استطاعتك تحمل هذا. لو أن إحدى الكليات الصغيرة فيها مقرر علمي عن التَّاريخ أثار اهتمامك، فلتلتحق به بالطرق كافة، ربما يكون رائعًا. لكن الطلاب الذين يختارون تخصصات، ولا يفكرون إلا قليلًا في موقف كليتهم أو

المصادر الأكاديمية التي يمكن أن تقدمها في ذلك البرنامج أو أين تؤهل الخريجين من هذه البرامج سوف يخاطرون بمغادرة الحرم الجامعي (حينما يتمون دراستهم في النهاية) بقدر أقل من المعرفة التي أوهموا بأنهم سيحصلونها، وهي مشكلة في صميم عدد من الجدالات العقيمة التي تخاض مع أشخاص مخطئين تمامًا حيال جودة تعليمهم.

عندما تعرض الجامعات ذات الأسماء التجارية الجديدة مقررات دراسية وبرامج بدرجات علمية وكأنها مكافئة تقريبًا لنظرائها المعروفين، فإنهم لا يضللون الطلاب المرتقبين فحسب، بل يقوضون أيضًا من التعليم التالي، إن فجوة الجودة بين البرامج تجعلنا نخاطر بتوليد إحساس بالسخط: إذا كنت أنا وأنت نحمل درجة جامعية في التَّاريخ، فلماذا تصبح وجهة نظرك عن الثورة الروسية أفضل من وجهة نظري؟ ما أهمية أن تكون درجتك العلمية من قسم ذي تصنيف عالٍ، ودرجتي من برنامج صغير إلى درجة أنه لا يُوجد فيه سوى أستاذ واحد؟ لو درست عن الأفلام في كلية ولاية محلية، وذهبت لدراسة برنامج عن الأفلام في جامعة جنوب كاليفورنيا، فمن أنت لتعتقد بأنك تعرف أكثر مني؟ لدينا نفس الدرجة العلمية، أليس كذلك؟

هذه الأنواع من المقارنات والجدالات حيال الاختلافات بين الكليات ودرجاتها العلمية وبرامجها المختلفة تسبب الإزعاج بسرعة شديدة، والطالب الذي يُقبَل في إحدى الكليات المرموقة، ويكمل درجته العلمية هناك يسخط من تحديد

المستوى الذي يتبع المقارنة اللامبالية مع زميله في التخصص المماثل له من «جامعة» عامة مجهولة. (لو أن كل الكليات على نفس درجة الكفاءة، فلماذا يصعب الالتحاق ببعضها عن الأخرى؟) في الوقت نفسه، فإن الطالب الذي اجتهد ليلًا نهارًا لتحصيل نفس الدرجة العلمية يأنف من المعنى الضمني بأن إنجازه لا يعني إلا القليل بدون أصالة. (لو أنَّ كل شيء باستثناء رابطة اللبلاب مجرد قمامة، فلماذا تعتمد تمامًا تلك البرامج الأخرى كافة؟)

يوجد قدر كبير من سوء النية في هذه المجادلات التي تفوق بعض الشيء التفوق على المنافس اجتماعيًا. إن الطالب الرديء الذي يرتاد كلية مرموقة سيظل طالبًا رديئًا؛ والطالب المجتهد من مؤسسة تعليمية صغيرة لا يقل ذكاءً لافتقار المؤسسة إلى الأصالة والشهرة. مع ذلك تبقى الحقيقة كما هي، إن الالتحاق بمقرر دراسي في كلية إقليمية فيها مساعد مجهد عادة ما يكون مختلفًا كثيرًا عن الدراسة في جامعة مرموقة فيها أكاديمي ضليع. ربما يكون هذا حقيقيًا، لكن القول بهذا يتبعه على الفور صيحات متكبرة من الآخرين وينفض المجلس والجميع غاضبون.

ربما لا تعجبنا أي من تلك المقارنات، لكنها تهم في تصنيف الخبرات والمعارف ذات الصلة، وحقيقي أن الجامعات العظيمة يمكن أن يتخرج منها مغفلون. مع ذلك، فإن الجامعات المرتقبة تحاول أن تناطح الجبل الأشم بما يفوق مقدرتها الفكرية من أجل الأسباب الخاطئة كافة، بما في ذلك التسويق

والمال وغرور هيئة التدريس. في النهاية، فإنهم يسيئون إلى كل من الطلبة والمجتمع، إن دراسة نفس الشيء ربما يهب النَّاس لغة مشتركة من أجل مزيد من النقاش في موضوعٍ ما، لكنه لا يجعلهم أقرانًا تلقائيًا.

كما أن الكليات والجامعات تضلل طلابها أيضًا بشأن كفاءتهم من خلال تضخم الدرجات العلمية. إحدى طرق ضمان سعادة الطلاب والتخفيف عن طاقم التدريس من الضغط الناتج عن خذلان أي أحد فعليًا تكون بانهيار المعايير، بحيث لا يتعارض عمل الكلية مع مرح ارتيادها. أو كما كتب مكاردل من بلومبيرج، ينبغي ألا تدهشنا تلك المحاولة التي تهدف للتخفيف من التأثير الكريه المصاحب لوجوب ارتياد الجامعة على الزبائن حينما تصبح مقاعد قاعة المحاضرة سلعة، وليست ميزة تكتسب بالتنافس.

> ترى النتائج ظاهرة جليًا في لعبة النهر الثائر الترفيهية وصالات تسلق الصخور الرياضية ومساكن الطلاب التي تزداد فخامة يومًا بعد يوم وتستخدمها الكليات للمنافسة على جذب الطلاب، لكن هذا التحول لا يقتصر في حد ذاته على وسائل الرفاهية الهامشية. حيث يتعجب الأساتذة الجامعيون الآن من الطّريقة التي يستوجب بها الطلاب حصولهم على درجات جيدة، بصرف النظر عن أخلاقيات عملهم، لكن هذا بالضبط ما يمكن أن تتوقعه إذا ما عد الطالب نفسه زبونًا والمنتج درجة جامعية وليس تعليمًا.

أو حسب وصف الكاتبة في واشنطن بوست كاثرين رامبيل (Catherine Rampell)، صارت الكلية الآن صفقة «يدفع فيها الطلاب مزيدًا من الرسوم التعليمية، ويتوقعون المزيد في المقابل.. خدمة أفضل ومرافق أفضل ودرجات أفضل»[15]. صار القليل يفرض على الطلاب الآن عما كان عليه الأمر منذ عقود مضت، صارت الفروض العلمية أقل، والفصل الدراسي أقصر ونظام الفصول الدراسية الثلاثة والابتكارات التقنية التي جعلت ارتياد الجامعة مرحًا أكثر، وإن كان أقل في الصرامة العلمية. عندما تصبح الكلية عملًا تجاريًا لا يمكن أن تتسبب في رسوب الزبائن.

إن الكليات لا تتعلق بتسلق الصخور أو التجديف في زوارق كياك، لكن مما لا شك فيه أنَّ الميل تجاه عدم التشديد على الدرجات العلمية بتضخيمها. أو كما اكتشفت دراسة في جامعة شيكاغو في العام 2011: «لا يتطلب الأمر جهدًا شاقًّا للبرهنة على الأداء الأكاديمي المرضي في كليات وجامعات اليوم».

> أفاد 45% من الطلاب أنهم في الفصل الدراسي السابق لم يلتحقوا بأي مقرر تعليمي يتطلب كتابة أكثر من عشرين صفحة على مدار الفصل الدراسي بأكمله؛ بل إن 32% لم يلتحقوا بمقرر دراسي واحد يكلفهم بقراءة أكثر من أربعين صفحة أسبوعيًا. لا عجب إذًا أن عددًا من طلبة الكليات اليوم يقررون الاستثمار في أنشطة أخرى بداخل الكلية[16].

بعض تلك «الأنشطة الأخرى» نبيلة، وتثري تجارب الطلاب،

في حين أن عددًا من التجارب الأخرى من نوع الأشياء المستحدثة التي لا يفقه الآباء عنها شيئًا على الأرجح.

عندما يتعلق الأمر بموت الخبرة، هنالك يتضح تأثير عبء العمل الأقل والدرجات الأسهل: يتخرج الطلبة بمعدل تراكمي مرتفع لا يعكس مستوى متوافق من التعليم أو الإنجاز الفكري. (مرة أخرى، أنا لا أتحاشى أنواعًا محددة من الدرجات العلمية هنا، وأتحدث عن مقدار هائل من التخصصات التي تدرس في الولايات المتحدة اليوم) لا تعني مقولة «كنت طالبًا متفوقًا أحصل على درجة امتياز (أ) في الجامعة على التوالي» ما كانت تعنيه في ستينيات أو حتى ثمانينيات القرن العشرين. في دراسة لمئتي كلية وجامعة خلال العام 2009 اكتشف أن درجة امتياز هي الأكثر شيوعًا، وهي زيادة بنحو 30% من العام 1960 وأكثر بنسبة 10% منذ العام 1988 فحسب. وزاد مقدار الدرجات الآن المتراوحة بين امتياز وفوق المتوسط (ب) بأكثر من 80% من الدرجات كافة في كل الموضوعات، وهو توجه استمر بلا انقطاع[17].

بمعنى آخر، صار الطلاب كافة الآن فوق المتوسط، على سبيل المثال: كانت الدرجة الجامعية الأكثر شيوعًا في العام 2012 في جامعة هارفارد هي درجة امتياز على التوالي. وفي جامعة ييل، أكثر من 60% من الدرجات كافة كانت إما امتيازًا وإما جيدًا جدًا (أ-).

يمكن أن يحدث هذا بين الفينة والأخرى في مقرر دراسي

محدد، لكن يستحيل تقريبًا حدوث هذا في جامعة كاملة في توزيع أي درجة علمية عادية، حتى بين ألمع الطلاب.

عند مواجهة المؤسسات التعليمية كافة بهذه الحقائق، فإنها تلوم المؤسسات التعليمية الأخرى كافة حولها. لكن المشكلة بالطبع، إنه لا توجد جامعة واحدة أو برنامج تعليمي يمكن أن يواجه تضخم الدرجات العلمية دون أن يضر بطلابه: أول كلية تقلص من حجم الدرجات العلمية لديها تجعل طلابها على الفور يبدون أقل مقدرة من أقرانهم في المؤسسات التعليمية الأخرى. وأصابت رامبيل حينما ذكرت أن ذلك يعني بأن الدرجة المعدة مسبقًا لم تعد «درجة مقبولة» كما خمسينيات القرن الماضي، لكن «امتياز للسادة الكرام» التي تمنح بكرم الآن كاستحقاق نتيجة إتمام المقرر التعليمي أكثر من كونها منحة نتيجة للتميز.

وقد شكلت جامعات برنستون وويليسلي وهارفارد لجانًا للبحث في مشكلة تضخم الدرجات العلمية، فتبنت برنستون سياسة حاولت أن تحد من قدرة هيئة التدريس على منح درجات الامتياز في العام 2004، وهي تجربة تراجع عنها أعضاء هيئة التدريس أنفسهم بعد أقل من عقد. وفي ويليسلي حاول قسم العلوم الإنسانية أن يحصر متوسط الدرجات على (جيدًا جدًا) مرتفع (ب+) في مقرراتها التعليمية؛ وقد فقدت تلك المقررات التعليمية خمس المسجلين لديها، وخسرت الأقسام المشاركة قرابة ثلث تخصصاتها.

وقد تصارع المعلمون المحنكون مع تلك المشكلة لسنوات،

وأنا واحد منهم، وكما هو حال زملائي لم أجد لها حلًّا. إلا أن الحقيقتين المهمتين بشأن تضخم الدرجات العلمية أنها موجودة، وتغمر الطلاب بثقة غير مضمونة في قدراتهم، فتقريبًا كل مؤسسة تعليمية عليا متواطئة فيما يمكن وصفه مبدئيًا بأنه جريمة بحق الدرجات، مدفوعين من جهة بضغوطات السوق لجعل الكلية مسلية، وجعل الموظفين جذابين لأصحاب العمل ومساعدة الأساتذة الجامعيين الضعفاء على الهروب من غضب الطلبة الناقمين، ومن جهة أخرى من الأفكار غير المسؤولة حول دور تقدير الذات في التعليم.

قيّم مستواي بلطف:

من الطرق الأخرى التي تعزز بها الكليات والجامعات من فكرة أن الطلبة زبائن، وبالتالي، تقلل قيمة احترام الخبرة، تكون بتشجيع الطلبة على تقييم المدرسين الواقفين أمامهم وكأنهم أقرانهم.

إن تقييم الطلاب ينبع من التحرك نحو مزيد من «الصلة بالواقع» وانخراط الطالب بعد مرحلة ستينيات القرن الماضي. ومازالت تلازمنا، وفي ذلك العهد الذي صارت فيه الأعمال والتعليم بالتبعية مهووسين «بالمقاييس»، فصارا يستغلان وينتهكان أكثر من ذي قبل.

أنا في الواقع من المؤيدين لبعض الاستخدام المحدود لتقييمات الطلاب، ويمكنني القول دون مواربة: إن تقييمات الطلاب لي كانت جيدة جدًا منذ اليوم الذي بدأت فيه التدريس

-فزت بجوائز للتدريس في كلٍّ من جامعة الحرب البحرية الأمريكية وكلية هارفارد إكستينشن- ومن ثم لست مغرضًا بكلامي هذا. كما أني مشرف أكاديمي سابق أيضًا وجبت عليه مراجعة تقييمات أعضاء هيئة التدريس الآخرين منذ مهام عملي الإشرافي على القسم، وقرأت الآلاف من تلك التقييمات على مدار السنين، من الطلاب في المستويات كافة، وهي تمرين جدير بالوقت المبذول فيه إذا ما عُوملت كما ينبغي. مع ذلك، فإنَّ الفكرة بأكملها خرجت عن السيطرة الآن، حيث صار الطلاب يقيمون رجالًا ونساءً محترفين وكأنهم يستعرضون فيلمًا أو يعلقون على حذاء.

عادة ما تقع التقييمات في المنطقة الرمادية، حيث يكون معظم المدرسين أكفاء ومعظم الطلاب يحبون المقررات الدراسية في العموم. أما أكثر شيء مفيد بالنسبة للتقييمات، فإنها ترصد التوجهات السائدة، فبالنظر للتقييمات على مر سنوات مضت يمكن تحديد أفضل وأسوأ المدرسين، خاصة لو كان القراء خبراء في فك شفرة كتابة الطالب لهذه التقارير. (فمثلًا قول: «إنها مملة» تعني عادة: «إنها توقعت مني فعليًا أن أقرأ الكتاب الذي كلفتني به عوضًا عن تسليتي فحسب»)، وفي مقرراتي الدراسية أستخدمها لرصد أشياء تكون ناجعة في تلك المقررات فضلًا عمّا قد يكون غير ذي صلة، مثل كتاب أو محاضرات يجب أن أتخلص منها أو أحتفظ بها، أو معرفة ما إن كان إحساسي الخاص سواءً أكان الفصل الدراسي جيدًا أم ضعيفًا للطلبة.

مع ذلك، ثمة شيء خطأ في النّظام الذي يسأل الطلاب عن مقدار حبهم لتعليمهم، الكلية ليست مطعمًا. أحيانًا ما أسمع مراجعة على موقع Yelp review للأعمال التجارية وكأني أقرأ تلك التقييمات: «تم تقديم المقرر التعليمي عن الإحصاءات الأساسية باردًا بعض الشيء، لكنه كان جوهريًا، في حين أنَّ شريكي اختار المقدمة الخفيفة لأديان العالم التي فيها نزراً قليلاً من التوابل»).

إن تقييم المدرسين تنتج عنه عادة عقلية التي فيها يعتاد الشّخص العادي الحكم على الخبير على الرغم من كونه في الموضع الواضح الذي يمتلك فيه المعرفة الأقل في المادة التي تدرس.

كما أن تقييمات الطلاب أيضًا مؤشر شديد الحساسية، فتتأثر بأقل الأشياء غير ذات الصلة، بداية من راحة المقاعد إلى وقت اليوم الذي يدرس فيه المقرر التعليمي، وبالتالي، يجب تجاهل عدد محدد منها، وبعضها غريب فحسب، إلى درجة التي يتبادل فيها الأساتذة الجامعيون سرد حكايات عن أسوأ أو أغرب التقييمات التي تلقوها. ألقى أحد زملائي ذات مرة محاضرة مفصلة عن التّاريخ البحري البريطاني، مثلًا وكان تعليق الطالب العسكري الوحيد أن المدرس كان بحاجة إلى كيّ قميصه، وأحد كبار المؤرخين الذين عرفتهم كان يسخر منه على التقييمات التي يتلقاها عن كونه قصير القامة، وفي إحدى المرات قيل لي من طالب جامعي: إني أستاذ عظيم، لكنني بحاجة إلى فقدان بعض الوزن، (كانت هذه الملاحظة دقيقة).

في حين كرهني طالب آخر كثيرًا إلى درجة قوله بأنه سيدعو لي.

وكما أن تلك التقييمات مسلية، فإنها تشجع الطلبة على التفكير في أنفسهم كحكام على موهبة المدرسين، وعندما يتعلق التدريس بالحرص على سعادة الزبائن، فإن اعتماد الكلية على التقييمات يجبر المدرسين الأضعف أو الأقل أمنًا على التحول إلى دببة راقصة، فيكافحون حتى يكونوا محبوبين، أو على الأقل يلقون إعجاب الطلاب، بحيث يقرأ مزيد من الطلاب المراجعات، ويجعلون المقرر الدراسي (وبالتالي، عقد الأستاذ الجامعي) يبقى مستمرًا للصف التالي، وهذا بدوره يصنع حلقة مفرغة من القوادة الدراسية، وتُضخِّم الدرجات، ويجعلها دائمة.

يجب أن ينخرط الطلاب في تعليمهم، فلا يكونون مجرد ملاحظين أو أوعية للمعلومات، إن المشاركة والمناقشات هم شريان الحياة للجامعة، والأساتذة الجامعيون ليسوا فوق النقد سواءً أكان على أفكارهم أم قدراتهم التدريسية. لكن النموذج الصناعي للتعليم اختزل الكلية لتصبح معاملة تجارية، يتعلم فيها الطلاب أن يكونوا زبائن انتقائيين، وليسوا مفكرين نقديين.

إن تأثير التموج على الخبرة والوقود الذي يوفره كل هذا من أجل الهجوم على المعرفة الراسخة يهزم نفس الغرض الذي أنشئت الجامعة من أجله.

الكلية ليست مساحة آمنة:

وفي هذا الخصوص، فإن الشبان والشابات ليسوا عديمي المسؤولية كما نصورهم أحيانًا في وسائل الإعلام أو الثقافة الشعبية أو في قرارة عقولنا.

إننا نضحك على الأفلام الفكاهية عن الكليات، ونتذكر لحظاتنا الخاصة عديمة المسؤولية كطلاب، ثم نلقي محاضرات صارمة على أطفالنا كي لا يشبهونا أبدًا.

إننا نصفق للنشاط الطلابي إن أعجبتنا القضية التي يتفاعلون لأجلها، ونأسى له إن خالفناها الرأي، دائمًا ما يميل الراشدون أن يكونوا منتقدين لاذعين للجيل الذي يليهم.

مع ذلك، فلا يعفي هذا أي كلية من الكليات كي تسمح بتحويل أحرامها الجامعية إلى سيرك، كان حتمًا على الأرجح أن تجتاح الحركة المناهضة للفكر في الحياة الأمريكية الأحرام الجامعية، لكن ليس هذا بسبب يدعو للاستسلام لها. وتأكد: إن الأحرام الجامعية في الولايات المتحدة لا تسلم سلطاتها الفكرية للأطفال فحسب، لكن أيضًا لنشطاء يهاجمون مباشرة أعراف التساؤلات الحرة التي يفترض أن تدافع عنها المجتمعات الأكاديمية.

لدي الكثير من الآراء المحكمة حول ما أعدّه هجومًا على حرية طرح الأسئلة، لكني لن أنشرها هنا، إذ تُوجد عشرات الكتب والمقالات المنشورة بالفعل عن كيف صارت الكليات والجامعات ملاذًا للصوابية السياسية، حيث تختنق الحرية

الأكاديمية في ظل القوانين الوحشية التي تجبرها الأيديولوجيات بين الطلاب وهيئة التدريس، ولا أرى مغزى من تكرار تلك الجدالات هنا.

مع ذلك حينما يتعلق الأمر بموت الخبرة من المهم التفكير كيف أن الطرق السائدة حاليًا في الأحرام الجامعية بما في ذلك «المساحات الآمنة» وقوانين المناقشات تضعف من قدرة الكليات على تخريج أناس قادرين على التفكير النقدي. (وتذكر أن «التفكير النقدي» ليس مرادفًا «للنقد القاسي») بنفس الطّريقة التي يتعلم الشباب والشابات التسوق لاختيار الكليات أن يقيموا الكلية لسبب مخالف للتعليم، فوسائل الراحة تلك للناشطين الصغار يشجعهم على الاعتقاد مرة أخرى بأن وظيفة الطالب الجامعي أن يعلم الأساتذة وليس العكس.

توجد أمثلة عدة على هذا إلى درجة أنه من غير المنصف تقريبًا الإشارة إلى إحدى تلك السياسات أو أوجه الجدل في أي جامعة على وجه التحديد.

هذه المشكلة متفشية في الجامعات الأمريكية، وتتكرر من حين لآخر في موجات تتنوع في قوتها منذ أوائل ستينيات القرن العشرين. أما محور الاختلاف اليوم الذي يدعو إلى القلق على وجه الخصوص عندما يتعلق الأمر بصناعة مواطن متعلم، فيتعلق بالكيفية التي يتحول بها الطلبة في البيئة الجامعية والوقائية في الجامعات المعاصرة إلى أطفال، ومن ثم تتماهى قدرتهم على خوض جدل منطقي ومدروس. بناءً عليه، عندما تصبح المشاعر أهم من العقلانية أو الحقائق، يصبح التعليم

مؤسسة محكوم عليها بالفشل. إن العواطف حصن منيع ضد الخبرة، خندق مائي من الغضب والغيظ الذي يغرق فيه سريعًا المنطق والمعرفة، وعندما يتعلم الطلاب أن العواطف تتغلب بصخبها على أي شيء آخر، فهذا درس سوف يتذكروه لبقية حياتهم.

يفترض أن تكون الجامعات هي البيئة الهادئة التي يميز فيها المتعلمون بين الحقيقي والزائف، ويتعلمون فيها اتباع نمط من التقصي الأكاديمي مهما آل بهم المطاف. عوضًا عن هذا، صار عدد من الكليات رهينة لدى الطلبة الذين يطالبون بأن تهيمن مشاعرهم على الاعتبارات الأخرى كافة. وهم بلا شك يؤمنون بحقهم في طلبهم هذا لأنهم عاشوا حياتهم إلى ذلك الحين بتلك الطّريقة، في ثقافة علاجية لا تحبس أي فكرة ولا تعاتب أي مشاعر.

مع ذلك، فإنَّ النشاط الطلابي جزء طبيعي من الحياة الجامعية، من المفترض أن يكون الشباب اليافعون عاطفيين، فهذا جزء من مرحلة البلوغ أو سن العشرين ونيف. لازلت عتيق الطراز بما فيه الكفاية لأتوقع أن يكون الرجال والنساء المتعلمون قادة بين الناخبين بفضل تلقيهم لتعليم أفضل، ولذلك أناشد ناخبي الغد أن يستخدموا منطقهم السياسي في المناظرة والنقاش.

للأسف إنَّ النشاط الطلابي الجديد ينتكس إلى النشاط الطلابي القديم منذ نصف قرن مضى: عدم التسامح والعقائدية وحتى تهديد وعنف، وللمفارقة الساخرة (أو ربما المأساوية)،

إن الطلبة يستخدمون لغة متطرفة ويقدمون طلبات على أشياء تزداد تفاهة يومًا بعد يوم. وفي حين أن جيل طفرة المواليد ربما يدّعون أنهم تخلوا عن الأحرام الجامعية من أجل السلام في العام 1967، فمن المفهوم أنه يوجد بعض الحقيقة في فكرة تصرف بعض الشباب الصغير بعاطفية وهو على وشك أن يُجنَّد إجباريًا ويرسل إلى غابة آسيوية. إن أعضاء الأقليات الذين لم يحصلوا على كامل حقوقهم كمواطنين في عين القانون حتى بدايات ستينيات القرن العشرين حُق لهم أن يشعروا بأنه ليس أمامهم خيارات جديرة بوضعها في الحسبان سوى التظاهر، حتى وإن لم يوجد ما يبرر العنف الذي أعقب ذلك.

أما اليوم، فعلى العكس ينفجر الطلاب نتيجة أي توافه متخيلة لا تصنف حتى ولو من بعيد في فئة الدفاع عن الحقوق المدنية، أو إرسالهم إلى الحرب. فمن حفنة التراب يشيد الطلاب جبالًا شاهقة الآن، وانحطوا لمستوى الهوس بشأن مقالب وزيف. وفي خضم كل هذا يتعلم الطلاب أن العواطف والصوت يمكن أن يتغلبا دائمًا على المنطق والجوهر، ومن ثم يشيدون حول أنفسهم حصنًا لن يتمكن مستقبلًا أي مدرس أو خبير أو مفكر من فتحه.

على سبيل المثال: في جامعة ييل في العام 2015 تجرأت زوجة أحد الأساتذة مشرفي سكن إحدى الكليات على أن تخبر الطلاب الأقليات بأن يتجاهلوا أزياء عشية عيد القديسين التي يعتقدون بأنها مهينة، وتسبب هذا في نوبة غضب عارمة في أنحاء الحرم الجامعي من ضمنها الصياح في وجه الأساتذة

الجامعيين من طلاب، إذ انفجر غاضبًا أحد الطلاب في وجه أستاذ جامعي قائلًا: «بصفتك مشرفًا، وظيفتك أن تهيئ مكانًا للراحة ومسكنًا للطلاب... هل تفهم هذا؟!».

وبهدوء رد الأستاذ: «لا، لا أتفق مع هذا»، وهنا صب عليه الطالب جام غضبه:

> «إذًا، لماذا قبلت [كلمة نابية] بهذه الوظيفة؟! من الذي عينك [كلمة نابية]؟! يجب أن تستقيل! إن كان هذا ما تعتقده حيال أن تكون مشرفًا فعليك أن تستقيل! لا يتعلق الأمر بتهيئة مساحة فكرية هنا! ليس كذلك! أتفهم هذا؟ بل يتعلق بتهيئة مسكن هنا. وأنت لا تفعل هذا»[18]. [أضفتُ التأكيد بالأحرف المائلة].

وعوضًا عن تأديب الطلبة بسبب انتهاكهم لأعرافها في الحوار الأكاديمي، اعتذرت جامعة ييل لهؤلاء الحانقين. وفي النهاية استقال الأستاذ من منصبه الإشرافي على السكن، وظل عضو هيئة تدريس، في حين استقالت زوجته من منصبها في هيئة التدريس، وتركت التدريس في الكليات نهائيًا.

إلى أعضاء هيئات التدريس في كل مكان، الدرس كان واضحًا: الأحرام الجامعية في الجامعات الكبرى ليست مكانًا للاستكشاف الفكري، بل هي منزل مُرفَّه مُؤجَّر لست سنوات، على مدار تسعة أشهر في كل سنة منها، من أولاد النخبة الذين يحق لهم الصياح في أعضاء هيئة التدريس وكأنهم يؤنبون خادمات مهملات في إحدى قصور الحقبة الاستعمارية.

وبعد شهر من مشاجرة جامعة ييل تلك، اندلعت تظاهرات في جامعة ميزوري بعد حادثة رسم صليب معقوف بالبراز على جدار حمام. لم يكن واضحًا بالضبط ما كان ينبغي على إدارة جامعة ميزوري العامة فعله، بخلاف مسح الجدار، لكن اندلعت التظاهرات في الحرم الجامعي على أي حال.

«هل تعرف ما القهر الممنهج؟!» هكذا صرخت إحدى الطالبات المهتاجات في رئيس الجامعة، «ابحث عنه على جوجل»، تعرض الصحفيون الطلاب إلى التحرش والتهديد، وفي إحدى الحالات من عضو هيئة تدريس عُيّن شرفيًا للمفارقة في كلية الصحافة. وبعد أيام عدة من هذه التمثيليات، استقال رئيس الجامعة. (وحذا حذوه الرئيس التنفيذي وأستاذ جامعي رفض إلغاء مقررات دراسية عقب الاحتجاجات).

إلا أن جامعة ميزوري ليست مثل جامعة ييل، فليس فيها ما يشبه تقريبًا فلا تحظى بطلب ثابت على خدماتها تقريبًا، فسرعان ما تضررت لضعف الإقبال على طلبات التقديم والتبرعات على إثر التظاهرات والاستقالات[19]. وبعد بضعة أشهر طرد أستاذ الصحافة المساعد الذي واجه طالبًا. وعندما انقشع الغبار، قلَّ عدد أعضاء هيئة التدريس والإداريون والمتقدمون والتبرعات، كل هذا بسبب مجموعة من الطلاب، تمكنوا بفضل مجموعة أصغر من أعضاء هيئة التدريس، أن يعكسوا الأدوار بين المدرسين والمتعلمين في جامعة عامة كبرى.

المثير للاهتمام، إن هذا الموضوع عادة ما يُوحِّد المفكرين

الليبراليين والمحافظين، فالأكاديمي البريطاني ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) الذي يعد وبالًا على المحافظين بسبب آرائه عن الدين، شعر بالارتباك من فكرة «المساحة الآمنة» بأكملها، وهي الأماكن التي ينادي الطلاب الأمريكيون بأن تصبح بمنأى عن أي شكل من أشكال التعبيرات السياسية التي قد يعدّونها «مثيرة». تحدث دوكينز دون مواربة، فقال على تويتر: «الجامعة ليست 'مساحة آمنة'، لو كنت بحاجة لمساحة آمنة، فغادر، واذهب لبيتك، واحضن لعبة الدب المحشو خاصتك، وامصص إبهامك إلى أن تصبح مستعدًا للجامعة».

وبالمثل، بعد أحداث جامعتي ييل وميزوري، ذكر كاتب مجلة أتلانتيك كونور فرايدرسدورف (Conor Friedersdorf) أن «ما يحدث في جامعة ييل لا يقتصر عليها»، وأن نخبة الغد يضمرون قيمًا بعيدة كل البُعد عن حرية التعبير، وإنما تعصب محض. كتب فرايدرسدورف: «يمكن للمرء أن يتفهم شعور هؤلاء الطلبة»، (أنا لا أتفهم شعورهم، لكن فرايدرسدورف أكثر تفهمًا مني)، «لكن إذا كان بريدًا إلكترونيًا عن أزياء عشية عيد القديسين جعلهم يفوتون مقررًا دراسيًا، ويصابون بحالات انهيار، فإما أنهم بحاجة إلى المساعدة من اختصاصي صحة عقلية، أو مسهم الضر للأسف؛ بسبب الأفكار العقائدية الموهنة التي اكتسبوها حول ما ينبغي أن يسبب لهم ألمًا»[20].

في غضون ذلك، اقترح حلًا مشحونًا بالعاطفة كاتب العمود الليبرالي وأستاذ القانون في جامعة تينيسي جلين رينولدز (Glenn Reynolds).

لكي يكون المرء ناخبًا يجب أن يتحلى بالقدرة على المشاركة في المناقشات السياسية الراشدة، من الضروري أن يتحلى بالقدرة على الإنصات للحجج المعارضة، بل حتى -كما أفعل هنا في هذا العامود- أن تغير رأيك استجابة لظهور دليل جديد.

لذا ربما تنبغي علينا زيادة الحد الأدنى لسن الانتخاب إلى 25 عامًا، وهو السن الذي يأمل فيه المرء بشدة أن تكون درجة من النضج قد رسخت في النَّاس. من المؤسف أن نضطر لمعاملة الطلبة الجامعيين كأطفال، لكن لا سبيل للتهاون مع أن نُحكم من أطفال مدللين.

إن من لا يستطيعون مناقشة زي عشية عيد القديسين بعقلانية لا يستحقون لعب دور في إدارة أمة عظمى[21].

يمكننا أن نراهن بأمان أن لا أحد سيعدل الدستور استجابة لاقتراح الأستاذ رينولدز، لكن تعليقاته المشابهة لتعليقات مراقبين آخرين تشير إلى التناقض الغريب الذي صار طلبة الكليات يطالبون فيه بإدارة تلك الكليات، بينما يصرون في الوقت ذاته على معاملتهم كصغار.

مرة أخرى ليست لدي فكرة كيف أصلح من هذا، خاصة قبل أن يرتاد الطلاب الكلية. وكما هو حال جل الأساتذة الجامعيين -كما آمل- أن ألزم طلابي بمعايير واضحة، وأتوقع منهم تعلم كيف يقومون بصياغة رؤاهم ويفندونها بهدوء ومنطقية. وأقيم درجاتهم بناءً على إجاباتهم على الأسئلة التي أطرحها في امتحاناتهم وعلى جودة أعمالهم المكتوبة، وليس على رؤاهم السياسية. وأطالب بأن يعاملوا الطلبة الآخرين

باحترام، وأن يتفاعلوا مع أفكار ومعتقدات الآخرين في قاعة المحاضرة دون عاطفية أو هجمات شخصية.

لكن عندما يغادر الطلبة محاضرتي، تستحوذ عليَّ فكرة إدراكي أنه ليس في استطاعتي تقييد جدالهم للأبد، ولا يمكنني منعهم من صد الآخرين ورفض الحقائق ومن رد النصيحة التي تُسدى بنية حسنة، أو من طلب أن تقبل عواطفهم بديلًا عن الحقيقة. لو أنهم أمضوا أربع سنوات يتعاملون بعدم احترام مع أساتذتهم ومؤسساتهم التعليمية، فلا يمكن أن نتوقع منهم احترام زملائهم المواطنين، وإن لم يعد في الإمكان الاعتماد على خريجي الكليات لإجراء المناظرات والمناقشات المنطقية في الحياة الأمريكية ومعرفة الفارق بين المعرفة والمشاعر، وبعدها نجد أنفسنا بحق أمام ذلك النوع من المشاكل العويصة التي لا يسع أي خبير حلها.

4

دعني أبحث عن هذا على جوجل من أجلك

كيف تجعلنا المعلومات المطلقة أغبى؟

«من المُتوقع أن يتشرب عقلي المعلومات بالطّريقة ذاتها التي يوزعها بها الإنترنت، بفيض متحرك وسريع من الجزيئات، ففي إحدى المرات أكون غواصًا في بحر من الكلمات، والآن أسبح على السطح كمن يمتطي دراجة مائية».

نيكولاس كار

«مع أن الإنترنت ربما يجعلنا جميعًا أذكى حالًا، إلا أنه يجعلنا جميعًا أغبى حالًا؛ لأنه ليس مغناطيسًا للفضول فحسب، بل هو مصرف للسذج، فهو يحول الجميع إلى خبراء على الفور، ألديك درجة جامعية؟ حسنًا، لقد بحثتُ على جوجل».

فرانك بروني

«لا تصدق كل ما تقرأه على الإنترنت، خاصة الاقتباسات من المشاهير».

أبراهام لينكولن (ربما)

عودة قانون ستورجيون:

اسأل أي محترف أو خبير عن موت الخبرة، وسيلقي معظمهم باللوم على نفس المتهم: الإنترنت. فالأشخاص الذين وجب عليهم أن يلتمسوا مشورة الخبراء في أي مجال صاروا الآن يكتبون كلمات مفتاحية في المتصفح، ويحصلون على إجاباتها في غضون ثوانٍ. لماذا الاعتماد على أشخاص أكثر منك تعلمًا وخبرة -أو الأسوأ، أن يتعين عليك تحديد موعد للقائهم- إذا كان في استطاعتك أن تحصل على المعلومات بنفسك؟

ألم في الصدر... اسأل حاسوبك، «لماذا يؤلمني صدري؟» وستجد أمامك أكثر من إحدى عشرة مليون نتيجة (على الأقل على محرك البحث الذي استخدمته للتو) في حوالي 0,52 جزءًا من الثانية بالضبط. سيتدفق سيل من المعلومات على شاشتك، مع نصائح مفيدة من مصادر تتراوح بين معاهد الصحة الوطنية الأمريكية إلى مؤسسات أخرى لا تشتهر بحسن نيتها، حتى إن بعض هذه المواقع الإلكترونية سوف يصحب المريض عبر مرحلة التشخيص. وفي حين أن طبيبك ربما يكون له رأيًا آخر، لكن من هو لكي يجادل شاشة لامعة ستجيب على أسئلتك في أقل من ثانية واحدة؟

في الواقع، من يكون أي شخص ليجادل مع أي شخص؟ ففي عصر المعلومات، لا يوجد ما يمكن تسميته بالجدال الذي لا يمكن تسويته، فصار كل منا يسير في الجوار بمزيد من المعلومات المتراكمة على جوال ذكي أو جهاز لوحي تفوق ما

كان موجودًا على الإطلاق في مكتبة الإسكندرية. في مستهل هذا الكتاب، ذكرت شخصية كليف كلافين من مسلسل (شيرز) القديم، ابن البلد الخبير بكل شيء الذي يلقي محاضراته من حين لآخر على من يصادفهم في حانة في بوسطن في المواضيع كافة التي تشرق عليها الشّمس، لكن كليف لا يمكن أن يوجد حاليًا، فبمجرد ادعائه أنه «من الحقائق المعروفة»، يمكن لكل من في الحانة أن يلتقطوا جوالاتهم ويتثبتوا (أو على الأرجح يقومون بدحض) أي ادعاء من ادعاءات كليف.

أو بعبارة أخرى: صنع التقدم التقني عالمًا صرنا فيه جميعنا الآن مثل كليف كلافين، وهذا مشكلة.

إلا أنه وعلى الرغم مما يعتقده الخبراء الناقمون، فإن الإنترنت ليس السبب الرئيس للتحديات التي تواجه خبراتهم. على العكس، فإن الإنترنت سرّع وتيرة انهيار التواصل بين الخبراء والعامة بتقديم طريق مختصر ظاهريًا لسعة الاطلاع. فقد أتاح للناس أن يحاكوا الإنجازات الفكرية بالاستمتاع بوهم الخبرة الذي يوفره الدعم اللانهائي من الحقائق.

إنَّ الحقائق كما يعرف الخبراء ليست مرادفًا للمعرفة أو القدرة، وفي فضاء الإنترنت أحيانًا لا تكون «الحقائق» بحقائق حتى. ففي خضم المناوشات التي تنشب في الحملات ضد المعرفة الراسخة، يكون الإنترنت مثل إسناد المدفعية: قذف مستمر من العشوائية، والمعلومات غير ذات الصلة التي تهطل على الخبراء والمواطن العادي على السواء، ما يصم آذاننا جميعًا وفي الوقت ذاته تنسف كل محاولات النقاش المُتعقل.

لقد وضع مستخدمو الإنترنت عددًا من القوانين المرحة والبديهيات لتحديد أطر النقاش في العالم الإلكتروني. فعند الحديث عن ألمانيا النازية في أي حوار يحفز هذا على الفور قانون جودوين، وبالتالي، قانون اللعب بالورقة النازية القريب منه.

إن رؤى مستخدمي الإنترنت القابعة داخل خندق والثابتة عادة هي أساس قانون بومر، حيث يمكن للإنترنت فقط أن يغير رأي شخصٍ ما من عدم تبنيه لرأي أن يتبنى الرأي الخطأ. يوجد عدد من القوانين الأخرى بما في ذلك قانوني المفضل، قانون سكيت: «أي رسالة على الإنترنت تصحح خطأ في منشور آخر ستحتوي هي نفسها خطأ واحدًا على الأقل».

لكن عندما يتعلق الأمر بموت الخبرة، فإن القانون الواجب وضعه في الحسبان عبارة عن ملاحظة صيغت قبل مدة كبيرة من اختراع الحاسوب الشّخصي: قانون ستورجيون الذي سُمي تيمنًا بكاتب الخيال العلمي الأسطوري ثيودور ستورجيون (Theodore Sturgeon).

ففي مطلع خمسينيات القرن العشرين، سخر النقاد رفيعو الثقافة من جودة الأدب الرائج، خاصة الخيال العلمي الأمريكي، فعدّوا الخيال العلمي والكتابات الخيالية طائفة منغلقة أدبيًا، وتقريبًا جميعها عديمة القيمة كما قالوا بتشامخ. وهنا كان رد ستورجيون غاضبًا عندما ذكر أن النقاد كانوا يضعون معايير عالية جدًا، وحاجج أن معظم المنتجات في معظم المجالات رديئة الجودة، بما في ذلك ما كان يعد حينها

كتابات جادة، وبناءً عليه توصل ستورجيون إلى أن «90% من كل شيء هراء».

وفيما يخص الإنترنت، فإن قانون 90% لستورجيون ربما يكون مجرد جر أقدام، أما حجم وسعة الإنترنت، وعدم القدرة على التفريق بين السمين من المعرفة والغث من الجلبة العشوائية، فيعني أن المعلومات الجيدة ستجتاحها على الدوام بيانات خسيسة ومنعطفات غريبة. الأسوأ من ذلك أنه لا توجد طريقة للمواكبة مع كل هذا، حتى لو أرادت أي مجموعة أو مؤسسة أن تحاول فعل هذا. من ذلك أنه في العام 1994 كان عدد المواقع الإلكترونية على الإنترنت أقل من ثلاثة آلاف، وبحلول العام 2014 اجتاز عددها المليار[1]. معظمها يمكن البحث عنها، وستعرض أمام ناظريك في حوالي ثوانٍ، مهما كانت جودتها.

الخبر السار أنه حتى ولو انطبق قانون ستورجيون، فمازال باقيًا مائة مليون موقع إلكتروني رائعة للغاية، وهذا يشمل مواقع أخبار العالم الكبرى (التي صار كثير منها الآن يُقرأ على الشاشات وليس الورق)، فضلًا عن الصفحات الرئيسة لخلايا التفكير والجامعات والمؤسسات البحثية وأي عدد من الرموز العلمية والثقافية والسياسية المهمة. أما الأخبار السيئة بالطبع أن إيجاد تلك المعلومات كافة، فيعني خوض غمار عاصفة من المعلومات عديمة الفائدة أو المضللة التي ينشرها الجميع بداية من جدة نيتها حسنة إلى قتلة في تنظيم الدولة الإسلامية. إن بعض أذكى النَّاس على وجه الأرض لديهم حضور طاغٍ على

الإنترنت، بيد أن بعض أغبى النَّاس على نفس الكوكب على بُعد نقرة واحدة في الصفحة الإلكترونية التالية أو الرابط التشعبي.

كما أن عدد المغفلين الذين ينشرون الهراء والقابعين في فضاء الإنترنت بمثابة كابوسًا لقانون ستورجيون، فالنَّاس الذين كان ينبغي عليهم الاختيار بصعوبة لتلقي المعلومات من بضع عشرات القنوات الإخبارية على تلفازاتهم صاروا يواجهون الآن ملايين الملايين من المواقع الإلكترونية التي ينتجها أي شخص لديه القدرة على الدفع لقاء وجوده في فضاء الإنترنت. مما لا شك فيه أنَّ الإنترنت إنجاز عظيم واصل تغيير حياتنا للأفضل، إذ أتاح لمزيد من إمكانية الوصول لمزيد المعلومات -ولبعضهم بعضًا- أكثر من أي وقت مضى في التَّاريخ. غير أن له أيضًا جانب مظلم له تأثيرات مهمة وشديدة السلبية في الطرق التي يكتسب النَّاس بها المعرفة ويتجاوبون مع الخبرة.

أكثر المشاكل وضوحًا أن حرية نشر أي شيء على الإنترنت تغمر الميدان العام بمعلومات مغلوطة وتفكير ضحل.

لقد أتاح الإنترنت تفتح مليار زهرة، ومعظمها نتن الرائحة، بما يشمل كل شيء من الأفكار التافهة للمدونين العشوائيين ونظريات المؤامرة للمهووسين وصولًا إلى الحملات المعقدة من التضليل التي تمارسها الجماعات والحكومات. بعض المعلومات على الإنترنت خاطئة بسبب الإهمال، وبعضها خاطئ؛ لأن أصحاب النية الحسنة لم تتوافر لديهم معرفة أفضل، وبعضها خاطئ؛ لأنها عرضت على الملأ بدافع من

الجشع أو حتى الشر المستطير. أما الوسيلة نفسها بلا تعليق أو تدخل تحريري، فتعرض كل المعلومات بسرعة متساوية، فالإنترنت وسيط وليس محكمًا.

وهذا بالطبع لا يتعدى كونه نسخة حديثة من المفارقة الأساسية التي أنتجتها الصحافة المطبوعة، أو كما أشار الكاتب نيكولاس كار (Nicholas Carr)، فإنه مع اختراع غوتنبرغ للطباعة في القرن الخامس عشر انطلقت «جولة من اصطكاك الأسنان» بين الإنسانيين الأوائل الذين شعروا بالقلق من أن «الكتب المطبوعة والصحف ستُقوِّض السلطة الدينية، وتحط شأن العلماء والكتبة، وتنشر الفتنة والفجور»[2].

لم يكن هؤلاء الرافضون في العصور الوسطى مخطئين بالكلية، فالصحافة المطبوعة اعتادت أن تنشر عن الإنجيل بغزارة، لتعلم النَّاس القراءة، وفي النهاية تعزيز الثقافة التي تفتح الباب على مصراعيه لحرية الإنسان. غير أنها وطدت بالتأكيد لنشر الخبل أيضًا مثل (بروتوكولات حكماء صهيون) التي علمت النَّاس الخلط بين الكلمات والحقائق، ورسخت لصناعة دعاية شمولية قوضت من الحرية الإنسانية ذاتها، أما الإنترنت، فهو الصحافة المطبوعة، لكن بسرعة الألياف الضوئية.

فضلًا عن تمكين الإنترنت لتدفق تيار من المعلومات المضللة، فإنه يضعف من قدرة كل من العوام والمثقفين على إجراء بحث أساسي، وهي مهارة يمكن أن تساعد الجميع في الإبحار في غياهب تلك البيانات الطالحة. ربما يبدو هذا ادعاءً

غريبًا صادرًا من عضو في مجتمع أكاديمي؛ لأني أعترف بكل سرور أن إمكانية الوصول إلى الإنترنت جعلت عملي في التأليف أيسر كثيرًا. في ثمانينيات القرن العشرين وجب أن أجوب الأنحاء، وأنا أحمل كومة من الكتب والمقالات.

أما اليوم، فأواصل تصفح الصفحات المرجعية والمجلدات المليئة بالمقالات التي يمكن قراءتها إلكترونيًا بإشارة من إصبعي، فكيف لا يعد هذا أفضل من الساعات التي أمضيتها وأنا على وشك أن أُصاب بالعمى أمام آلة النسخ في أكناف المكتبة؟

من بعض المناحي تعد وسيلة الإنترنت هبة عظمى، لكن في الغالب لمن تدربوا بالفعل على البحث ولديهم فكرةٌ ما عما يبحثون عنه، فمن الأسهل كثيرًا الاشتراك في النسخة الإلكترونية من مجلة (فورين أفيرز) أو دورية (إنترناشونال سيكيوريتي) مثلًا، عوضًا عن الارتحال فجأة إلى المكتبة، أو تفقد صندوق بريد المكتب بفارغ الصبر، لكن للأسف لن يقدم هذا يد العون للطلاب أو العوام الذين لم يسبق لهم تعلم كيفية الحكم على أصل المعلومات أو سمعة الكاتب.

إن المكتبات أو على الأقل مراجعها وأقسامها الأكاديمية، كانت ذات يوم تقدم خدمة من النوع الذي يشق غبار صخب السوق، فكانت زيارة المكتبة تعليمًا في حد ذاته، خاصة بالنسبة لقارئ استغرق وقتًا ليطلب مساعدة من أمين المكتبة. أما الإنترنت على أي حال، فلا يشبه المكتبة. بل إنه بالأحرى مستودع عملاق يمكن لأي شخص أن يضخ فيه أي شيء، بداية

من النسخ الأولى لأعمال شكسبير وصولًا إلى صورة مُزوَّرة، ومن أطروحة علمية إلى المواد الإباحية، ومن المنشورات المعلوماتية القصيرة إلى الرسومات الإلكترونية عديمة المغزى. إنه بيئة تكاد تكون منعدمة التنظيم التي تفتح الأبواب المدفوعة بالتسويق والسياسات والقرارات غير الحصيفة من آخرين من عوام النَّاس وليس حكم الخبراء.

هل يمكن لخمسين مليون من معجبي ألفيس بريسلي أن يكونوا مخطئين؟ بالطبع يمكن.

يعني هذا عمليًا أن البحث عن المعلومات سيعلق بأي خوارزمية مدمجة في محرك البحث التي عادة ما تقدمها شركات تهدف للربح باستخدام معايير مبهمة إلى حد كبير بالنسبة للمستخدم، فالشاب الصغير الذي يعهد إلى الإنترنت بإشباع فضوله حيال الدبابات في الحرب العالمية الثانية سيصادف على الأرجح الكتاب السخيف -وإن كان الأفضل مبيعًا- للمذيع التليفزيوني بيل أورايلي (Bill O'Reilly) بعنوان: (قتل باتون)، وتقل فرصة أن يجد الأعمال الأصعب مراسًا، وإن كانت أكثر دقة لأفضل المؤرخين الحربيين في القرن العشرين، فعلى الإنترنت للأسف كما هو الحال في الحياة، يعول كثيرًا على المال والشهرة.

إن كتابة كلمات على نافذة المتصفح ليست بحثًا: بل هي طرح سؤال على آلات مبرمجة لا يمكنها في حد ذاتها أن تفهم البشر، أما البحث الفعلي فصعب، وبالنسبة لمن تربوا في بيئة من التحفيز الإلكتروني المستمر، يكون أيضًا مملًا، فالبحث

يتطلب القدرة على الوصول إلى: معلومات موثوقة، وتلخيصها، وتحليلها، وكتابتها تفصيليًا، وعرضها على الآخرين. وليست مجرد اختصاص العلماء والأكاديميين، لكنها مجموعة مهارات أساسية يجب أن تعلمها المدارس الثانوية لكل خريجيها؛ نظرًا لأهميتها في شتى الوظائف والمهن. لكن لماذا نعبأ بكل هذا العمل الشاق والوعر عندما تكون الشاشة أمامنا بالفعل وعليها الإجابات التي تولد ملايين نتائج البحث في حوالي ثوانٍ، وتعرض على مواقع إلكترونية ملونة، وتبدو وكأنها ذات مصداقية؟

الموضوع الأعمق هنا، إن الإنترنت يغير فعليًا الطّريقة التي نقرأ بها والطّريقة التي نحلل بها، بل حتى الطّريقة التي نفكر بها، وكل هذا للأسوأ. إننا نتوقع الحصول على المعلومات على الفور، ونريد تحليلها وتعرض بطريقة تسر أعيننا -لا مزيد من تلك الكتب العلمية صغيرة الحجم والهشة، أشكرك- ونريدها أن تقول ما نريد منها قوله، فالنَّاس لا يقومون «بالبحث» كثيرًا وهم «يبحثون عن صفحات جميلة على الإنترنت لتوفر لهم إجابات يحبونها بأقل قدر من الجهد وفي أقصر وقت». إن فيضان المعلومات الناتج الذي يكون بجودة مختلفة وأحيانًا مشكوك في صحتها، تصنع طبقة سطحية زينة من المعرفة التي تجعل النَّاس أسوأ حالًا عما كانوا عليه لو لم يعلموا أي شيء على الإطلاق، فمن الأقوال المأثورة القديمة وإن كانت صحيحة: لا يُخشى عليك مما لا تعرفه، بل يُخشى عليك مما تعرفه.

أخيرًا، وربما الأكثر إزعاجًا أن الإنترنت يجعلنا أكثر لؤمًا، وأقل حلمًا، وغير قادرين على إجراء مناقشات يتعلم فيها الجميع أي شيء.

أما المشكلة الرئيسة مع التواصل الفوري أنه فوري، فمع أن الإنترنت سمح لمزيد من النَّاس أن يتحدثوا مع بعضهم بعضًا أكثر من أي وقت مضى -حالة تاريخية جديدة ومتفردة- فحديث النَّاس مع سائر النَّاس ربما لا يكون دائمًا بالفكرة الراجحة. أحيانًا، يحتاج البشر أن يتوقفوا ويتأملوا، أن يمهلوا أنفسهم بعض الوقت لاستيعاب المعلومات وهضمها. لكن الإنترنت حلبة يمكن للناس فيها أن يتصرفوا دون تفكير، وبالتالي، يصبحون مستغرقين في الدفاع عن ردة فعلهم الغريزية عوضًا عن تقبل المعلومات الجديدة أو الاعتراف بخطأ.. خاصة لو كان خطأ أشار إليه أناس ذوو تعليم أو خبرة أكبر.

ما الزيف على الإنترنت؟ كل شيء:

لا يوجد ما يكفي من الصفحات في هذا الكتاب أو غيره ليصنف حجم المعلومات المغلوطة على الإنترنت.

طرق العلاج الإعجازية ونظريات المؤامرة والمستندات المزورة والاقتباسات التي تُنسب لغير أصحابها.. كل هذا وأكثر بمثابة النبات العشبي الضار الذي ينمو بكثافة في مروج المعرفة العالمية، أما الأعشاب والأزهار الأوفر صحة والأقل ثباتًا، فليست أمامها فرصة.

على سبيل المثال: الأساطير الحضرية القديمة والأصيلة ونظريات المؤامرة أعيد ترميمها، وعادت إليها الحياة مجددًا على الإنترنت. سمعنا جميعنا عن قصص لتماسيح القاطور في المجاري، وموت لمشاهير بطريقة مستبعدة وانهيار مكتبات؛ لأنه لم يضع أحد في الحسبان وزن كتبها، معظمها أقاويل تتداول شفهيًا. أما على الإنترنت، فتعرض تلك القصص بمخططات وتصميمات جميلة، وتنتشر الآن بسرعة عبر البريد الإلكتروني ووسائل التواصل الاجتماعي إلى درجة أنه توجد مجموعات رائعة، مثل: (Snopes.com) ومؤسسات أخرى للتحقق من صحة المعلومات الذين لا عمل وراءهم سوى إخماد نيران القمامة الفكرية تلك طوال اليوم.

لكنهم للأسف يسبحون عكس التيار، فالنَّاس لا يلجؤون إلى الإنترنت لتصحيح معلوماتهم المغلوطة أو دحض نظرياتهم العزيزة. بل يطلبون من العرافة الإلكترونية أن تقرأهم على جهلهم. أعربت الكاتبة بصحيفة واشنطن بوست كاتلين ديوي (Caitlin Dewey) عن قلقها أن التحقق من صحة المعلومات ربما لا يهزم الخرافة والخدع قط؛ لأنه «لا يوجد أحد لديه الوقت أو القدرة المعرفية للتفكير في الفروق الدقيقة والتناقضات الظاهرة كافة»[3]. وفي النهاية تنهدت وقالت: «فالكشف عن زيفها لا طائل منه».

وبعد شهرين على كتابتها لتلك الكلمات، رفعت ديوي والصحيفة يد الاستسلام وأوقف عمودها الأسبوعي بعنوان: «ما هو زائف على الإنترنت». لم توجد أي طريقة للمواكبة مع حالة

الجنون، خاصة عندما يكتشف المخادعون كيف يجنون المال بنشر الخرافات لقاء الضغط المربح على المواقع الإلكترونية. قالت ديوي لقرائها: «بصراحة، لم يكن هذا العمود مصممًا لمخاطبة البيئة الحالية، هذه الصيغة ليست منطقية». أما ما ينذر بالخطر أكثر، فالمحادثات بين ديوي وأحد الباحثين المحترفين الذي قال لها: إن «عدم الثقة في المؤسسات وصل إلى درجة كبيرة الآن، والانحياز المعرفي دائمًا ما يكون قويًا، إلى درجة أن من تنطلي عليهم القصص الإخبارية المخادعة عادة ما يكونون مهتمين فحسب باستقاء المعلومات التي تتوافق مع رؤاهم.. حتى وإن كان باديًا أنها زائفة» (التأكيد بالخط المائل في النص الأصلي)[4]. حاربت ديوي والصحيفة الإنترنت، وربح الإنترنت.

الكثير من الهُراء، خاصة في الأجواء السياسية التي تزدهر حسب مدى توسع وقوة الإنترنت، فلربما تظل جماعة عنيدة من المهووسين على اعتقادها بأن الأرض مسطحة أو أن الأمريكيين لم يسيروا قط على القمر، لكن في النهاية، فإن الصور كافة من الفضاء تكون مقنعة بما فيه الكفاية بالنسبة لنا، وعندما يتعلق الأمر بالأساطير الحضرية مثل مولد باراك أوباما في إفريقيا، أو تخطيط جورج دابليو بوش لهجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية، أو الخطة السرية لوزارة المالية الأمريكية بأن تستبدل عملة عالمية بالدولار، فلا يمكن لرواد الفضاء تقديم يد العون.

إن وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية، وغرف الدردشة تحول الخرافات والقصص التي تسمع «من صديق لآخر»، والإشاعات إلى «حقائق».

كما شرح الكاتب البريطاني داميان تومسون (Damian Thompson)، فإن التواصل الفوري يمكن للناس والجماعات التي تكرس نفسها للأفكار المخبولة، بعضها خطير جدًا. يطلق تومسون على هذا «المعرفة المضادة»، حيث إنها تتقافز في وجه العلم ومنيعة تمامًا أمام الأدلة المضادة.

> الآن بفضل الإنترنت... يمكن لإشاعة عن المسيح الدجال أن تقفز من منفلت يتأسى بالمظهر القوطي في السويد إلى طائفة كاثوليكية متزمتة بأستراليا في حوالي ثوانٍ. صارت الأقليات أكثر تسامحًا مع العقائد الغريبة لبعضها. ويزدهر الآن التواصل بين المتعصبين السود والبيض الذي كان يجري على استحياء منذ عقود، وذلك نتيجة تبادل الطائفتين نظريات المؤامرة[5].

عندما يكون العالم أبطأ في وتيرته وأقل تواصلًا لا تجد مثل هذه الطوائف سبيلًا لتعزيز معتقداتهم مع التوكيدات الفورية من المتطرفين الآخرين على الإنترنت.

إنَّ الحركة الحرة للمعلومات بمثابة دافع قوي للديمقراطية، لكنها تحمل في طياتها دائمًا مخاطرة أن يطوع الجهلاء أو الأشرار أدوات الاتصال الجماهيري لصالحهم وترويج أكاذيب وخرافات لا يمكن لأي خبير دحضها.

والأسوأ من ذلك أن المعلومات السيئة يمكن أن تدوم على الإنترنت لسنوات. وعلى عكس صحف الأمس، فإن المعلومات على الإنترنت مستمرة، وستظهر فجأة في الأبحاث التالية بعد أن تظهر مرة واحدة فحسب، بل حتى عند حذف الزيف أو

الأخطاء من المصدر، فإنها تظهر في الأرشيف بمكانٍ ما. إذا ما «انتشرت» قصص تلك المصادر وجابت فضاء العالم الإلكتروني خلال: أيام، أو ساعات، أو حتى دقائق، يصبح من المستحيل فعليًا تصحيحها.

على سبيل المثال: إن المزعج آلين ويست (Allen West) من المحافظين أذاع نبأ في العام 2015 يسهل تصديقه أن الرئيس أوباما كان يجبر أفراد الجيش الأمريكي على الصلاة مثل المسلمين في رمضان[6]. كان موقع ويست الإلكتروني يضع عناوين براقة جانب بعضها بعضًا - «انظر ما تُرغم قواتنا على فعله»- مقابل صورة لجنود أمريكيين وهم ساجدون وجباههم على سجاد الصلاة، كان مشهدًا مروعًا، وانتشرت القصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي انتشار النار في الهشيم.

لم يحدث هذا الشيء؟

أعاد ويست استخدام صورة التقطت قبل ذلك بسنوات عدة لمسلمين بالفعل في الجيش الأمريكي وهم يؤدون الصلاة. وحتى بعد أن أثيرت الاعتراضات على الصورة المضللة (مني ومن آخرين)، لم يتراجع ويست عن قصته. وما كان هذا ليشكل فارقًا؛ لأنها كانت بالفعل قد أُرشفت في المدونات والمواقع الأخرى، ومن يتصفحون الإنترنت ممن ليس لديهم التدريب أو الوقت للتثبت من أصل المعلومة سوف يصادفون القصة الأصلية من الآن فصاعدًا فضلًا عن آلاف التكرارات لها، ولا يعرفون أبدًا أن الموضوع زيف بأكمله.

واليوم، لا أحد بحاجة أن يُحبط من المتحققين من صحة المعلومات المعتنين بالتفاصيل أو المحررين الصارمين. فكما كان في استطاعة كتاب مجلد بغلاف فاخر أن يخدع النَّاس ليعتقدوا بأن محتواه موثوق، فكذا أيضًا تفعل المواقع الإلكترونية ذات التصميمات الجذابة التي تعرض إشارات مرئية للمصداقية والموثوقية تساعد القراء غير المطلعين في نشر المعلومات المغلوطة أسرع من أي عنوان رئيس كان في استطاعة ويليام راندولف هارست (William Randolph Hearst) أن يتخيله.

لا يمكن للخبراء والمحترفين الآخرين الذين يصرون على الصرامة المُوحشة للمنطق والدقة المستندة للحقائق أن ينافسوا مع آلة ستعطي القراء دائمًا إجاباتهم المفضلة بستة عشر مليون لون.

بالطبع إنه آمن، بحثت عنه على جوجل:

دعك من المواقع الإلكترونية اللامعة التي أنتجها أصحابها والمنشورات والرسومات الهزلية على فيسبوك التي يكتظ بها الإنترنت، فالبحث عن إجابات سريعة سهَّل أيضًا نمو صناعات بأكملها بُنيت على أساس بيع أفكار هابطة للعامة، وتحصيل رسوم منهم لقاء تضليلهم، وأنا هنا لا أشير إلى الصحافة على الإنترنت -فهذا في الفصل التالي- لكن بالأحرى لعديد من المنافذ التي عادةً ما يتصدر المشاهير المشهد فيها، والتي

تُسدي نصائح تهدف إلى أن تحل محل المعرفة الراسخة من الخبراء.

هل أنت امرأة قلقة حيال صحتها الإنجابية؟ ليست لديَّ خبرة في تلك الشؤون، لكن قيل لي من نسوة في حياتي: إن الزيارات المنتظمة لطبيب الأمراض النسائية ليس بالشيء الذي يستمتعون به على وجه التحديد. مع ذلك، بما أنَّ لدينا الإنترنت الآن، صار لدينا مصدر بديل للمعلومات بخلاف الخبراء الطبيين: لدى الممثلة جوينيث بالترو (Gwyneth Paltrow) «مجلة نمط الحياة» الخاصة بها، على موقع (Goop.com) ويمكنها مناقشة هذا معك، في منزلك على انفراد أو عبر هاتفك الذكي، والتطرق لكثير من الأشياء التي يمكن للنساء فعلها للحفاظ على صحتهم والوقاية من الأمراض النسائية، بما يشمل تعريض مهابلهن للبخار.

وإن لم تكن على ألفة بهذه الممارسة، فالسيدة بالترو تنصح بها بشدة، قالت في العام 2014: «تجلس على كرسي صغير وينظف رحمك مزيج من الأشعة تحت الحمراء وبخار الشيح، وأشياء أخرى. إنه دفق من الطاقة -وليس مجرد نضح من البخار- يوازن معدلات الهرمونات لدى الإناث، وإن كنت في [لوس آنجلوس]، يجب عليك فعلها».

مع ذلك، فإنَّ أطباء الأمراض النسائية لا ينصحون بأن تبخر النساء في لوس آنجلوس أو أي مكان آخر الجزء النصفي من أجسادهن، إذ إنَّ إحدى طبيبات الأمراض النسائية جين جونتر

(Jen Gunter) عرضت على موقعها الإلكتروني (الأقل بهرجة بكثير) نصيحة بديلة واضحة:

> البخار لن يصل إلى رحمك عبر مهبلك ما لم تستخدمي نوعًا ما من الضغط، وبكل تأكيد عليك ألا تفعلي هذا على الإطلاق. إن الشيح العادي أو شيح ابن سيناء أو أيًا كان من نوع يستخدم في التبخير إما على المهبل وإما الفرج، لا يمكن أن يوازن الهرمونات التناسلية، أو أن ينظم دورتك الشهرية، أو يعالج الاكتئاب، أو يشفي العقم، بل لا يمكن حتى للتبخير بهرمون الأستروجين أن يفعل هذا.
>
> إن أردت الشعور بالاسترخاء، فلتحظي بتدليك جيد.
>
> وإن أردت أن يسترخي مهبلك، فعليك برعشة الجماع[7].

على أي حال، فإن موقع بالترو مثال مُصغر للتوجهات السائدة، على الأقل التي تتفشى في منطقة سكنية محددة، وقد عبّرت فنانة ساخرة تُدعى لورا هوبر بيك (Laura Hooper Beck) عن سذاجة جماهير بالترو بأفضل تعبير: «في الأساس، لو أخبرني طبيب أن أفعل هذا، فسيكون موقفي رافضًا بصرامة، لكن إن أخبرتني شقراء نحيلة تضع شعرً مستعارًا قبيحًا أن نفخ مهبلي بهواء ساخن سيشفيني من كل شيء عانيته قبل هذا، بما في ذلك علاقتي التي ساءت مع أمي، فسأصغي إلى جوينيث بالترو؛ لأن الخليلة تعرف العلم»[8].

من السهل -في غاية السهولة كما أعلم- السخرية من المشاهير الخاوين، وحيث إن هذا يتعلق الآن بالبخار والمهابل

أكثر مما كتبت طوال حياتي المهنية، فلندع جانبًا إذًا بالترو ونصيحتها عن الصحة، مع ذلك توجد نقطة مهمة في طيات هذا حيال تأثير الإنترنت في موت الخبرة؛ لأنه فيما مضى، كانت المرأة الأمريكية ستبذل قدرًا كبيرًا من الجهد المبدئي لتكتشف كيف تسلُق مسالكها الداخلية ممثلة هوليود، أما الآن، فالمرأة التي تبحث عن إجابات حول كل شيء بداية من التوجهات السائدة في الأزياء وحتى سرطان الرحم يمكن أن تمضي عرضيًا مزيدًا من الوقت في قراءة موقع بالترو أكثر من الوقت الذي تمضيه مع طبيبها.

إنَّ المشاهير الذين يستغلون مكانتهم المشهورة ليسوا بالشيء الجديد، لكن الإنترنت يزيد من تضخيم تأثيرهم، ففي حين إننا ربما نرفض الطّريقة المسرحية التي يتحدث بها جيم كاري ضد اللقاح، ونعدّها امتدادًا للشخصية غير التقليدية بالفعل لفنان هزلي، فإنَّ الأشخاص أصحاب الأسماء الرنانة ينجذبون إلى بيت المتعة الإلكتروني هذا.

تلقى كاتب عمود صحيفة نيويورك تايمز فرانك بروني (Frank Bruni) اتصالًا هاتفيًا في العام 2005 من روبرت فرانسيس كينيدي الأصغر (Robert F. Kennedy, Jr.) ابن عضو مجلس الشيوخ والمرشح الرئاسي الذي اغتيل في العام 1968، وقد أخبر كينيدي بروني أنَّ الأمر جلل، وينبغي عليهما اللقاء، أصر كينيدي أن يصحح لبروني حول موضوع اللقاح، وكما هو حال كثير من الأمريكيين كان كينيدي يهذي بدافع من جنون الارتياب بقوله: إن اللقاحات حسب تعبير كينيدي تؤدي إلى

«هولوكوست» بين أطفال الأمريكيين. (في الواقع ذكر بروني أن جيم كاري على ما يبدو كان يردد هذا الكلام وكأنه يتلو الصلوات في كنيسة روبرت كينيدي الأصغر هذا»)، وفي تذكره لاحقًا للمقابلة قال بروني: «كنت منحازًا إلى: الجمعية الطبية الأمريكية، والأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال، ومعاهد الصحة الوطنية، ومراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها. [لكن] كينيدي كان يعرف أفضل من هؤلاء»[9].

إنَّ كينيدي وجيم كاري وآخرين من دونهم فعلوا ما يفعله معظم الأمريكيين في المواقف المشابهة: قرروا سلفًا ما يعتقدونه، ومن ثم ذهبوا للبحث عن مصادر على الإنترنت لدعم هذا المعتقد، لكن كما أشار باروني: «بإمكان المُحرضين المناهضين للقاح دائمًا العثور على باحث خارج عن الإجماع أو 'دراسة' عشوائية لتؤازر من رأيهم، إنها معرفة واسعة في عصر الفضاء الإلكتروني: تتصفح إلى أن تصل للاستنتاج الذي تبحث عنه، وتضغط على الروابط تلو الأخرى لتجد ما يثبت صحة رأيك، وتخلط بين وجود الموقع مع عقلانية الحجة المطروحة».

هذا النوع من الاستيام على الإنترنت كالماشية -الذي يدعى خطأ «بحث» من العوام- يجعل التفاعل بين الخبراء والمحترفين شاقًا. ومرة أخرى يكون المتهم الرئيس هو الانحياز التأكيدي: مع أن عددًا من القصص على الإنترنت زائفة أو تفتقر إلى الدقة، فإن القصة الوحيدة من بين مليار قصة التي يصيب فيها جوجل ويخطئ فيها الخبراء تنتشر كالنار في الهشيم. مثال ذلك: في حالة مأساوية في العام 2015 شخَّص الأطباء خطأ

مرض شابة يافعة بريطانية، وقالوا لها: أن «تتوقف عن البحث على جوجل عن أعراضها»[10]. وأصرت المريضة أنها مُصابة بنوع نادر من السرطان، وهي احتمالية رفضها الأطباء. كانت على حق وكانوا مخطئين، وماتت.

تصدرت قصة اليافعة البريطانية الأخبار، وأقنع هذا الخطأ النادر على الأرجح عددًا مهولًا من النَّاس أن يكونوا أطباء أنفسهم، بالطبع من ماتوا؛ لأنهم استخدموا حاسوبًا وشخصوا خطأ إصابتهم بمرض القلب على أنه سوء هضم لم يتصدروا قط الصفحات الرئيسة، لكن لا يهم أي من هذا. مثل هذه القصص التي يناطح فيها الأقزام العمالقة كقصة داوود وجالوت (شابة يافعة ضد فريقها من الأطباء) تشبع نهم الانحياز التأكيدي لدى العامة، وتزيد استخفافهم بالمعرفة الراسخة، وفي الوقت ذاته تعزز من الآمال الزائفة بأن حلول مشاكلهم على بُعد بضع نقرات من فأرات حواسيبهم.

يُحكى أنَّ الكتب ذات يوم كانت على الأقل حاجزًا هامشيًا بين انتشار التضليل سريعًا؛ لأنَّ الكتب كانت تأخذ وقتًا في إنتاجها، وتتطلب بعض الاستثمار والحكم من جانب الناشر، فكانت عبارة «قرأتها في كتاب» تعني «على الأرجح أنَّ هذا ليس جنونًا؛ لأن الشركة أنفقت من مالها لتضعه بين دفتي كتاب ونشرته». لم يكن هذا بالصواب التام حيال الكتب بالطبع على الإطلاق، فبعضها تمَّ التحقق من صحة معلوماتها وراجعها الأقران وحررت، في حين أن كتب أخرى دست بعنف بين دفتيها، ونقلت على عجل إلى متاجر الكتب.

مع ذلك، فإنَّ الكتب من دور النشر المرموقة كانت تمر على الأقل بعملية المراجعة الأساسية في المفاوضات بين: المؤلفين، والمحررين، والمراجعين، والناشرين، بما في ذلك الكتاب الذي تقرأه الآن، أما الكتب ذاتية النشر من «دور النشر المتباهية»، فعلى العكس ينظر إليها بازدراء من المراجعين والقراء على سواء، ولسبب وجيه. لكن اليوم صار الإنترنت مكافئًا لمئات الملايين من دور النشر المتباهية كلها تنتج أيًا كان ما يريد قوله أي شخص لديه لوحة مفاتيح، مهما كان غبيًا.. أو حقيرًا. (أو كما قال الكاتب في ناشونال جورنال، في عصر الإنترنت، «صار كل متعصب ناشرًا». يوجد قدر لا بأس به من الحكمة والمعلومات المخفية ها هنا، لكن لا مفر من قانون ستورجيون.

إن الاتصال بالإنترنت يمكن فعليًا أن يزيد النَّاس حماقة عما كانوا ليصبحوا عليه إن لم ينخرطوا في أي موضوع على الإطلاق.

إن البحث عن معلومات في حدٍّ ذاته يجعل النَّاس يعتقدون أنهم تعلموا شيئًا، بينما في الحقيقة يكونون قد انغمسوا في مزيد من البيانات التي لا يفهمونها. ويحدث هذا؛ لأنه بعد إمضاء ما يكفي من الوقت في التصفح، لا يعد بإمكان النَّاس التفريق بين الأشياء التي ربما تكون قد مرت أمام أعينهم والأشياء التي يعرفونها بالفعل.

إنَّ رؤية الكلمات على شاشة لا يُماثل قراءتها أو فهمها، فعندما تحرت جماعة من علماء النفس التجريبي في جامعة ييل

عن الكيفية التي يستخدم بها النَّاس الإنترنت، اكتشفوا أن «من يبحثون عن المعلومات على المواقع الإلكترونية يستكملون تلك التجربة بحس متضخم عن مقدار ما يعرفونه.. حتى فيما يخص الموضوعات التي لا علاقة لها بالموضوعات التي بحثوا عنها على جوجل»[11]. ما يشبه تقريبًا النسخة الإلكترونية لتأثير دانينج-كروجر، حيث يكون الأقل كفاءة ممن يتصفحون الإنترنت هم من تقل احتمالية إدراكهم؛ لأنهم لا يتعلمون أي شيء.

إنَّ من يبحثون عن معلومات حول «الوقود الأحفوري» مثلًا ربما ينتهي بهم المطاف وهم يتفقدون عددًا من الصفحات لمصطلح ذي صلة، مثل: «حفريات الديناصور». وبعد أن يمر عليهم عددٌ كافٍ من المواقع الإلكترونية، يفقدون في النهاية قدرتهم على إدراك أن أيًا كان ما قرأوه عن كلا الموضوعين ليس بالشيء الذي عرفوه عندما نظروا إلى الشاشة، لكنهم على العكس يفترضون أنهم عرفوا أشياءً حول كل من الديناصورات والوقود الأحفوري؛ لأنهم بهذا القدر من الذكاء فحسب. للأسف من يعتقدون إنهم أذكياء؛ لأنهم بحثوا في الإنترنت كمن يعتقدون أنهم سباحون ماهرون؛ لأنهم ابتلوا في أثناء عبورهم لعاصفة ممطرة.

بطريقةٍ ما يصف فريق ييل بلطف هذه المشكلة بأنها «الخلط بين المعرفة من مصدر خارجي والمعرفة الداخلية»، لكن يمكن وصف ذلك بصراحة أكبر إن قلنا: إن النَّاس لا يمكنهم تذكر معظم ما يرونه، وفي الوقت ذاته يفرون عشرات النتائج التي ظهرت لهم بنقرات على الفأرة، أو كما لاحظ الكاتب توم

جاكوبس (Tom Jacobs)، فإن البحث على الإنترنت «يبدو أنه يحفز اعتقادًا غير مبرر على الإطلاق في معرفة المرء.. وهذا شيء مريع بعض الشيء بالنظر إلى العادة التي تنتشر حثيثًا بشأن البحث بتلقائية على الإنترنت للإجابة عن أي سؤال افتراضيًا»[12].

ربما يكون مُروّعًا إلى حدٍّ كبير، لكنه بالتأكيد مزعج، هذه التوكيدات الخاطئة للمعرفة المكتسبة يمكن أن تجعل وظيفة الخبير شبه مستحيلة، فلا سبيل لتنوير النَّاس الذين يعتقدون أنهم اكتسبوا مقدار عقد من المعرفة؛ لأنهم أمضوا نهارًا على محركات البحث. يمكن بعد تبادل بضع كلمات في مناقشة مع أحد العوام أن تجعل قلب أحد الخبراء ينخلع إذا ما سمع: «أجريت بعض البحث».

كيف يمكن بعد التعرض لهذا القدر من المعلومات أن يفشل المرء في إنتاج على الأقل نوعٍ ما من الزيادة في الخط القاعدي لمعرفته، لو أن لهذا سبيلًا بالتناضح الإلكتروني فحسب؟ كيف يستطيع النَّاس قراءة كل هذا القدر ومع ذلك يحتفظون بالقليل جدًّا؟

الإجابة بسيطة: قليل من النَّاس يقرأون بالفعل ما يجدونه.

أو كما كشفت دراسة كلية لندن الجامعية أن النَّاس لا يقرأون فعليًا المقالات التي تقابلهم خلال البحث على الإنترنت، بل إنهم يلقون نظرة خاطفة على العنوان أو الجمل القليلة الأولى، ومن ثم ينتقلون لما بعد ذلك، وقد ذكر

الباحثون أن مستخدمو الإنترنت لا يقرأون على الإنترنت بالمعنى التقليدي للكلمة؛ بل في الواقع توجد إشارات أن أشكال جديدة من 'القراءة' ظهرت مع 'التصفح عبر الإنترنت' من المستخدمين أفقيًا عبر العناوين وصفحات المحتويات والملخصات بحثًا عن الفوز السريع. على ما يبدو تقريبًا أنهم يدخلون على الإنترنت لتلافي القراءة بالمعنى التقليدي»[13]. وهذا فعليًا عكس القراءة التي لا تهدف كثيرًا إلى التعلم، لكن الفوز بجدل أو تأكيد معتقد مسبق.

إنَّ الأطفال والشباب الصغار يكونون عُرضة على وجه التحديد لهذا الميل، وتقترح دراسة كلية لندن الجامعية أن هذا نظرًا لوجود «خرائط ذهنية غير مُعقدة لديهم عن ماهية الإنترنت، وعادة ما لا يقدرون أنها مجموعة من الموارد المخزنة في شبكات من مختلف مقدمي الخدمات»، وبهذا يمضون قليلًا من الوقت فعليًا «التقييم المعلومات إما لإيجاد صلة مشتركة أو تدقيق أو مرجعية». هؤلاء الشباب «لا يعثرون على موارد بديهية ترعاها المكتبة، وبالتالي، يُفضلون استخدام جوجل أو ياهو بديلًا: «لأن هذه الخدمات «تقدم حلًا مألوفًا وإن كان بسيطًا لاحتياجات دراستهم». إنَّ المدرسين والخبراء الآخرين ليسوا محصنين ضد نفس الإغراءات. وفق الدراسة: «يبدو أن التصفح والاطلاع عبر الإنترنت، هو العرف السائد للجميع. شهرة الملخصات بين الباحثين الأقدم تفسد متعة اللعبة».

خلص مؤلفو الدراسة من كلية لندن الجامعية إلى أن «المجتمع ينحدر».

إنَّ هذه المشكلة الجادة بالفعل ربما حتى تكون مخيفة أكثر بعض الشيء عما تبدو عليه. يميل مستخدمو الإنترنت إلى الانجذاب وتصديق أي نتيجة من نتائج البحث التي تظهر أولًا في التصنيف دون أن يضعوا في الحسبان مصادر تلك النتائج. في النهاية، إن كان محرك البحث يثق فيها بما يكفي ليصنفها في مرتبة عالية، فهي جديرة بالتصديق. ولهذا السبب، فإن أي شخص ينشر محتوى على الإنترنت يبحث عن طرق لتحسين موقع ظهور منتجهم في محرك البحث: لو كنت تبيع الحساء، فستفعل ما ينبغي عليك فعله لتوطئ محرك البحث بحيث يتجه من يبحثون عن وصفات الحساء إلى نتائج عن قسائم للعلامة التجارية الخاصة بحسائك.

لكن ماذا إن كنت تبيع شيئًا أهم من الحساء، مثل: مرشح سياسي؟ توجد على الأقل بعض الأدلة أن تصنيفات محركات البحث يمكن أن تغير مفاهيم النَّاس عن الواقع السياسي.

أتم أجرى عالما نفس دراسة في عام 2014 عن موضوع أطلقا عليه اسم: «تأثير تلاعب محركات البحث» وادعيا أن اختباراتهما أظهرت قدرة «على زيادة نسبة من يفضلون مرشحًا محددًا بنسبة تتراوح بين 37 و63% بعد جلسة بحث واحدة»، ويحتمل أن يشكل هذا «تهديدًا خطيرًا على النّظام الدّيمقراطي للحكومة»[14]. من الباكر جدًا القول: بأن محركات البحث تقوض الدّيمقراطية -إلى الآن على الأقل- لكن من الصعب الجدل في الواقع بأن معظم العوام لم يعد بإمكانهم التفريق بين المعلومات الحقيقية وأيًا كان ما يتجشأ به محرك البحث.

حكمة الدهماء:

من الواضح أنَّ غير الخبراء لا يخطئون دائمًا حيال كل شيء، والخبراء ليسوا دائمًا على صواب. نادرًا ما تصيب شابة يافعة ويخطئ فريق من الخبراء، إنَّ الخبراء مهمون، لكن الأشخاص العاديون يستطيعون عيش حياتهم كل يوم بدون مشورة المحترفين والمفكرين وواسعي الاطلاع الآخرين، إذا ما استخدم الإنترنت استخدامًا ملائمًا يمكن أن يساعد العوام في التواصل مع بعضهم من أجل المعلومات الأساسية التي ربما تكون مكلفة جدًا، أو يصعب الوصول إليها من المحترفين. في الواقع، فإن الإنترنت مثل سوق الأسهم والآليات الأخرى التي تجمع تخمينات العوام وحدسهم حول مواضيع معقدة، يمكن أن تنتج عنها لحظات يتفوق فيها العوام على الخبراء.

الطّريقة التي يمكن لكثير من التخمينات الخاطئة أن يتمخض عنها تخمين وحيد صحيح ليصبح ظاهرة راسخة. للأسف، فإن الطّريقة التي يفكر بها النَّاس في الإنترنت على إنه طريقة للمعرفة المُستقاة من الحشود تمزج الفكرة المنطقية تمامًا التي أطلق عليها الكاتب جيمس سوروييكي (James Surowiecki) «حكمة الحشود» مع الفكرة المنافية للمنطق تمامًا التي تقول: بأن الحشود حكيمة؛ لأن كل فرد من الدهماء حكيم أيضًا.

أحيانًا، ربما يكون تخمين أناس بلا أي معرفة متخصصة بجماعة كبيرة من النَّاس أفضل من أي فرد في الجماعة، يمكن لهذا التوجه السائد أن يصبح حقيقيًا خاصة فيما يتعلق

بالقرارات التي يمكن أن ينتج عنها توحيد كثير من التخمينات فيها تخمينًا جامعًا أفضل من رأي أي خبير على حدةٍ. وقد حكى سورويكي على سبيل المثال أحد معارض المقاطعات الإنكليزية في العام 1906 عندما طلب من الجمهور أن يخمن وزن ثور.

إن متوسط التخمينات كان أفضل من تخمين أي شخص منفردًا، وانتهى بالضبط تقريبًا بالإجابة الصحيحة[15]. وبالمثل، فإن رهان العالم إجمالًا في سوق الأوراق المالية أفضل عمومًا من رهان محلل أسهم واحد على الأسهم.

يوجد كثير من الأسباب تجعل الحشود أفضل في تقديرها من الأفراد بما في ذلك الطّريقة التي يمكن لعدد كبير من تخمينات عدد كبير من النَّاس أن تساعد في إزالة نسبة محددة من الانحياز التأكيدي، أو سوء الفهم،أو أي عدد آخر من الأخطاء. كما يسمح أيضًا لمن لديهم معلومات جزئية فحسب أن يضفوا تلك المعلومات البسيطة من المعرفة إلى المشكلة والمساعدة في حلها، تمامًا بنفس الطّريقة التي يستطيع بها آلاف النَّاس أن يستكملوا أحجية الصور المقطوعة العملاقة حتى وإن لم يكن لدى كل منهم سوى بضعة قطع منها.

لنأخذ مثالًا واحدًا، كلفت فيه عين الحشود غير المُتحيزة أحد ألمع الصحفيين الأمريكيين وظيفته، ففي خضم الانتخابات الرئاسية الأمريكية في العام 2004، في بث مباشر لمذيع أخبار قناة سي بي إس العريق دان راذير (Dan Rather) أذاعوا قصة

عن السجل العسكري لشاغل منصب الرئيس جورج دابليو بوش (George W. Bush).

ادّعت سي بي إس امتلاكها وثائق من أوائل سبعينيات القرن العشرين تفيد بأن بوش تهرب من التجنيد في وحدة الحرس الوطني الجوي الأمريكي، ولم يكمل قط خدمته العسكرية المطلوبة، وفي ذلك الحين، فإن بوش رئيس الأركان الذي قاد أمريكا في تلك المرحلة إلى حربين رئيستين ضد عضو مجلس الشيوخ جون كيري (John Kerry) نال قلادة بطل الحرب، وكانت التهمة بطبيعة الحال مشينة في سباق ينصب التركيز فيه على المواضيع العسكرية.

اعترض مؤيدو بوش على ما ادّعوا أنه مصادر محتالة وتقرير مراوغ، لكن في النهاية صدق القصة الأشخاص العاديون على الإنترنت، وليس الأشياع الغاضبين. فالأشخاص العاديون ممن ليس لديهم أي خبرة في الصحافة، لكنهم أمضوا قدرًا كبيرًا من الوقت أمام الحواسيب لاحظوا أن الخط في الوثائق يطابق بالنظر عن كثب نفس الخط الذي يكتب على برنامج مايكروسوفت وورد. وكما هو واضح، فإن القوات الجوية في العام 1971 كانت تستخدم آلات الكتابة، حينها لم تكن شركة مايكروسوفت وبرامجها موجودة، ومن ثم ينبغي أن تكون الوثائق مزورة.

وبمواجهة هذا التحدي للقصة من الحشود، أمرت قناة سي بي إس بفتح تحقيق، وانتهى المطاف بالشبكة أن تبرأت من

الوثائق والقصة. وبناءً عليه طرد منتج القطاع، أما دان راذير الذي ظل مقتنعًا إلى يومنا هذا، إنه على صواب، وأن الجميع مخطئون، فتقاعد وقاضى صاحب عمله الأسبق، وخسر.

إذًا مَن بحاجة إلى خبراء؟ لو طرحنا نفس السّؤال بعدد المرات الكافي أو كلفنا ما يكفي من النَّاس للعمل على نفس الموضوع، فلماذا لا نعتمد على حكمتهم الجمعية عوضًا عن البحث عن الخيارات المعيبة أو المتحيزة من بعض الحكماء الذين اختاروا بأنفسهم فحسب؟ لو أن شخصًا واحدًا ذكي ومائة أذكى منه، فإن مليار شخص يتواصلون على الفور يجب أن يكونوا أذكى حتى.

إنَّ المتحمسين لموقع المصادر على الإنترنت ويكيبيديا قالوا من ضمن آخرين: إن المستقبل يكمن في هذا النوع من المعرفة الجمعية عوضًا عن الخبراء الذين ينضحون بالمراجع والمعلومات. نظريًا، فيما يخص موسوعة عامة ومفتوحة يمكن لأي أحد المشاركة فيها، فإن العدد المجرد لمن يراقبون كل البيانات يجب أن يستأصل الخطأ والتحيز. من هنا سوف تخاطب المقالات العقول المحبة للاستطلاع من البشر العاديين وليس المصالح الضيقة لهيئة من العلماء والمحررين، لن تكون البيانات في حالة من الدقة المستمرة والمتطورة فحسب، لكن ستشكل المقالات نفسها لزامًا مجموعة من أشياء تجعل القراء متفاعلين عوضًا عن الخلاصة الوافية للمعرفة المنهجية عديمة الفائدة والمحصورة على فئة محددة في الوقت ذاته.

للأسف لم تجري الأمور دائمًا على هذا المِنوال، وكانت

موسوعة ويكيبيديا درسًا مستفادًا عن حدود تنحية الخبرة المدفوعة بالإنترنت، لكن كما اتضح، فإن كتابة مقالات عن أي عدد من المواضيع المعقدة أصعب بكثير من تخمين حجم الثور. مع أن عددًا من أصحاب النية الحسنة أسهموا بوقتهم كمحررين في ويكيبيديا، وتقلد بعضهم مثلًا وظائف من شركات ومؤسسات علاقات عامة شهيرة لديها اهتمام واضح بالكيفية التي تبدو بها الأشياء في موسوعةٍ ما من أجل الجماهير. (إنَّ تسعة أشخاص من أصل عشرة مساهمين في ويكيبيديا رجال أيضًا، وهو ما يمكن أن يثير الشكوك بين القراء.. لوما عرف القراء هذا).

حتى مع أفضل النوايا، فإن المشروعات التي يكون مصدرها حشود الجماهير، مثل: ويكيبيديا، تعاني من تمييز مهم، وإن لم يلحظ عادة بين العوام والمحترفين: لا يفعل المتطوعون ما يحلو لهم في أي وقت، بينما يوظف المحترفون خبراتهم كل يوم.

إن الهواية ليست مرادفًا للمسيرة المهنية، أو حسب القول المأثور المنسوب للكاتب البريطاني أليستير كوك (Alastair Cooke): «إن المحترفين هم أشخاص باستطاعتهم بذل أفضل ما في وسعهم، وإن شعروا أنهم لا يحبون هذا». إذًا لا يعد حماس الهواة المهتمين بديلًا راسخًا عن حكم الخبراء.

إنَّ كل محاولات ويكيبيديا المبدئية وقعت فريسة لعدم الاتساق والافتقار إلى البصيرة، وهو بالضبط ما يمكن توقعه

من مشروع عمل منزلي جماعي، أحد الباحثين الذين درسوا تلك التوجهات اقترح أن موسوعة ويكيبيديا كان ينبغي أن تغير شعارها بعد العام 2007 من «موسوعة يمكن لأي شخص تحريرها» إلى «موسوعة يمكن أن يحررها أي شخص يفهم الأعراف ويستطيع الاندماج اجتماعيًا، ويتفادى جدار الرفض غير الشّخصي ونصف الآلي، ومازال يريد الإسهام طواعية بوقته وطاقته»[16].

في النهاية فرضت ويكيبيديا ضوابط تحريرية أكثر صرامة، لكن تلك الضوابط بدورها ثبطت المساهمين الجدد، أو كما ذكر مقال صدر في العام 2013 من مجلة إم آي تي تكنولوجي ريفيو العلمية، فإن حجم القوى المتطوعة التي أسست ويكيبيديا و«يجب أن يدافعوا عنه ضد التخريب والزيف والتلاعب» قد «تقلصت لأكثر من الثلث منذ العام 2007، ومازالت تتقلص». مازالت ويكيبيديا تكافح للحفاظ على جودة مقالاتها، حتى قياسًا بمعاييرها الخاصة:

> من بين المشاكل المهمة التي لمَّا تُسوَّ بعد هو التغطية الملتوية للموقع، فالبيانات المُدرَجة فيه عن البوكيمون ومشاهير الإباحية من الإناث شاملة، لكن صفحاتها عن الروائيات الإناث وأماكن في منطقة جنوب الصحراء الإفريقية سطحية، كما أن البيانات المدخلة ذات المصداقية تظل مضللة، فمن بين 1,000 مقال صنفها المتطوعون التابعون للمشروع على أنها تشكل جوهر الموسوعة الجيدة، معظمها لا يستحق حتى التصنيف متوسط الجودة حسب تقييم ويكيبيديا[17].

لا توجد في ويكيبيديا «مقالات مميزة» التي يجب أن «تُكتب بإتقان» و«تكون شاملة» و«بحث فيها جيدًا» بما يشمل «مسحًا دقيقًا ونموذجيًا للمؤلف العلمي ذي الصلة» مع ادعاءات مثبتة مقابل «مصادر يمكن الاعتماد عليها وعالية الجودة».

بعبارة أخرى: ما تريده ويكيبيديا بالفعل أن تخضع أفضل مقالاتها لما يشبه مراجعة الأقران الأكاديمية، لكن دون استخدام أقران فعليين. إن مراجعة الأقران وحش يصعب ترويضه حتى في أفضل الظروف، حيث يحاول المحررون تكليف الإشراف للأفضل في كل مجال وتجنب التنافس المعني وتضارب المصالح الأخرى. أما ترجمة تلك العملية إلى مشروع لملايين النَّاس مع أقل قدر من الإشراف، فكان هدفًا غير منطقي. لكي يفلح مشروع مثل ويكيبيديا، فيجب عمليًا أن يشارك كل خبير في الموضوع على مستوى العالم، وأن يكون لديه استعداد لمجالسة كل البيانات التي تكتب كمجالسة الأطفال.

بالطبع إذا قيست ويكيبيديا بحجم القراء الخاصين بها، فإنها على ما يُرام، وفي بعض المواضيع تعد ويكيبيديا مصدرًا مذللًا للمعلومات. أو كما ذكر مقال معهد ماساتشوستس للتقنية، فإن المقالات على ويكيبيديا يتلاعب بها «تجاه المواضيع التقنية والغربية التي يهيمن عليها الذكور»، لذلك عندما يتعلق الأمر بالمعلومات الملموسة -وأهم شيء غير الجدلية- فقد نجحت ويكيبيديا في جمع كثير من البيانات في صيغة موثوقة ومستقرة. (شخصيًا أحب أن ويكيبيديا تعد مصدرًا رائعًا لحبكة أي فيلم

تقريبًا، مهما كان صغيرًا أو غامضًا)، لو أردت معرفة من اكتشف الاسترونتيوم، ومن حضر المؤتمر البحري بواشنطن في العام 1925، أو أردت تفسيرًا سريعًا لجوائز نوبل عن العام المنصرم، فويكيبيديا أفضل كثيرًا من مجرد محرك بحث عشوائي.

ما إن يُتطرق إلى أي نوع من جداول الأعمال السياسية، تصبح الأمور أكثر خطورة. مثال ذلك: إن البيانات المدخلة في ويكيبيديا حول سلاح السارين الكيماوي صارت حلبة صراع مستترة بين من لديهم جداول أعمال هجومية على ما إن كانت الحكومة السورية استخدمت تلك المادة السامة ضد شعبها أو لا. بل حتى يتعرض العلم التجريبي للهجوم. في أواخر العام 2015 قال لي المحلل دان كاسزيتا المقيم في لندن الذي ذكرته في الفصل السابق وتعلم درسًا صعبًا عن محاولة مساعدة طلبة الكليات:

> لو أن شخصًا ما يعتمد على صفحة ويكيبيديا الحالية من أجل معلومات دقيقة حيال الاستخدامات الحربية لغاز السارين، فسيضلل بأنصاف الحقائق وتصريحات غامضة لا تدعمها المصادر، حتى إن بعض المعلومات على صفحة ويكي وإن كانت صحيحة تقنيًا من بعض المناحي، إلا أنها صيغت بطريقة مضللة، وبعض التصريحات زائفة.

أضاف كاسزيتا إنه «أمضى ساعات عدة بعد استخدام غاز السارين في العام 2013 في سوريا لتصحيح المفاهيم حول السارين، وكثير منها بلا شك معرض للخطأ وأنصاف الحقائق على صفحات ويكيبيديا ذات الصلة».

ما يغفل عنه النَّاس حيال ويكيبيديا والمصادر الأخرى على الإنترنت وحيال حكمة الحشود عمومًا أن المعرفة أكثر من مجرد تجميع صندوق من الحقائق أو التنبؤات الجزافية، فالحقائق لا تتحدث نيابة عن نفسها، إنَّ المصادر مثل ويكيبيديا تكون قيمة للبيانات الأساسية كنوع من التحديث الدائم للتقويم، لكنها لا تقدم كثيراً من المساعدة فيما يتعلق بالمواضيع الأكثر تعقيدًا.

يمكن للحشود أن تكون حكيمة، لكن ليس كل شيء طوعًا لتصويت الحشود. إن الإنترنت يصنع شعورًا زائفًا بأن آراء عديد من النَّاس تعادل «حقيقة». كيف ينتقل وباء من أحد البشر إلى آخر لا يعادل تخمين كم عدد الحلوى الهلامية في وعاء زجاجي. وكما اشتكى الفنان الهزلي جون أوليفر (John Oliver) أنت لستَ بحاجة إلى جمع الآراء حول حقيقة: «ربما يكون لديك استطلاع رأي يطرح سؤالًا: 'أي الأرقام أكبر 15 أم 5؟' أو 'هل البومة موجودة؟' أو 'هل توجد قبعات؟'».

وبالمثل، فإنَّ السياسة العامة ليست لعبة تنبؤات بين الضيوف؛ بل إنها تتعلق بالخيارات طويلة المدى المتأصلة في التفكير المُتأني بشأن التكاليف والبدائل. إذا طلب من الحشود أن يخمنوا أحداثًا محددة على المدى القصير، فإن مباريات إلقاء الأسهم العقلية لن تقدم كثيرًا من المساعدة عند محاولة الإبحار في مياه السياسة الهائجة. «هل سيستخدم بشار الأسد الأسلحة الكيماوية في مرحلةٍ ما في العام 2013؟».

رهان متعادل بين كفتين، مثل وضع شريحة على أحد الألوان في لعبة مقامرة الروليت. إنه سؤال بـ: نعم أو لا، وعند مرحلةٍ ما إما أن تفوز بالرهان أو تخسره. وليس هذا بنفس السّؤال القائل «لماذا» كان بشار الأسد يستخدم الأسلحة الكيماوية؟» كما يبتعد بسنوات ضوئية عن معضلة «ما الذي يجب على أمريكا فعله إذا استخدم بشار الأسلحة الكيماوية؟»

مع ذلك، فإن الإنترنت يمزج بين تلك الأسئلة الثلاثة، ويحول كل موضوع معقد إلى استطلاع رأي مع زر لمذياع يمكن الوصول إليه بضغطة واحدة الذي يعرض حلًّا سريعًا.

إنَّ السهولة التي يمكن للناس أن يرجحوا بها تلك المواضيع، بل أحيانًا الحصول على توقع حيالها حينما يكون من الوارد أن يُخطئ الخبراء، يضع طبقة أخرى كمصد مناهض للفكر ليزيد المقاومة بين العوام ضد الآراء الأكثر حصافة من آرائهم.

أنا ألغي صداقتي بك:

إن تعلم أشياء جديدة يتطلب صبرًا وقدرة على الإنصات للآخرين، مع ذلك، فإن الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي يجعلونا أقل اجتماعية وأكثر ميلًا للمواجهة. يتجمع النَّاس على الإنترنت كما الحال في الحياة الواقعية في غرف غرفة تأييد مغلقة صغيرة، مفضلين الحديث فقط مع من يتفقون معهم بالفعل، وهذا ما أطلق عليه الكاتب بيل بيشوب (Bill Bishop) «التصنيف الكبير» في كتاب صدر في العام 2008، حيث ذكر

أن الأمريكيين يختارون الآن العيش والعمل والاندماج اجتماعيًا مع أناس مثلهم كل يوم، وينسحب الأمر ذاته على الإنترنت.

إننا لا نرتبط بأناسٍ يشبهوننا، بل إننا نمزق أواصر علاقاتنا مع سائر النَّاس، خاصة على وسائل التواصل الاجتماعي. كشفت دراسة بحثية عن مركز بيو للأبحاث في العام 2014 أن الليبراليون أكثر عُرضة من المحافظين لحظر أو إلغاء الصداقة مع من يختلفون معهم، لكن ذلك في الأغلب؛ لأن المحافظين ليس لديهم بالفعل إلا قليل من المخالفين لهم في دائرتهم الاجتماعية على الإنترنت في المقام الأول. (أو حسب تعبير مراجعة واشنطن بوست عن الدراسة، المحافظون لديهم «درجات أدنى من التنوع العقائدي في نظامهم البيئي على الإنترنت»)[18]. كما أن الليبراليين كانوا أيضًا أكثر ميلًا نوعًا ما لإنهاء الصداقة بسبب السياسة في الحياة الحقيقية، لكن التوجه السائد الإجمالي يميل إلى التفرقة العنصرية على أساس الفكر العقائدي الناتج عن القدرة على إنهاء الصداقة بضغطة زر، وليست المناقشة وجهًا لوجه.

إنَّ عدم الاستعداد هذا للإنصات إلى الآخرين لا يجعلنا جميعًا أكثر تعاسة فحسب مع بعضنا في العموم، لكن يجعلنا أيضًا أقل قدرة على التفكير، وأن نجادل بطريقة مقنعة، وأن نتقبل التصحيح عندما نكون مخطئين. وعندما لا نكون قادرين على الحفاظ على نسق من التفكير القويم الذي يتعدى بضعة نقرات على فأرة الحاسوب، فلن يمكننا أن نتسامح حتى مع أقل التحديات التي تواجه معتقداتنا أو أفكارنا. وهذا أمر جلل؛

لأنه يقوض كلًا من دور المعرفة والخبرة في المجتمع المعاصر، ويختصم من القدرة الأساسية للناس على التوافق مع بعضهم بعضًا في نظام ديمقراطي.

ويكمن تحت أغلب هذه الأجواء السيئة إحساس زائف بالتساوي ووهم المساواة بين البشر الذي صنعته وسائل التواصل الاجتماعي المتاحة في التو واللحظة. لدي حساب على تويتر وصفحة على فيسبوك، وكذلك أنت، لذا نحن أقران، ألسنا كذلك؟ ففي نهاية المطاف لو أن مراسلًا مرموقًا في صحيفة كبرى وأحد الحاصلين على دبلوم في كلية كينيدي وعالم في مستشفى بحثي وخالتك روز من رينو، لديهم جميعًا حضور على الإنترنت، فإن آراءهم كافة مجرد رسائل عدة تمر أمام عينيك سريعًا. حيث يكون كل رأي بنفس جودة آخر منشور على الصفحة الرئيسة.

في عصر وسائل التواصل الاجتماعي يفترض من يستخدمون الإنترنت أن الجميع متساوون في الذكاء، أو إنهم على علم فقط لمجرد أنهم متصلون بالإنترنت، أو حسب تعبير الناقد السينمائي لصحيفة نيويورك تايمز أيه أو سكوت (A. O. Scott):

> الجميع نقاد على الإنترنت.. فنان في طرح النَّاس أرضًا مدفوعًا بالعواء، أو أكاديمي في أمازون، أو مشجعة محفزة بوسائل التواصل الاجتماعي لتعجب بشيءٍ وتشاركه. من هنا، فإن ذوي الكلمات الطنانة والمشككين دائمًا والملطخين بالحبر مثلي تساووا مع الجميع بالفوضوية الرقمية. من يحتاج

إلى شخص نكد ومعتوه عندما يكون أمامك خوارزميات وَدودة تخبرك بناءً على عمليات الشراء السابقة لك أنه يُوجد شيء ربما تحبه أيضًا وفيلق من أصدقائك على فيسبوك الذين يؤكدون حكمة اختيارك؟[19].

إن الحالة المجهولة على وسائل التواصل الاجتماعي تغوي المستخدمين للجدال وكأن كل مشارك على قدم المساواة مع الآخر، وكأنهم مجموعة من الأقران الذين بدأوا من نفس الخلفية والمستوى التعليمي.

إنها قاعدة قليل من النَّاس سوف يستخدمونها في الحياة الحقيقية، لكن على الإنترنت، فإن النرجسية الفكرية للمعلق العشوائي تحل محل الأعراف التي تحكم التفاعلات المعتادة وجهًا لوجه.

هذا المزيج الغريب من البُعد والتقارب يسمم النقاش، فالجدل المنطقي يحتم على المشاركين أن يكونوا أمناء، وتكون نيتهم حسنة، كما أن التقارب الفعلي يبني الثقة والتفاهم. إننا لسنا مجرد أدمغة في صهريج تعالج أجزاء البيانات المتفرقة؛ فعندما نستمع لشخص آخر نعتمد جزئيًا على إشارات بصرية وسمعية متعددة، وليس فقط مراقبة كلماتهم وهي تتدفق صوب أعيننا. وبناءً عليه يعرف المدرسون على وجه الخصوص أن نفس المواد التي تدرس من على بُعد، أو عبر الشاشة يكون تأثيرها مختلفًا عن التفاعل الشّخصي مع الطالب الذي يمكنه طرح أسئلة، أو يقطب جبينه، أو يبدي تعبيرًا عن الفهم المُفاجئ.

إنَّ المسافة والمجهول يزيل الصبر والافتراضات المُسبقة لحُسن النية، فالنقاش يقتل مع سرعة الوصول للمعلومات والقدرة على الحديث دون الاضطرار إلى الإنصات إذا ما اقترن هذا مع «شجاعة لوحة المفاتيح» التي تتيح للناس قول أشياء إلكترونيًا ما كانوا ليتفوهوا بها لبعضهم وجهًا لوجه، أو كما ذكر الكاتب آندرو سوليفان (Andrew Sullivan)، فيرجع هذا جزئيًا إلى أنه لا يوجد شيء حاسم على الإنترنت، ومن ثم، فإنَّ كل مشارك في الجدال يطالب بأن يأخذ على محمل الجد كسائر البقية.

> وما يؤجج هذا في الأساس هو بالتحديد ما كان يخشى منه الآباء المؤسسون حيال الثقافة الدّيمقراطية: المشاعر والعاطفة والنرجسية عوضًا عن: المنطق، والتجريبية، والروح العامة.
>
> صارت النقاشات العامة شخصية وعاطفية ومتعذر حلها تقريبًا بمجرد بدايتها، أجل، ما تزال بعض النقاط العقلانية متأرجحة، لكن يوجد عدد أقل بشدة من المحكمين للبرهنة على أن أي نقطة من تلك النقاط حقيقية أو صحيحة أو ذات صلة[20].

يمكن لمواقع تويتر وفيسبوك ورديت (Reddit) أن تكون منافذ للنقاش الذكي، لكن كثيرًا ما لا تمثل تلك المواقع هي وغيرها أي شيء سوى وابل من التأكيدات والتيقن والمعلومات المضللة والإهانات، وليست تبادلًا فعليًا للمعلومات.

بكل تأكيد سهل الإنترنت أيضًا المحادثات بين النَّاس الذين

ما كانوا ليلقوا بعضهم إلا عبر هذه الوسيلة، ولربما يجادل الانطوائيون أن معترك مثل ريدت أو قسم التعليقات في أحد المنتديات على الإنترنت تفتح الباب لمزيد من التفاعل من أناس ربما كانوا ليترددوا في عصور سابقة عن الانخراط في مناقشة علنية. للأسف فإن السماح لأي شخص بالتعبير عن رأيه يعني أن أي شخص تقريبًا سوف يُعبر عن وجهة نظر، ولهذا السبب، فإن الكثير من الإصدارات المنشورة من صحيفة تورونتو صن التابعة لموقع ذا ديلي بيست الإخباري أغلقت قسم التعليقات على مواقعها الإلكترونية.

كل هذا التفاعل لا يفعل إلا قليلًا ليحل ارتباط العوام بالمعلومات المضللة. في الواقع، ربما تكون المشكلة أسوأ مما نظن، فعندما يواجه بعض النَّاس دليلًا دامغًا على خطئهم، فإنهم ببساطة سيضاعفون رهانهم على تأكيدهم الأصلي عوضًا عن تقبل الخطأ. وهذا هو «تأثير النيران المعاكسة» الذي يضاعف فيه النَّاس مجهودهم لجعل سردهم الداخلي متسقًا، مهما كانت درجة وضوح المؤشرات على الخطأ .[21]

إن الإنترنت كما يشير ديفيد دانينج يزيد حدة تلك المشكلة بطرق عدة، أقلها أن تفنيد فكرة بَلهاء يتطلب تكرارها مرة واحدة على الأقل في سياق المناقشة، وهذا يُنشِئ حقل ألغام للمدرسين والخبراء الآخرين الذين يخاطرون بتأكيد خطأ بمجرد الإقرار بوجوده:

عندئذٍ بالطبع توجد مشكلة تفشي المعلومات المضللة في

أماكن يصعب التحكم فيها على العكس من أماكن الدراسة.. مثل: الإنترنت، ووسائل الإعلام الإخبارية. في تلك الأماكن الجامحة، من الأفضل عدم تكرار المعتقدات الخاطئة الشائعة على الإطلاق. فإخبار النَّاس أن باراك أوباما ليس مسلمًا لم يفلح في تغيير رأي عديد من النَّاس؛ لأنهم كثيرًا ما يتذكرون كل شيء قيل.. باستثناء كلمة: «لا»[22].

ربما يعتقد الخبراء الذين يحاولون مواجهة هذا النوع من الجهل المطبق إنهم يقدمون مساعدة، لكنهم في الحقيقة يحاولون أصلًا صب الماء على نار موقد، فهي لا تفلح وتزيد من التلف حولها فحسب.

إنَّ الإنترنت هو أكبر وسيلة مجهولة في تاريخ البشرية، فالقدرة على الجدال من على بُعد والإحساس الرخيص بالمساواة الذي يتبعه يجعل الثقة والاحترام تتآكل بيننا جميعًا، خبراء وعوام على سواء. عندما نجلس وحيدين أمام لوحة المفاتيح وتغمرنا: المواقع الإلكترونية، والنشرات الإخبارية، والمجموعات على الإنترنت المخصصة لتأكيد أي فكرة وكل فكرة، لاث ملايين الأمريكيين في وحل تحيزاتهم السياسية والفكرية بسبب الإنترنت.

إن وسائل التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك تضخم غرفة التأييد المغلقة تلك؛ كما كتبت ميجان مكاردل (Megan McArdle) في العام 2016: «حتى لو لم نحظر عمدًا المخالفين معنا، فإن فيسبوك ينتقي التحديثات على صفحاتنا

الرئيسة بحيث نتلقى مزيدًا من الأشياء التي 'تعجبنا.' وما الذي 'يعجبنا'؟ الأشخاص والمنشورات التي تتفق معنا»[23].

وهذا خطير على وجه الخصوص الآن، حيث إن وسائل التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر صارت المصادر الرئيسة للأخبار والمعلومات لكثير من الأمريكيين والخبراء الذين يحاولون اختراق تلك المصَادفة من العزلة السياسية والجهل المطمئن بذاته يفعلون هذا على مسؤوليتهم. من الصعب بمكان الجدال مع شخص فهم شيء ما خطأ، لكن من الأصعب محاولة التحدث بعقلانية مع شخص وهو يجمع مواقع إلكترونية جميلة الشكل «كأدلة» وفيالق من أصدقاء وسائل التواصل الاجتماعي مجهولي الهوية ومتشابهي التفكير مع آراء داعمة متساوية في افتقارها للمعلومات. في تلك الأثناء، إن الأكاديميين المحترفين الذين يصرون على المنطق والمعرفة التأسيسية والقواعد الأساسية حيال المصادر يخاطرون بالتعرض للإدانة من مستخدمي الإنترنت في القرن الحادي والعشرين بأنهم ليسوا إلا نخب لا يفهمون معجزة عصر المعلومات.

ربما تكون استطلاعات الرأي على المواقع الإلكترونية والإنترنت غير موثوقة، بيد أنه في استطاعة المراسلين البحث عن الحقيقة عوضًا عن الانجرار إلى تلك المعمعة. يمكن أن يؤدي الصحفيون دور المحكمين وسط كل تلك الفوضى، باستخدام الأدوات المتأنية للتقصي، وتحديد المصادر والتحقق من صحة المعلومات.

أو ربما لا يكونون كذلك، كما سنرى في الفصل التالي.

5

الصحافة الجديدة «الجديدة» وفيض منها

شارلي: «أمي، يثير اهتمامي أنك تشيرين إلى صحيفة **العالم الأسبوعية** باسم 'الصحيفة' تحتوي الصحيفة حقائق».

ماي: «تحتوي هذه الصحيفة حقائق، وتلك الصحيفة تحظى بالترتيب الثامن ضمن أعلى معدلات توزيع على مستوى العالم بأسره، أصحيح؟ كثير من الحقائق. (رجل حامل يلد طفلًا) تلك حقيقة».

فيلم: **وهكذا تزوجت سفاحة تُقتَل بفأس**

قرأت عن هذا في الصحيفة:

هل تعلم أنَّ الشكولاته يمكنها أن تساعد في إنقاص وزنك؟ بالطبع تعلم هذا، فقد قرأتها في صحيفة. في الواقع، ربما قرأت عن هذا في صحف عدة، والويل لأي خبير، بما في ذلك الطبيب الذي يحتمل بأن يخبرك عكس هذا. في النهاية، فإن إخفاء الصفات الإعجازية التي تنقص الوزن للشيء الأحلى

مذاقًا في العالم من نوع الأشياء التي يفضل الخبراء فعلها. لحسن الحظ، فإن العالم الألماني جونيس بوهانون (Johannes Bohannon) من معهد الحمية الغذائية والصحة كتب ورقة بحثية نشرت في إحدى الدوريات التي نالت تغطية إخبارية بسعادة من الصحف كافة على مستوى العالم، وقد أكد ما كنا نشك فيه جميعًا طوال الوقت: الشكولاته مفيدة جدًا لك.

إلا أن جونيس بوهانون غير موجود، وكذا لا وجود لمعهد الحمية الغذائية والصحة. والدورية التي نشرت الورقة البحثية حقيقية، لكن من الواضح أنها لا ترقى إلى مستوى التدقيق حيال أشياء مثل مراجعة الأقران والتحرير.

أما «جونيس» بوهانون، فكان في واقع الأمر صحفي يُدعى: «جون بوهانون» الذي كان (حسب تعبير بوهانون) «جزءًا من فريق الصحفيين المتحيزين وطبيبًا واحدًا»، أراد «أن يوضح مدى سهولة تحويل العلم السيئ إلى عناوين كبيرة تتصدر التوجهات السائدة للحميات الغذائية»[1].

وبناءً عليه، لن تجعلك الشكولاته أكثر رشاقة، لكن هل تعرف أنَّ الضفة الغربية وغزة، المناطق الفلسطينية المحتلة على جانبي إسرائيل، متصلتان بجسر الذي أحيانًا ما تقصر إسرائيل بخبث عبور الفلسطينيين من خلاله؟ ربما قرأت عن هذا في «الأخبار» أيضًا.

في العام 2014 نشرت دورية وكس -التي تعلن عن نفسها بصفتها مصدرًا يشرح المشاكل المعقدة للجميع- قائمة «بإحدى

عشرة حقيقة مهمة لفهم الأزمة بين إسرائيل وغزة»، وتضمنت الحقيقة رقم واحد الجسر بين قطاع غزة والضفة الغربية.

وهو غير موجود.

صححت وكس خطأها -ادعى الكاتب أنه قرأ مقالًا عن الجسر المقترح، لكنه لم يدرك بأنه لم يشيد قط- لكن ليس قبل أن يضحك النقاد من أعماق قلوبهم، وذلك على حساب وكس. وكما ذكرت الكاتبة مولي هيمينجواي (Mollie Hemingway):

لا يمكن لأي صحفي أن يتجنب الخطأ العرضي، وقليل منهم يمكن أن يكونوا خبراء في أي موضوع، لكن «الجسر لغزة» لم يكن «يتعلق بسماع الاسم خطأ أو عدم المعرفة بالتفاصيل المبهمة»، بل تطلبت أن تكون «على غير دراية تمامًا بالمنطقة»[2]. وتمامًا كما هو الحال مع التصحيحات كافة، بإمكان المرء أن يتساءل فقط عن عدد النَّاس الذين يمكنهم تذكر القصة وليس التصحيح.

عادة ما تتعرض وكس لتلك الانتقادات، وذلك لسبب وجيه، ففي أوائل العام 2016 تصدر عنوان رئيس في وكس يقول: «إن أكثر الأشياء المتطرفة التي ارتكبها حزب الفهود السود أن أعطى الأطفال إفطارًا مجانيًا».

إن حزب الفهود هذا جماعة أصولية تشكلت أواخر ستينيات القرن العشرين التي جمعت بين قومية السود والماركسية اللينينية، والتي شاركت في عدد من حالات العنف والقتل، بما فيها تبادل إطلاق النار مع الشرطة، ولم تكن بالضبط

كالجماعات التي تؤدي أعمالًا خيرية كمراكز عناية اليوم الواحد، وقد شجع مقال وكس كاتب العمود في موقع ذا ديلي بيست مايكل موينيهان (Michael Moynihan) لأنه غرد: «هل تذكر حينما كان ينبغي على الكُتّاب 'الشارحون' أن يعرفوا شيئًا حيال ما كانوا يشرحونه؟ لا أذكر أنا الآخر».

إذًا، ليست معجزة تنقص من الوزن، ولا يوجد جسر بين غزة والضفة الغربية، ويجوز أن حزب الفهود أكثر قسوة عما نتذكره، لكن ربما لم تكن على دراية بالمعنى الحقيقي لعيد الفصح للمسيحيين الذي يحتفل ببعث السيد المسيح إلى السماء مباشرة، هذا ما قالته صحيفة نيويورك تايمز في العام 2013. معروف لدينا أن الأناجيل أشارت بطريقة أو بأخرى إلى أن المسيح جال في الأرجاء قليلًا أولًا، وهي على الأرجح الرواية التي يرجع إليها قساوسة الأسقفيات والرهبان كل ربيع. ربما يكون رجال الدين المسيحيون هؤلاء أذكياء، بل ربما توجد حتى بعض الدرجات اللاهوتية الموزعة بينهم، لكن من هم لكي يجادلوا مع صحيفة نيويورك تايمز؟

يوجد أكثر من مليار مسيحي في العالم، والمدهش بما فيه الكفاية أن بعضًا منهم رصدوا الخطأ، وبتكتم لا يتوافق وحجم الخطأ على مدار تاريخ الصحافة صححت نيويورك تايمز من الخطأ: «في إصدار سابق من هذا المقال وصفت خطأ إجازة عيد الفصح المسيحية، إنها احتفال ببعث المسيح من الموت، وليس بعثه إلى السماء»[3]. وهذه عبارة أدق للإصدار الرسمي، لكن أن تخطئ في المقام الأول يعني أن شخصًا ما في صحيفة

نيويورك تايمز ليس لديه فكرة عن قصة «توما المشكك»، أو الإشارات الثقافية العامة الأخرى المشتقة من لحظات في العهد الجديد ظهر فيها المسيح بشخصه، عوضًا عن استقلال المصعد مباشرة إلى الدور العلوي في عيد الفصح.

لو أن مواصلة قراءة تلك المعلومات المضللة ينهكك، بإمكانك دائمًا أن تنسحب لقراءة بعض الأدب الرفيع، وربما تقرأ إحدى الروايات العظيمة لإيفلين ووه (Evelyn Waugh). ففي نهاية المطاف أدرجت مجلة تايم إيفلين ووه في العام 2016 كأحد «أعظم مائة كاتبة على مر العصور»، لذلك ربما تستحق أعمالها أن تلقي نظرة عليها.

إلا أن إيفلين ووه (الذي عاش حتى العام 1966) كان بالطبع رجلًا.

هذا النوع من الغلطات البلهاء ليس نتاجًا لعصر الإنترنت فحسب، ففي قصة تصدرت الصفحة الأولى بواشنطن بوست منذ أكثر من ثلاثين عامًا مثلًا، أشير إلى أن إيرلندا عضو في حلف شمال الأطلسي، وهو ما كان سيشكل صدمة ليس فقط لشعب إيرلندا الشهير بحياديته، لكن أيضًا للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. مما لا شك فيه أن الجميع يرتكبون أخطاء، بما في ذلك الخبراء والصحفيون والمحررون والمتحققون من صحة المعلومات، فهذه الأشياء وارد حدوثها.

مع ذلك للأسف، فإن هذا النوع من الأخطاء يُرتكب كثيرًا جدًا في العالم الجديد لصحافة القرن الحادي والعشرين، لكن

الأسوأ من ذلك أنه بسبب الإنترنت انتشر التضليل أسرع بكثير، وصارت تعلق بالأذهان مدة أطول، وفي عالم المعلومات المستمرة التي تصل بسرعات فائقة ومتاحة على مدار الساعة يوميًا، صارت الصحافة الآن شيئًا يسهم في موت الخبرة بنفس قدر دفاعها عنها.

أعرف أنه قد يبدو من الفظاظة الاشتكاء من مأدبة الأخبار والمعلومات تلك التي جلبها إلينا عصر المعلومات، لكني سأشتكي على أي حال. إن التغييرات في الصحافة مثل زيادة القدرة على الوصول إلى الإنترنت وإلى التعليم الجامعي صار لها تأثيرات مضرة غير متوقعة تنحل العلاقة بين العوام والخبراء. وعوضًا عن توعية النَّاس أفضل من ذي قبل، فإن كثيرًا مما يمرر على أنه أخبار في القرن الحادي والعشرين عاد ما يجعل العوام -وأحيانًا الخبراء- أكثر ارتباكًا وعنادًا.

يواجه الخبراء تحديًا صعبًا: إن كمية الأخبار المتاحة أكثر، ومع ذلك يبدو أنَّ النَّاس أقل دراية، وهو توجه سائد يرجع لأكثر من ربع قرن على الأقل، وللمفارقة، فإنها مشكلة تسوء ولا تنقشع، فلم تقل معرفة النَّاس عن العالم من حولهم فحسب، بل صاروا أقل اهتمامًا به، على الرغم من أن مزيدًا من المعلومات متاحة أكثر من ذي قبل.

على سبيل المثال: منذ زمن بعيد في العام 1990، حذرت دراسة أجرتها منظمة بيو تراست أنَّ الانعزال عن الأسئلة العامة المهمة يزداد سوءًا بالفعل بين الأقل من ثلاثين عامًا، وهي الشريحة التي ينبغي أن تكون أثر تلقي لمصادر المعلومات التي

بدأت في الظهور آنذاك، مثل: القنوات الفضائية السلكية، والوسائط الإلكترونية. كان هذا تغييرًا فارقًا في الثقافة المدنية الأمريكية، كما ذكرت دراسة بيو:

> على مر الجزء الأكبر من العقود الخمسة المنصرمة كان الشباب على نفس درجة دراية المسنين على أقل تقدير.
>
> أما العام 1990، فلم يعد الحال كذلك... فمن هم أقل من 30 عامًا الآن يعرفون أقل مما عرفه الشباب ذات يوم، وهم أقل اهتمامًا بما يحدث في العالم الأكبر من حولهم، وقد أدرك علماء الاجتماع ومستطلعو الآراء منذ أمد بعيد أن الشباب عادة ما يكونون نوعًا ما أقل تناغمًا مع السياسة والمواضيع الجادة، لكن الاختلاف ازداد حدة بدرجة مهولة[4].

أما المجيبون على هذه الاستطلاعات، فقد صاروا هم أنفسهم في منتصف أعمارهم، ولم يعد أطفالهم أفضل حالًا بدرجة كبيرة، فقد كشفت دراسة في جامعة شيكاغو في العام 2011 أن خريجي الكليات الأمريكية «فشلوا في تحقيق مكاسب مهولة في التفكير النقدي والتفكير المنطقي المعقد خلال سنوات دراستهم الأربعة في الكليات»، لكن ما يثير القلق أكثر أنهم «فشلوا أيضًا في تنمية الترتيبات المرتبطة بالتفاعل الاجتماعي»[5].

هؤلاء الشباب مثل آبائهم لم يكونوا أقل دراية فحسب عما نعتقده، لكنهم أيضًا أقل اهتمامًا بتطبيق القليل الذي تعلموه فيما يخص مسؤولياتهم كمواطنين.

لذلك عندما يُبادر أحد العوام برد سريع لاذع على خبير

بعبارة من قبيل: «قرأت هذا في صحيفة»، أو «شاهدت هذا في الأخبار»، فربما لا يعني هذا الكثير.

في الواقع، ربما لا تكون المعلومة صادرة من «الأخبار» أو «الصحيفة» على الإطلاق، لكن من شيء يبدو كمصدر إخباري. والأرجح كثيرًا أنَّ مثل هذه الإجابة تعني «رأيت شيئًا من مصدر صادف أن أحببته وأخبرني شيئًا أود سماعه». عند تلك النقطة يجب أن تسير المناقشة في اتجاهٍ ما؛ فيغمد الموضوع الأصلي، أو يضيع سعيًا لفك التشابك لمعرفة أي جزء من المعلومات المضللة كان يدفع مسار المحادثة في المقام الأول.

كيف حدث هذا؟ كيف صار النَّاس أكثر مقاومة للحقائق والمعرفة في العالم الذي ينهال عليهم فيه وابل دائم من الحقائق والمعرفة؟ الإجابة المختصرة التي تعني الصحافة -في شرح يمكن تطبيقه على عدد من الابتكارات العصرية- أن التكنولوجيا تتصادم مع الرأسمالية وتعطي النَّاس ما يريدونه، حتى وإن لم يكن في صالحهم.

أدرك أن انتقاد الصحافة ووسائل الإعلام الإخبارية يضعني على المحك لانتهاك التوجيه الرئيسي للخبراء: لا تقل لخبراء آخرين أبدًا كيف يؤدون وظائفهم. ومع أني لست خبيرًا في الصحافة، فإنني أستهلك منتجاتها، وأعتمد على الأخبار كجزء من مهنتي، كأستاذ جامعي ومحلل سياسي، ويجب أن أتخطى العواقب التي تواجه كل خبير في شرح أحداث وأفكار معقدة للعوام كل يوم، من بعض المناحي صارت مهنتي -مساعدة

النَّاس في فهم العالم المُعقد- أصعب بسبب وسائل الإعلام المعاصرة عما كانت عليه منذ عشرين عامًا حتى.

الكثير جدًّا من شيء حسن كثير جدًّا:

إنَّ التحديات التي تواجه الخبراء والمعرفة الراسخة التي تصنعها الصحافة المعاصرة تنبع جميعها من نفس المشكلة التي تؤثر كثيرًا في الحياة الأمريكية المعاصرة: ثمة كثير جدًّا من كل شيء.

توجد مزيد من المصادر الإخبارية في القرن الحادي والعشرين أكثر من أي وقت مضى، وبفضل: المذياع، والتلفاز، والإنترنت، صار بإمكان النَّاس الوصول إلى تلك المصادر بسهولة ومشاركتها إلكترونيًا؛ بفضل التعليم الجامعي، يمكنهم قراءتها ومناقشتها على نطاق أوسع من العصور السالفة، إنها وليمة من المعلومات التي تقدم مع شتى أنواع الزينات في أي عدد من الأطباق الكبيرة، لماذا يظل النَّاس إذًا متمسكين بجهل مطبق وعدم اطلاع، ورفض للأخبار إلى جانب رأي الخبير ومشورته، حتى عندما تقدم لهم بلا أي جهد تقريبًا؟ لأنه يوجد الكثير جدًّا ومنها، ويخلط بينها كثيرًا وبين التسلية.

أما اليوم، فأي أشخاص لديهم كهرباء تحيط بهم الأخبار من كل حدبٍ وصوب أينما أرادوا ذلك، ومعظم الأخبار والمحطات التليفزيونية المحلية في أمريكا تكون متاحة على

الفور بصيغة إلكترونية وتحدث بانتظام. أيضًا بإمكان المستهلكين الذين لديهم قنوات فضائية أو قنوات سلكية -أي: إننا نتحدث هنا تقريبًا عن النَّاس كافة في الدول المتقدمة- أن يختاروا من بين عشرات النشرات الإخبارية من أنحاء الكوكب كافة. أما اليوم، فثمة مصدر إخباري للأذواق والآراء السياسية كافة، بحيث يبقى الخط الفاصل بين الصحافة والتسلية مُبهمًا عن عمد لزيادة التصنيفات والنقرات.

ولوضع هذا في نصابه، كانت توجد في المنزل الأمريكي المتوسط في العام 1960 ثلاثة محطات تلفزيونية إلى جانب: ثمان محطات إذاعية، وصحيفة واحدة، وثلاث أو أربع مجلات[6]. وبحلول العام 2014 قدرت منظمة نيلسن للتصنيفات أن المنزل الأمريكي المتوسط فيه 189 قناة تلفزيونية (أكثر بستين قناة مما كانت عليه في العام 2008)، حيث يقتصر الاستهلاك على قرابة 17 من تلك القنوات. أضف إلى هذا مقدار وسائل الإعلام التي تقدم للمستهلكين من خلال أجهزتهم المحمولة وحواسيبهم المنزلية التي قُدرت من أحد الباحثين في مركز الحاسوب الفائق بسان دييغو في العام 2015 أنها تساوي حجم بيانات بسعة تسعة أقراص من الفيديو الرقمي لكل شخص يوميًا. وهذا القدر الكبير من المعلومات يتطلب أكثر من خمس عشرة ساعة يوميًا لرؤيتها أو سماعها[7].

لكن المزيد من كل شيء لا يعني مزيدًا من الجودة في كل شيء. (لا مفر من قانون ستورجيون في كل مكان). إن القول: بأن مواطني الولايات المتحدة لديهم الآن مزيد من المصادر

الإخبارية أكثر من ذي قبل مثل القول بأن لديهم مزيدًا من خيارات العشاء أكثر من ذي قبل: هذا حقيقي، لكن لا يعني هذا أن أي شخص يصبح أكثر صحة بتناول الطعام في سلاسل المطاعم الرخيصة ومنافذ الوجبات السريعة البالغ عددها ثلاثمائة ألف تقريبًا.

وبفضل ترف المعيشة والتطور التقني انخفضت الحواجز أمام الصحافة وصناعة المؤسسات الصحفية أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، مع نتائج متوقعة.

إن مزيدًا من وسائل الإعلام يعني مزيدًا من التنافس؛ ومزيد من التنافس يعني تفتيت الجمهور إلى جماعات سكانية وسياسية صغيرة يمكن تحديدها؛ ومعنى مزيد من الفرص في مزيد من المنافذ تعني مزيدًا من العاملين في الصحافة، بصرف النظر عما إذا كانوا قادرين على المنافسة لتغطية المواضيع المهمة. كل هذا التنافس كان تحت أمر المستهلك الأمريكي الذي أراد كل شيء: أبسط، وأسرع، وأجمل، وأمتع.

منذ أربعين عامًا مضت كانت وسائل الإعلام تتعامل بضمير أكثر حيال فصل «الأخبار» عن كل شيء آخر، لكن كان هذا يعني أيضًا أن «الأخبار» لم تكن في واقع الأمر صورة شاملة في نظرتها على العالم، بل عوضًا عن هذا كانت تيارًا من المعلومات المُنتقاة والمُحررة بعناية. كما أنَّ عدد الشبكات الصغير ومنافذ الأخبار ومقدار الوقت الصغير نسبيًا والمخصص للأخبار على التلفاز كان يعني أن العامة يرون العالم كما يعرض من الشركات التي تديرها تلك الشبكات، وجب على

المؤسسات الإخبارية أن تحاول تغطية الجمهور الأعرض والأكثر قابلية للتسويق، وبناءً عليه كانت النشرات الإخبارية في الولايات المتحدة خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي متساوية إلى حد كبير، مع رموز رزينة وذات مصداقية، مثل: والتر كروناكيت (Walter Cronkite) وهاري ريسونر (Harry Reasoner) وهما يذيعان أقسى الأحداث إخبارية بثقة في النفس وانفصال عاطفي.

مع ذلك، يعني هذا أيضًا أنه لا يمكن عد كل شيء خبرًا، إذ كان التحكم من الشركات والنخبة على الأخبار يفوق الوضع الحالي في تسعينيات القرن الماضي.. ولم يكن هذا بالشيء السيئ تمامًا. فعندما تصبح أمام كل شبكة ثلاثون دقيقة فحسب توجز فيها أحداث اليوم، كانت معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية مع الاتحاد السوفييتي تحظى على الأرجح بتغطية أكبر مما يحظى به طلاق المشاهير. نادرًا ما تقطع الشبكات بثها بأخبار باستثناء «التقارير الخاصة» التي تتضمن أحداثًا مريعة، والتي كانت تتعلق عادة بكوارث رئيسة من نوعٍ ما.

لو أنَّ شيئًا مهمًا حدث في العالم، كان يتعين على الجميع في أمريكا انتظار الفتى الذي يوزع الجرائد -وهو منصب جليل تقلدته في طفولتي أوائل السبعينيات- أو نشراتهم الإخبارية المسائية.

لم تعد توجد مزيد من الأخبار فحسب، بل أيضًا مزيد من التفاعل مع الأخبار، لم يعد الأمريكيون يقرأون أيًا كان ما يلائم عددًا محددًا من أعمدة الصحف، أو يجلسون بسلبية أمام

التلفاز، ويتلقون خلاصة الأحداث. بل يطرح عليهم دائمًا أسئلة عما يعتقدونه حيال المعلومات التي لقنوها، في التو واللحظة غالبًا. إن موقعي تويتر وفيسبوك هما من المؤشرات الإخبارية الجديدة، وهي تيار من المعلومات المتدفقة من الحشود التي تنشر الأخبار، وتبث الشائعات بنفس القوة. عادة ما تسأل البرامج الحوارية والنشرات الإخبارية -التي يصعب تمييزها يومًا بعد يوم عن بعضها بعضًا- المشاهدين أن يرجحوا بين الآراء عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو على الاقتراع الفوري على موقع الإلكتروني، مع الافتراض الواضح بأن الجمهور يشاهد الأخبار بـ: هواتف ذكية، أو أجهزة لوحية، أو حواسيب محمولة جوارهم.

التفاعل أيضًا يحرك اختيار القصص ما يمكن أن يجعل المرء يحنُّ إلى أيام التحكم التحريري من الشركات، عندما استأجرت صحيفة دالاس مورنينج نيوز محررًا جديدًا في العام 2015، تواصلت مع مايك ويلسون (Mike Wilson) وهو صحفي من الموقع الإخباري الإلكتروني فايف ثيرتي إيت، والمتخصص في القصص «المدفوعة بالبيانات» وليس الأخبار العاجلة. قال ويلسون في مقابلة بعد تعيينه: «أعتقد أن ما نحتاج إلى استبعاده هو بعض الأفكار القديمة مما يحتاجه القراء».

> إننا بحاجة أن نصبح أكثر استجابة لما يريده الجمهور فحسب.
>
> أعتقد أن الأعراف المتبعة في الصحف هي أن نضع جدول أعمال ونخبر قراءنا ما نعتقد أنه تنبغي عليهم معرفته،

أعتقد أنه ينبغي علينا النزول من هذا البرج العاجي قليلًا، ونسأل النَّاس ونشركهم في المناقشات أكثر بعض الشيء[8].

وعلى هذا اتفقت كبريات الصحف: «كيف يمكنك القول بأنك غير مهتم بما يعتقده زبائنك؟» هذا ما قاله آلان موراي (Alan Murray) في العام 2015 الذي يشرف على الموقع الإخباري على الإنترنت لصحيفة وول ستريت جورنال: «إننا نهتم كثيرًا بما يعتقده القراء، لكن ينصب اهتمام القراء أيضًا على حكمنا التحريري، لذلك نحاول دائمًا الموازنة بين الاثنين»[9].

يقسم الصحفيون ومحرروهم بأغلظ الأيمان أنهم لا يسمحون للعامة بتوجيه اختياراتهم وتغطياتهم للقصص الإخبارية، لكن يصعب تصديق هذا. حاول تقرير لنيويورك تايمز في العام 2010 أن يضع عليه أفضل وجه بعد وصف كيف تتابع واشنطن بوست وصحف أخرى عن كثب الحركة على موقعها الإلكتروني: «بخلاف الحكم الإخباري الفاسد الذي يجعل المحررين يعملون كقوادين لاسترضاء ميول القارئ الأساسي، يبدو أن توافر هذا التقدم التقني إلى الآن يؤدي إلى مزيد من القرارات الجراحية حيال الكيفية التي نغطي بها موضوعًا محددًا، بحيث يصبح مرضيًا أكثر لجمهور الإنترنت»[10].

ذكر في القصة الإخبارية بفخر أن قراء واشنطن بوست كانوا أقل اهتمامًا بالانتخابات البريطانية في العام 2010 مقارنة باهتمامهم بالكروكس (هوس جديد بنوع من النعال القبيحة)، لكن هذا لم يجعل واشنطن بوست تغير تغطيتها، ربما يكون

لهذا وقع حسن على الآذان، لكن من غير المريح قطع هذا العهد من الأساس.

عندما تحكم من إدراك العامة على المواضيع الأساسية، فإن ما يحتاج إليه القراء ليس مزيد من المعلومات التي تُضاف إلى القصص، لكن المعلومات الأساسية بما فيها الخريطة العرضية المكتوب عليها مؤشر: «أنت هنا».

ومن الصعب تخيل منفذ إعلامي في سوق أقل تنافسية وأقل ازدحامًا يسأل قراءه ما يريدونه بنفس الطّريقة، لكن في سوق يعج بالمعلومات يصبح الأمر مسألة وقت قبل أن تتبدل الأدوار، ويسأل الصحفيون القراء عما يحبون قراءته عوضًا عن توعيتهم بالأشياء التي ينبغي عليهم معرفتها.

إنَّ هذا الدمج بين الأخبار المسلية والثقافة ومشاركة المواطنين في فوضى لا تعلم النَّاس كثيرًا وهي تصنع وهم المعرفة، تمامًا كما أنَّ النقر على صفحات الإنترنت التي لا حصر لها يجعل النَّاس يعتقدون أنهم يتعلمون أشياء جديدة، ومشاهدة ساعات لا حصر لها من القنوات التلفزيونية والتنقل بين مئات العناوين الرئيسة هو نتاج للعوام الذين يعتقدون - خطأ- بأنهم يفهمون الأخبار. والأسوأ من ذلك، فإن تفاعلاتهم اليومية مع كثير من وسائل الإعلام يجعلهم يقاومون تعلم أي شيء إضافي يتطلب وقتًا طويلًا أو ليس مسليًا بما فيه الكفاية.

هذا الحمل الزائد من المعلومات لا يجتاح العوام فحسب. الحقيقة أن الجميع غارق في البيانات بما في ذلك المحترفون

الذين يولون كثيرًا من الاهتمام إلى الأخبار، والذين يحاولون أن يكونوا مستهلكين مميزين. في العام 2015 نشرت ناشونال جورنال استطلاعًا للرأي، وأطلقت عليه «مسؤولو واشنطن» الذي تألف في معظمه من العاملين في الكونغرس وتنفيذيين في الحكومة الفيدرالية ومحترفين من العلاقات العامة في القطاع الخاص، وطرح عليهم سؤالًا عن الكيفية التي يستقون بها أخبارهم. وفق الدراسة، صار من الأسهل على هؤلاء «المخبرين» الآن الحصول على المعلومات، «لكن أصعب عليهم من ذي قبل أن يستفيدوا منها كلها». صار المحترفون في واشطن كما هو حال الجميع «مشلولين نوعًا ما» بسبب «تخمة» الأخبار التي أصابتهم «بانعدام الثقة في المصادر والمعلومات الفردية»[11].

لو لم يستطع صناع السياسة والعاملون المحترفون في واشنطن أن يستفيدوا من الأخبار، فكيف يمكن لأي شخص آخر الاستفادة منها؟ من لديه الوقت الكافي ليفندها جميعها؟ بل إن دراسة ناشونال جورنال أشارت حتى إلى ضغط الوقت هذا عندما أدرجت ملاحظة بأن الدراسة نفسها يجب أن تستغرق خمسًا وأربعين دقيقة لقراءتها كاملة، لكن عشرين دقيقة فقط لتصفحها سريعًا. المفارقة واضحة ومزعجة في الوقت ذاته.

هذا التدفق اللانهائي من الأخبار والنشرات الإخبارية المتفاعلة والمفصلة تسبق فعليًا الإنترنت والقنوات السلكية، بل تسبق حتى التلفاز. المذياع هو بداية كل هذا؛ والأدق أن المذياع هو المكان الذي غمر النَّاس فيه أنفسهم لأول مرة

بأخبار ولقاءات لا حصر لها، في وسيلة إعلامية كان يفترض أن التلفاز قضى عليها في ستينيات القرن العشرين، لكنها وجدت حياة جديدة في نهاية القرن العشرين.

المذياع قضى على نجم الفيديو:

في حين أنَّ الكثير من المحترفين والخبراء يفضلون إلقاء اللوم على الإنترنت أنه سبب انتشار للعارفين بكل شيء المرتقبين الذين يلقون عليهم محاضرات في مكاتبهم، يُرجِع آخرون السبب إلى دورة أخبار الأربع وعشرين ساعة بأنها المتهم الآخر، ما يغرق النَّاس بقصص وحقائق أسرع مما في وسعهم تشربها. وكما هو الحال بالاتهامات الموجهة ضد الإنترنت، ثمة سبب وجيه لهذه الشكاوى. يشاهد الأمريكيون الأخبار الآن كأنهم في غرفة اتخاذ القرار بالبيت الأبيض، فيتوقفون عند كل معلومة صغيرة وكأنهم سيتخذون قرار شن الحرب. (بل إن شبكة CNN تتماشى مع هذا الغرور، وتطلق على نشرتها الإخبارية بعد الظهيرة «غرفة اتخاذ القرار»).

إلا أن هذا لا يشرح السبب الذي يجعل الأمريكيين يعتقدون في نهاية المطاف أنهم أفضل معرفة من الخبراء فيما يخص المواضيع التي لا حصر لها، والتي تنهال على شاشاتهم. ولهذا السبب ينبغي أن نلقي نظرة فاحصة أكثر على كيفية تطور علاقة العامة مع الإعلام بعد حقبة السبعينيات في القرن الماضي. عقد فضيحة واترجيت و«التضخم المصحوب بركود اقتصادي»،

والهزيمة في فيتنام التي لم تكن علامة فارقة ليس فقط؛ لأننا كنا على عتبة إضافة وسائل تقنية جديدة، مثل: القنوات السلكية، لكن أيضًا لأن تلك التطورات تصادف تسارع انهيار الثقة في الحكومة والمؤسسات الأخرى في الحياة الأمريكية. إن نمو أنواع وسائل الإعلام الجديدة وتدهور الثقة يتعلق كلاهما كثيرًا بموت الخبرة.

كان يفترض أن يكون التلفاز في خمسينيات القرن العشرين بديلًا عن المذياع لمعظم أنواع البرامج. مع ذلك هيمن البث الإذاعي أيه إم على الموسيقى والرياضة، مع الوصول إلى قطاع عريض من الجمهور وصوت خفيض يصل إلى أذن واحدة، لكن جودة الصوت الرديئة تلك لم تستطع التنافس مع المشكلة الواضحة أن البشر، ذوي الأذنين، يفضلون الإنصات إلى كل شيء بنظام صوتي مجسم. أما البث الإذاعي إف إم، فقد كان نظامًا صوتيًا أفضل -كما وعدت فرقة ستيلي دان في أغنية رائجة تُدعى «إف إم» لم توجد «أي مشوشات على الإطلاق»- لكن تطلب الأمر الانتظار حتى العام 1978 حتى يصل بث إف إم إلى مزيد من المستمعين أكثر من أيه إم. في حوالي ذلك، فإن التلفاز مع قدرته على إضافة العناصر المرئية لتقاريره، فقد استحوذ على الأخبار والعناصر الرئيسة الأخرى للحياة الأمريكية التي كانت متاحة ذات يوم في الأساس على المذياع.

مع ذلك، لم يُتوفَّ المذياع، فالنطاق الإذاعي أيه إم على وجه الخصوص قدم شيئًا لم يكن في وسع التلفاز تقديمه: صيغة تفاعلية التي لا تُعاق نسبيًا بحدود وقت البث ويرخص

إنتاجها، كانت الفكرة وراء المذياع الحواري بسيطة: إعطاء الضيف ميكروفون والضغط على زر، وتلقي مكالمات ممن أرادوا الحديث عن الأخبار والتعبير عن آرائهم. ومع انجذاب أشكال أخرى من التسلية إلى التلفاز أو بث إف إم الأفضل صوتًا، كان الخيار الواضح للمحطات التي تبحث عن برامج يمكن تحمل تكلفتها.

للمذياع الحواري عواقب سياسية مهولة، وقد شكلت أسس الهجمات على المعرفة الراسخة التي ازدهرت لاحقًا على وسائل التواصل الاجتماعي. لم يفعل أي أحد أكثر مما فعله المذيع راش ليمبو (Rush Limbaugh) ليرجع المذياع الحواري إلى سابق عهده، وهو الذي صنع بديلًا آخر ثمانينيات القرن العشرين لعام البرامج التثقيفية صباح يوم الأحد الذي كان يخطو خطوات بطيئة في حينها. مع ذلك لم يكن ليمبو الأول: كانت البرامج الحوارية على المذياع متناثرة في أنحاء الولايات المتحدة منذ خمسينيات القرن العشرين على الأقل التي كانت تتمثل عادة في البرامج المسائية آخر الليل. إلا أن ليمبو فعل شيئًا فريدًا عندما جعل نفسه مصدرًا للحقيقة في مقابل باقي وسائل الإعلام الأمريكية.

فخلال بضع سنوات من بثه الإذاعي الأول، صار لليمبو جمهور في أكثر من ستمائة محطة على مستوى البلاد. أخبر هو مستمعيه أن الصحافة وشبكات التلفاز الوطني كانت تتآمر في غرفة تأييد ليبرالية مغلقة، خاصة أنهم كانوا يؤيدون بشدة إدارة الرئيس بيل كلينتون (Bill Clinton) الجديدة. لم تكن كل تلك

التهم منصفة تمامًا، لكن ليست جميعها خاطئة أيضًا، وتمكن ليمبو من التنقيب يوميًا عن أمثلة لأخطاء وسائل الإعلام الراسخة -وهي كثيرة- وأن يجاريها. مع ثلاث ساعات ثابتة لوقت البث المباشر الذي لا ينقطع، كانت لليمبو ميزة ما كانت لتتوافر قبل وقت التلفاز إلى أن ظهرت القنوات السلكية.

كما أسس ليمبو ومتحدثون آخرون قاعدة وطنية مخلصة من الأتباع عندما سمح لهم بالاتصال والتعبير عن دعمهم. كانت المكالمات تُراجَع وتُدقَّق وفق مدير أحد مساعدي ليمبو الأوائل؛ وهذا لأن ليمبو لم يشعر بأنه لم يكن ماهرًا جدًّا في الجدال. إلا أن الجدال لم يكن هو المقصد: بل كان الهدف صناعة إحساس بوجود مجتمع ما بين النَّاس الذين كانوا يميلون بالفعل للاتفاق مع بعضهم. ولاحقًا، سوف يستحوذ الإنترنت على هذا النوع من الشبكات التي تُبنى بين النَّاس الذين يرفضون وسائل الإعلام السائدة، لكن بدأت هذه الظاهرة على المذياع.

اكتشفت شبكات التلفاز ووسائل الإعلام المطبوعة على حين غرة أن ملايين النَّاس لا يسمعون فحسب، لكن هؤلاء المستمعين أيضًا كانوا ينقلبون ضد مصادر الأخبار التقليدية. اتهم نائب الرئيس سبيرو أغنيو (Spiro Agnew) الصحافة المنحازة لليبراليين في العام 1970 بأنها تهم بالنشاط الأبدي (حسب تعبير كاتب الخطابات وليام سافاير (William Safire)) إلى درجة أن وسائل الإعلام كانت تعج «بأجزاء متناثرة من السلبية». وبعد عشرين عامًا، أصبحت البرامج الإذاعية الحوارية تسير على نفس المنوال، وهذه المرة جعلتها عالقة.

المفارقة بالطبع أنَّ ليمبو نفسه إلى جانب مذيعين حواريين مُتحفظين آخرين سرعان ما صاروا هم التيار السائد، ومع مطلع القرن الحادي والعشرين، أخذ البث الإذاعي في التدهور مرة أخرى في قيمته السوقية، لكن ظل ليمبو محافظًا على عشرين مليون من المستمعين، وفي العام 2008 أبرم عقدًا بقيمة 400 مليون دولار الذي جاء في المرتبة الثانية من حيث الحجم مقارنة بصفقة هوارد ستيرن (Howard Stern) بقيمة نصف مليار دولار مع شركة سيريوس الإذاعية عبر الأقمار الصناعية. وفي مطلع عصر التلفاز، كادت المرئيات أن تزيح المذياع جانبًا عن سوق العمل؛ لكن سرعان ما سيصبح بعدها التلفاز والمذياع مكملين لبعضهما وليسا وسيلتي إعلام متنافستين مع انتقال كبار نجوم المذياع إلى القنوات السلكية والعكس بالعكس.

لم تستطع محطات الإذاعة الليبرالية أن تنافس في هذا المضمار، ولم يكن لها إلا تأثير يسير. ولربما يقول الليبراليون هذا لأنهم أبوا الانحدار إلى مستوى منافسيهم. (في شبكة آير أمريكا الإذاعية التي صارت غير رائجة الآن، أطلقت مذيعة الراديو التقدمية راندي روديس (Randi Rhodes) على هيلاري كلينتون (Hillary Clinton) «عاهرة [كلمة نابية] كبيرة» على الهواء في العام 2008، وهو ما يشير إلى أن بعض الليبراليين على الأقل كانوا مستعدين لقطع هذا الشوط)، من جانبهم حاجج المحافظون بأن المحطات الإذاعية الحوارية الليبرالية في الدولة التي تهيمن عليها منافذ إعلامية ليبرالية، كانت حلًّا لمشكلة غير موجودة؛ لأن الليبراليين لديهم بالفعل عددًا من

الأماكن التي يُسمعون فيها. ولسببٍ ما، فإن المذيعين الحواريين ذوي التوجهات اليسارية لم يكتسبوا قوة دفع، مثال ذلك: إن المذيع الحواري التقدمي الشهير آلان كولمز (Alan Colmes) يتابعه جزء يسير من الجمهور المولع بليمبو أو شريك كولمز السابق في البرامج الحوارية شين هانيتي (Sean Hannity) (الذي يقسم وقته بين المذياع وبرنامج تلفزيوني على قناة فوكس الإخبارية).

شكّل صعود الإذاعة الحوارية تحديًا أمام دور الخبراء وذلك بتعزيز الاعتقاد العام أن وسائل الإعلام القائمة مُدلَّسة وغير جديرة بالثقة، فمذيعي المحطات الإذاعية لم يهاجموا المعتقدات السياسية القائمة فحسب، بل هاجموا كل شيء، وغمروا مستمعيهم في عالم موازٍ أي حقائق فيه من أي نوع تكون غير جديرة بالثقة ما لم يؤكدها المذيع. أشار ليمبو في العام 2011 إلى «الحكومة والحياة الأكاديمية والعلم التجريبي ووسائل الإعلام» بأنها «أركان الخداع الأربعة» التي تشمل إلى حدٍّ كبير كل شخص باستثناء ليمبو.

تُوجد أمثلة أخرى عديدة، قال جلين بيك (Glenn Beck) ذات مرة لمستمعيه أن المستشار العلمي بالبيت الأبيض في عهد أوباما جون هولدرن (John Holdren) مناصر للإجهاض القسري. (لم يكن كذلك، لكن مازالت القصة تتداول) كما روّج هانيتي وآخرون لإشاعة بأنَّ الحكومة المصرية ستقنن مجامعة الجيف. (وقد سأل ليمبو عمن يمكن أن يوفر واقيًا ذكريًا لهذه المجامعة). كانت القصة وفق مراسل منظمة كريستشن ساينس

مونيتور الإخبارية دان مورفي «محض هراء»، لكن لم يكن هذا مهمًا.

يوجد رأي وجيه بأن البرامج الحوارية على المذياع في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين كانت مضادًا حيويًا ضروريًا للتلفاز والمنافذ الإعلامية المطبوعة التي صارت مرضية سياسيًا ورتيبة فكريًا ومعتدة بذاتها كثيرًا.

إنَّ ليمبو ومن يقلدونه في البرامج الحوارية على المذياع لم يتسببوا في استياء الطبقة المتوسط الأمريكية وعدم ثقتها في الإعلام، مثلما ظهر في هجوم أغنيو الشهير على الصحافة، إلا أن محاوري المحطات الإذاعية عززوا انعدام الثقة هذه بطاقة متجددة.

في النهاية صار المذياع الحواري عقديًا وأحادي الفكر تمامًا مثل الثقافة التي ادّعى أنه يحل محلها، ومع أنَّ المذيعين المحافظين ربما أمكنهم أن يطرحوا مناقشات تفضل الشبكات التلفزيونية الرئيسة تجاهلها، إلا أنهم نشروا أصوات من يعتقدون بأن كل شيء كذبة، وأن الخبراء ليسوا أذكى منهم، وأنهم كذوبون أكثر من سواهم.

أمريكا في الأسر: اليوم 15,000:

إنَّ تمرد المذياع على الصحف المطبوعة ووسائل الإعلام الإلكترونية ربما لم يكن ليتعدى البث الإذاعي أيه إم لولا القنوات التلفزيونية السلكية والإنترنت.

إنَّ تلك القنوات والإنترنت، كمصادر بديلة للأخبار - ومنصات للهجوم على المعرفة الراسخة - عززت فعليًا بعضها بعضًا خلال حقبة التسعينيات في القرن العشرين. حتى ليمبو، بعد أن غزا قوائم تصنيفات الكتب الأفضل مبيعًا بمؤلفاته، حاول أن يجرب حظه مع البرامج التلفزيونية التكتلية لبضع سنوات، وعليه صارت بوابة الوسائل الإعلامية التي كانت ضيقة فيما مضى تتسع بما فيه الكفاية لاستيعاب هذا التدافع. فالقصص التي كان منبعها إحدى الوسائط سرعان ما قفزت إلى أخرى، وعادت بصدى أكبر، مثل صوت الميكروفون الذي يصم الآذان حينما يوضع أمام مكبر صوت.

لكن المفارقة أن القنوات السلكية والإنترنت لم يتصدرا الدورة الإخبارية التي تستمر لأربع وعشرين ساعة، ويمكننا أن نرجع الفضل في هذا إلى الراحل آية الله الخميني من إيران.

في نوفمبر من العام 1979 اجتاح الثوار الإيرانيون السفارة الأمريكية في طهران، وأسروا عشرات الموظفين الأمريكيين رهائن. هذا المشهد صعق الأمريكيين الذين شاهدوا حدوثه مباشرة، كانت مأساة الرهائن لدى الإيرانيين شيئًا جديدًا، قصة ما بين طيات حرب وأزمة: كانت فيتنام انهيارًا كاملًا بالتصوير البطيء الذي ظلت تبعاته لعقود، في حين أن أزمة الصواريخ الكوبية وقعت في أسبوعين، أسرع مما يمكن للتلفاز والصحف أن تغطيه بالكامل. لكن أسر الرهائن كان سريعًا، ثم بطيئًا، بضعة أيام من العنف التي تبعتها مشقة نفسية من الانتظار والقلق.

صارت وسائل الإعلام الإخبارية في ورطة، فمن جهة كان الأمريكيون في خطر داهم بدولة أجنبية؛ وعلى الجانب الآخر، لم يكن شيء يحدث فعليًا. مثلما كان حال الفنان الهزلي شيفي تشيز (Chevy Chase) وهو يعلن كل أسبوع ببرنامج ساترداي نايت لايف أن زعيم إسبانيا فرانثيسكو فرانكو (Francisco Franco) ما يزال ميتًا، فكذا لم يجد مذيعو الشبكات الإخبارية إلا القليل ليخبروا النَّاس بأن الرهائن ما تزال رهائن.

آنذاك قررت شبكة أيه بي سي التلفزيونية أن تجرب شيئًا مختلفًا بأن تنقل النشرة الموجزة عن إيران للفترة المسائية، وهو قرار تسويقي أيضًا: لم يكن لدى أيه بي سي برنامج فترة مسائية مقابل البرنامج الحواري لجوني كارسون (Johnny Carson) على شبكة إن بي سي المنافسة لها، وكانت البرامج الإخبارية رخيصة بالمقارنة. من هنا شغلت أيه بي سي تلك الفترة المسائية ببرنامج جديد يُدعى نايتلاين والمخصص حصرًا لتغطية الأزمة، وكل ليلة تنثر أيه بي سي على الشاشة عبارة: «أمريكا رهن الأسر»، ويتبعها عدد أيام الأسر. ومن ثم يشغل المذيع (عادة ما يكون مذيع الأخبار في شبكة إيه بي سي والمحارب القديم تيد كوبيل (Ted Koppel)) الوقت بإجراء مقابلات مع خبراء وصحفيين ورموز أخرى لها علاقة بالأزمة.

وبعد ذلك بأكثر من عام، عاد الرهائن إلى وطنهم، لكن ظل برنامج نايتلاين لكوبيل مستمرًا، وذلك لسنوات لاحقة، لقد وفرت القنوات السلكية التقنية اللازمة لمقلدين آخرين، لكن برنامج نايتلاين كان النموذج الذي يحتذى به، فالأخبار

«العاجلة» وشريط العناوين الإخبارية -تلك الأشرطة الصغيرة من الحقائق الإخبارية التي تمر الآن أسفل الشاشة في الشبكات الإخبارية- كلها أصلها برنامج صنع فعليًا على عجل استجابة لأزمة.

ومن إرث عهد برنامج نايتلاين أيضًا وابتكار الدورة الإخبارية على مدار أربع وعشرين ساعة كان بخس مشورة الخبراء حقها في الإعلام، أو كما ذكر بجدارة الأستاذ بالكلية الحربية الأمريكية ستيفن ميتز (Steven Metz) في العام 2015، في وقت سابق: «كان العامة يميلون للإذعان إلى هيئات السلامة الوطنية التي اكتسبت تأثيرها من خلال التجارب والخبرة كـ: مسؤولين منتخبين، وقادة عسكريين، وموظفين سياسيين، وأكاديميين، وإعلاميين، أو محللين بمؤسسات بحثية»، ثم تغيرت الأمور:

> لم تكن الخبرة المكتسبة بصعوبة ضرورية مع توافر ساعات من البث الحي بـ: المذياع، والتلفاز، أو منتديات النقاش على الإنترنت... ولعقود الآن، تناقص الإذعان للهيئات الرسمية على مستوى المشهد السياسي. وبسبب انتشار المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات امتلك النَّاس صوتًا وثقة بالنفس، بعدما كانوا يذعنون للهيئات[12].

خلص ميتز إلى أن هؤلاء النَّاس «عندما يُسلَّحون بقليلٍ من المعلومات، يُعبِّرون عن آرائهم في شتى المواضيع التي تزداد يومًا بعد يوم»، وهنا مكَّن المنتجون والمراسلون هؤلاء الخبراء

المُزمعين عندما طلبوا منهم الحديث عن أي شيء وكل شيء، وهو إغراء لا يمكن أن يقاومه إلا قليل من النَّاس. (هل أنا من بين من طالتهم تلك الخطيئة في هذا الصدد).

حقق نايتلاين نجاحًا، ومع ذلك لم تجد الشبكات الإعلامية سببًا في بث الأخبار ليلًا نهارًا. ففي النهاية ما نوع المشاهد الذي لا يرغب في مشاهدة شيء سوى الأخبار؟ وفي العام 1980، انتهز الفرصة رائد الأعمال تد تيرنر (Ted Turner) عادًّا النَّاس بالفعل يشاهدون قدرًا لا نهاية له من الأخبار عندما بث على الهواء ابتكاره شبكة الأخبار السلكية. شُوِّهت سمعة CNN من المديرين التنفيذيين بالنشرات الإخبارية واصفين إياها «بشبكة حساء الدجاج»، عصيدة من العناوين الرئيسة والنشرات التي يُضاف إليها الماء وتقلب. لكن تيرنر هو الذي ضحك أخيرًا، فلم تصبح CNN مثل طاغوت في شبكات القنوات السلكية، لكن نتج عنها أيضًا منافسوها، بما في ذلك شبكة فوكس نيوز التي ستتفوق عليها لاحقًا في تصنيف المشاهدات.

وعوضًا عن الرجال البيض كبار السن الذين يقرأون الأخبار بصوت جهير، أضفى تيرنر على CNN لمسة أبهى. وفي الأول من يونيو العام 1980 قدم ديفيد والكر (David Walker) البالغ من العمر تسعة وثلاثين عامًا وزوجته لويز هارت (Lois Hart) البالغة من العمر إحدى وثلاثين عامًا أول دقائق من النشرة الإخبارية لشبكة CNN الجديدة، وتناولوا قصة عن زيارة الرئيس جيمي كارتر لرائد الحقوق المدنية فيرنون جوردان (Vernon Jordan) في المستشفى. لم تعد الأخبار نصف ساعة

من الإنصات إلى الأعمام الأمريكيين في منتصف العمر مثل جون تشانسلور (John Chancellor) وفرانك رينولدز (Frank Reynolds)، لكن تفاعل مستمر مع مجموعة من المذيعين الأكثر شبابًا وجاذبية والموزعين للعمل طوال الليل والنهار.

لقد جاء عهد الدورة الإخبارية على مدار أربع وعشرين ساعة، لكن تطلب الأمر تتابع للأزمات والكوارث خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين ليجذب ذلك جمهورًا. محاولة اغتيال الرئيس رونالد ريجان وتحطم طائرة في نهر بوتوماك بواشنطن واختطاف الطائرة من الإرهابيين في رحلة طائرة تي دبليو إيه، وذلك من بين أحداث أخرى، كلها أثبتت أن الأمريكيين سيتركون أجهزة التلفاز لديهم مثبتة على قناة الأخبار لساعات في النهاية. عوضًا عن الطقوس التي يجتمع فيها الأمريكيون في وقت محدد مسبقًا أو يهرعون إلى أجهزتهم على وقع الكلمات التي تحبس الأنفاس «نقطع هذا الإرسال» صارت الأخبار نوعًا من الولائم المفتوحة التي يمكن للمشاهدين فيها زيارتها والتناول منها طوال اليوم.

إنَّ شهادة أستاذة القانون أنيتا هيل (Anita Hill) وادعاءها بالتحرش الجنسي ضد القاضي المرشح للمحكمة العليا كلارنس توماس (Clarence Thomas) في العام 1991 أثبت أنَّ الأمريكيين لن يشاهدوا الأزمة والكارثة فحسب، لكن سيظل انتباههم مركزًا بإحكام على أجهزة التلفاز من أجل الوقائع المثيرة سياسيًا وفي قاعات المحاكم أيضًا.. خاصة إن كانت تتضمن جنسًا أو قتلًا أو في أفضل الحالات، كليهما. وبعد

الحكم القضائي الصادر في العام 1991 الذي سمح بمزيد من الكاميرات في قاعات المحاكم، وصلت كاميرات القنوات السلكية إلى المحاكم، وصار الأمريكيون خبراء قانونيين على مقاعدهم الوثيرة بمشاهدة قضايا لا حصر لها عن الاغتصاب والقتل وشتى أنواع الجرائم الأخرى.

كانت CNN تعرض بالفعل أخبارًا أكثر مما في استطاعة المُشاهِد العاديّ أن يستوعبها بمنطقية يوميًا، لكن انتشار القنوات السلكية الأخرى مثل قنوات المحاكم كانت مثل كابوس للخبراء. وفي مراجعة العام 1991 للشبكة الجديدة، وصفت مجلة إنترتينمينت ويكلي على قنوات التلفاز بأنها: «جزئيًا قناة رياضية، وجزئيًا برنامج منداي نايت فوتبول»، مع أن هذا ربما يكون قاسيًا على كليهما، وبحلول الوقت الذي انتهت فيه المحاكمة المشهودة لأوجي سيمبسون (O. J. Simpson) في العام 1995 على جريمة القتل، في تلك الأثناء نمى ملايين العوام عادة المشاهدة المتعمقة لأشياء لا يفهمونها بحق، من إحصاءات فحص الحمض النووي إلى صحة آثار الحذاء. كان كنزًا دفينًا من تقييمات القنوات، وأثبتت أن ما يريده النَّاس بحق من شبكاتهم الإخبارية ليس ساعات من الأخبار المملة، لكن أحداث مثيرة تبعث على التوتر.

أطلقت CNN قناة للعناوين الرئيسة فحسب في العام 1982 التي كانت مخصصة حصرًا للأخبار، وكان يفترض أن تتناوب على أهم القصص الإخبارية كل ثلاثين دقيقة. لكن بالطبع، كان هذا جافًا جدًا للمشاهد العادي، وبكل تأكيد، فإن القاضية

الشهيرة نانسي جريس (Nancy Grace) خصصت وقتها فيما أطلق عليه بعد ذلك برنامج إتش إل إن. (مثلما أطلق على دجاج كنتاكي المقلي بعد ذلك kfc للتغاضي عما كانوا يفعلونه بالدجاج -أي: قليه- من الواضح أن إتش إل إن كانت بحاجة إلى الحصول على «أخبار» من العنوان).

تخصص برنامج إتش إل إن في القصص المغرية التي يتخللها غضب جريس العارِم حيال العدالة. وفي قصة إخبارية مُروِّعة في العام 2008، اتُّهمت أم من فلوريدا اسمها كاسي أنطوني بقتل ابنتها التي بدأت تتعلم المشي. كانت قصة مزعجة، شبيهة نوعًا ما بعودة محاكمة سيمبسون التي سرعان ما أيد ملايين النَّاس فيها طرفًا على الآخر. إلا أن برنامج إتش إل إن لم يغطِّ محاكمة كاسي أنطوني فحسب؛ لقد أنتجت جريس وآخرون سلعة رائجة من «أخبار» إتش إل إن التي تعرض خمسمائة قصة عنها[13]. وحينما برأت كاسي أنطوني في العام 2011، كان مشاهدو برنامج إتش إل إن على دراية تامة على الأرجح بتفاصيل أحكام جريمة القتل التي وقعت في فلوريدا تلك أكثر من معرفتهم بحقوقهم التي يكفلها الدستور الأمريكي.

مُحال أن نناقش الرابط بين الصحافة وموت الخبرة دون أن نضع في الحسبان التغيير الثوري الذي أحدثه ظهور قناة فوكس نيوز في العام 1996. هذه القناة التي ابتكرها المستشار الإعلامي المحافظ روجر آيلز (Roger Ailes)، جعلت فوكس الأخبار أسرع وأكثر بريقًا مع إضافة مذيعات أخبار كن فعليًا ملكات جمال، إنها قصة نجاح أمريكية بكل سلبياتها

وإيجابياتها التي تنطبق على مثل هذه الانتصارات التسويقية عادة. (وفيما يشبه الأعمال التليفزيونية أجبر آيلز على ترك قناة فوكس في العام 2016 بعد ادعاءات عدة بالتحرش الجنسي التي غُطِّيت تفصيليًا في وسيلة إعلامية ساعد في إنشائها).

إلَّا أنَّ تاريخ قناة فوكس يتقاطع مع موت الخبرة بطريقة مهمة، فظهور قناة فوكس بطريقتها تلك كان تعبيرًا مطلقًا عن الفرقة الحزبية والكيفية التي يسعى بها النَّاس لمصادر الأخبار في سوق إلكترونية جديدة. ما حاول ليمبو فعله مع المذياع وبرنامج تليفزيوني ينشر لأكثر من مصدر في آن واحد، حوله آيلز إلى حقيقة بتلك الشبكة التلفزيونية. ولو لم يصنع آيلز شبكة فوكس، لفعلها شخص آخر؛ لأن السوق كما أثبتت المحطات الإذاعية الحوارية كان موجودًا بالفعل. أو كما يحب المؤلف المحافظ وناقد الرأي بقناة فوكس تشارلز كروثامر (Charles Krauthammer) أن يقول بتهكم، فإن آيلز «اكتشف جمهورًا يرغب في منتج محدد: جمهور من نصف الأمريكيين».

لقد وضعت قناة فوكس آخر مسمار في نعش النشرات الإخبارية كمراجعة غير سياسية ظاهريًا لأحداث اليوم، لذلك كتب محرر الدورية المحافظة فيرست ثينجس آر. ر. رينو (R. R. Reno) في العام 2016 أنَّ روجر آيلز كان «ربما الشّخص الوحيد المؤثر خلف تحول السياسة إلى تسلية على مدار الجيل الماضي»، لكنه حصل على كثير من المساعدة منذ ذلك الحين:

لا يتعلق الأمر بفوكس فحسب، فشبكة msnbc وشبكات أخرى طورت برامج الصياح السياسية الخاصة.. النسخة الشفهية من مباريات المصارعة العالمية. مواجهات بصوتٍ عالٍ ومقاطعات والخيلاء بطرق وقحة. ويبتهج المشاهدون بالمنظر، وهنا تروج الإعلانات، ويجنى المال[14].

صار شعار فوكس «إنصاف وتوازن» ملاحظة ألمعية موجهة إلى نفاق وسائل الإعلام التقليدية، بما في ذلك CNN آنذاك، وجميعهم روّجوا لأنفسهم بأنهم لا يتبعون أي جدول أعمال.

إن قناة فوكس مثل المحاورين الإذاعيين وقفت في موضع البديل لوسائل الإعلام السائدة، ومراقب لنادٍ ادّعت أنها لا تنتمي له، ولم تدِن له بأي شيء.

لكن بالطبع فكرة أنَّ قناة فوكس كانت فريدة، أو أن الشبكات الرئيسة لم تكن مسيسة نوعًا ما، دائمًا ما كان ضربًا من ضروب الخيال. إنَّ تحيز وسائل الإعلام حقيقي بشتى الأنواع وفي الأماكن كافة. وتحاول فوكس مثل الشبكات الأخرى أن ترسم خطًّا فاصلًا بين عمليات الأخبار المهمة وبرامجه الافتتاحية؛ كما حال الشبكات كافة، وعادة ما تفشل. لدى CNN وفوكس msbnc والشبكات الرئيسة كافة الأخرى مؤسسات إخبارية ممتازة، ومع ذلك فإنها جميعًا متحيزة بدرجةٍ ما، لو إنها تفصل نشراتها لإخبارية فقط على الجماعات السكانية التي تسعى للوصول إليها، ففي ظل التنافس على المشاهدين، لن يكفي أن تضع كلمة «أخبار» على شاشة التلفاز فحسب.

إن تأثير قناة فوكس أكبر بسبب حجم جمهورها الكبير، لكن الشبكات كافة الآن تتسم بوجود «معلومات وترفيه» تميل لأشياع معينين في جداول أعمالها، والمشكلة الأكبر في الشبكات الرئيسة كافة أنَّ الانتقال من الأخبار إلى الترفيه يكاد يكون سلسًا وغير ملحوظ بدرجة كبيرة: تتنقل برامج الرفاهية الصباحية إلى مستجدات وحوارات ما بعد الظهيرة التي تفسح المجال بعدئذٍ إلى الأخبار المسائية الجادة، وبدورها تنتقل إلى برامج المشاهير، كل هذا خلال ساعات.

ومع ازدهار البرامج الحوارية الإذاعية وظهور عصر القنوات السلكية، نمى حجم وسرعة الإنترنت، ما فتح مضمارًا آخر ليس بمؤسسات الأخبار الراسخة فحسب، لكن للصحفيين المزمعين الذين أرادوا اقتحام اللعبة. كان الإنترنت وانتشار وسائل الإعلام الإخبارية يمثلان مشاكل بالفعل للخبراء، لكن هذا التآزر بين توليفة الأخبار والإنترنت مشكلة معقدة للخبراء الذين يحاولون التواصل مع العوام الذين يعتقدون بالفعل بأن الحديث إلى هواتفهم في أثناء جلوسهم في محطات قطار الأنفاق يماثل المواكبة مع مستجدات الأحداث في العالم.

لا تثق بأحد:

قرابة ثلاثين عامًا، كنت أفتتح كل مقرر دراسي أحاضر فيها تقريبًا في الكليات والدراسات العليا بإخبار طلابي أنه مهما كان ما يفعلونه، فيجب أن يكون استهلاكهم متزنًا من وجبات

الأخبار اليومية. وأخبرهم أن يتابعوا الأخبار الرئيسة، ويشاهدوا شبكتين من الأخبار على الأقل؛ وأن يشتركوا (على الإنترنت أو خلاف ذلك) في إحدى الدوريات على الأقل التي يختلفون معها جذريًا.

أشكُّ أنني حققت كثيرًا من النجاح في هذا الصدد، فلو أنَّ طلابي يشبهون الأمريكيين الآخرين في شيء، فسيكون ذلك في ميلهم لمتابعة المصادر التي يتفقون معها بالفعل، على سبيل المثال: طَرْحُ استطلاعٍ للرأي من مركز بيو للأبحاث في العام 2014 سأل فيه الأمريكيين عن أي المصادر الإخبارية التي «يثقون بها أكثر في تقديم معلومات دقيقة حول السياسة والأحداث الحالية»، وكانت النتائج بالضبط ما تتوقعه في سوق إعلامي ممزق: انجذب النَّاس إلى المصادر التي تشاركهم الرأي بالفعل.

بين الأمريكيين كافة تفوّقت شبكة فوكس الإخبارية التي تعلن صراحة بأنها محافظة على نشرات الأخبار التقليدية (أي: نشرات الأخبار المسائية العريقة من أيه بي سي، وسي بي إس، وإن بي سي) كأكثر الشبكات «ثقة» على الإطلاق، لكن ببضعة نقاط فحسب، وصارت CNN في المركز الثالث تقريبًا.

لقد شكلت فوكس CNN معًا الشبكتين «الأكثر ثقة» بأكثر من أربعة من بين عشر مجيبين، لكن بين من يعرفون أنفسهم على أنهم محافظون سياسيًا، كانت قناة فوكس للمفارقة هي المصدر «الأكثر ثقة» بمعدل 48%. وانقسم مَن يعرفون أنفسهم بأنهم معتدلون في خياراتهم على القنوات «الأكثر ثقة» بالتساوي بين

النشرات الإخبارية CNN ‏(25 و23% على التوالي)، بينما كانت قناة فوكس والقنوات العامة في المرتبتين الثانية والثالثة. وبين من عرفوا أنفسهم بأنهم ليبراليون، تفوقت نشرات الشبكات الإخبارية بأنها «الأكثر ثقة» بنسبة 24%، حيث تعادلت CNN مع القنوات العامة جوهريًا بنسبة 16 و17% على التوالي.

لكن أكثر ما يثير الذهول في تلك الدراسة هو تفوق برنامج ذا ديلي شو، وهو برنامج ساخر حول الأخبار ظل يستضيفه لسنوات عدة الفنان الهزلي جون ستيوارت (Jon Stewart) بين المصادر الإخبارية «الأكثر ثقة». نجد 17% من الليبراليين المجيبين حددوا ذا ديلي شو بأنه «أكثر المصادر التي يثقون بها»، حيث تعادل ستيوارت مع CNN والتلفاز العام وتفوق على شبكة msnbc بسبع نقاط، وكانت msnbc (التي ظل شعارها فترة طويلة «المضي قدمًا»، أيًا كان ما يعنيه هذا) هي المصدر الأقل ثقة في العام 2014: كل المجموعات التي استطلع رأيها وضعتها في ذيل القائمة، بل إن بعض المحافظين اختاروا ستيوارت على الشبكة التقدمية بنسبة 1%.

يُوجد اختلاف بين الأجيال حاصل هنا، حيث يُرجّح أكثر أن ينسجم المشاهدون الشباب عن المسنين مع مصادر المعلومات غير التقليدية، لكن هذا التحوير للأخبار إلى مصدر للتسلية امتد ليشكل المجموعات السكانية كافة. صارت ممارسة استقاء المعرفة إجمالًا نوعًا من ممارسة السخرية والتهكم ما بعد الحداثة، وصارت كلمات مثل «حقيقة» و«معلومات» تعني

أيًا كان ما يريد النَّاس لهما أن يعنيان. أو كما كتب في العام 2016 إليوت كوهين (Eliot Cohen) الأستاذ في جامعة جونز هوبكينز: إنَّ الفارق بين جيل يستقي أخباره من والتر كروناكيت (Walter Cronkite) وديفيد برينكلي (David Brinkley)، وآخر يستقي أخباره من جون ستيوارت وزميله في الفن الهزلي ستيفين كولبير (Stephen Colbert) «هو الفارق بين التضاحك مع محبي موسيقى الجاز الهازئين والاستماع إلى راشد جاد»[15].

وبالطبع، فإن هذا النوع من الشكوى يبدو مثل نوع الأشياء التي يمكن أن يتفوه بها رجل فظ في منتصف العمر، إلا أن نقادًا آخرين ربما يحاجّون بأن الطبيعة العمومية للأخبار التلفزيونية هي بالضبط السبب الذي يجعل المشاهدين الأصغر سنًا يبحثون عن بدائل، أو كما قال الكاتب جيمس بولوس (James Poulos) (وكذا يقول عدد كبير من أبناء الجيل إكس) والمولود في لوس آنجلوس في العام 2016: «يصعب على العقل استيعاب كيف أن جيل طفرة المواليد لم يكونوا يثقون بأي شخص أقل من 30 عامًا إلى الثقة في أي أحمق لديه وجه متناسق ويرتدي حلة عمل»، ربما يكون ستيوارت هزليًا، لكن جمهوره الأصغر سنًا كانوا على الأرجح أفضل إلمامًا بالمعلومات من أقرانهم الذين لا يشاهدون أي أخبار على الإطلاق.

المشكلة ليست في وجود تلك الشبكات والمشاهير، لكن في اختيار المشاهدين لهم، ثم يصدقون بأنهم ألمّوا بمعلومات، إن وسائل الإعلام العصرية بعديد من الخيارات المفصلة

لمشاهدات بعينها ممارسة كبيرة للانحياز التأكيدي، وهذا يعني أن الأمريكيين ليسوا أقل في معرفتهم فحسب، بل إنهم مضللون.

يُوجد اختلاف هائل بين هذين المرضين، فكما ذكرت أستاذة العلوم السياسية آن بولتا (Anne Pluta) لاحقًا في دراسة نُشرت في العام 200 عن المعرفة العامة التي أجرتها جامعة إلينويز اكتشفت أنَّ «المواطنين غير العارفين ليست لديهم أي معرفة على الإطلاق، في حين أن المُضلَلين لديهم معلومات تتعارض مع أفضل الأدلة وآراء الخبراء»، فهؤلاء الأشخاص «لا يملؤون ثغراتهم المعرفية بناءً على أنظمتهم العقائدية القائمة» فحسب، لكن مع مرور الوقت، فإن تلك المعتقدات «لا يمكن تمييزها عن البيانات المُحكمة»، وبالطبع، فإن أكثر المواطنين تضليلًا» عادة ما يكونون أكثرهم ثقة في آرائهم وأقواهم تحزبًا»[16].

وهذا أحد الأسباب التي جعلت بعض الأمريكيين يثقون في الأخبار القليلة أو البرامج الشبيهة بالأخبار التي يرونها، فكثير من النّاس يتعاملون مع الأخبار بافتراض ضمني أنهم يحيطون علمًا فعليًا بالمواضيع، إنهم لا يبحثون عن المعلومات للتثبت، وعندما يتلقون معلومات لا يحبونها، فإنهم سينجذبون إلى مصادر يفضلونها؛ لأنَّهم يعتقدون أن الآخرين مخطئون أو كاذبون. في العصور السالفة كان يصعب إيجاد تلك المصادر؛ عندما كانت متاحة أمام النّاس منافذ إعلامية أقل، إذ يجب عليهم أن يباروا الأخبار التي لم تفصل وفق أحكامهم المسبقة،

أما اليوم، فآلاف المنافذ الإعلامية تقدم أخبارًا مخصصة حتى لأضيق جداول الأعمال والأشياع.

هذه العقلية والسوق الذي يخدمها يرسخ داخل العوام مزيجًا لا أساس له من الثقة والتهكم الشديد، وهي عادات من التفكير التي تهزم حتى أفضل محاولات الخبراء لتعليم إخوتهم المواطنين، لا يمكن للخبراء أن يجيبوا على الأسئلة إن كان معظم النَّاس يعتقدون بالفعل أنهم يعرفون الإجابة، ولن يجدي معهم أن يبعثوا رسائل عندما يكون عدد من النَّاس ميالين بالفعل إلى الهجوم على -أو في أفضل الأحوال تجاهل- الرسول. من السيئ بما فيه الكفاية أن النَّاس لا يواكبون الأخبار؛ الأسوأ ألا يثقوا بالأخبار القليلة التي يقرأونها ويتسوقون في الأرجاء إلى أن يجدوا ما يبحثون عنه.

يرجع انعدام ثقة الأمريكيين في وسائل الإعلام جزئيًا لأحد أعراض مرض أكبر فحسب: إن الأمريكيين لم يعودوا يثقون بأي أحد، إنهم ينظرون إلى المؤسسات كافة بما فيها الإعلام بازدراء. يكره الجميع وسائل الإعلام.. أو على الأقل يدّعي الجميع كرههم لوسائل الإعلام. ووفق مستطلعي آراء الجمهور، فإن المؤسسات الإخبارية من بين المؤسسات التي تحظى بأقل قدر من الثقة في الولايات المتحدة؛ ففي استطلاع رأي لمؤسسة جالوب في العام 2014 اكتشف أن أربعة من بين عشرة أمريكيين فحسب يثقون أن وسائل الأعلام تنقل الأخبار «كاملة وبدقة وبإنصاف»، وهي نسبة منخفضة على مر كل العصور[17].

بالطبع لا يكره النَّاس وسائل الإعلام حقًا، بل يكرهون وسائل الإعلام التي تقدم أخبارًا لا يحبونها، أو تنقل آراءً لا يتفقون معها، وقد ذكرت دراسة لمركز بيو في العام 2012 أن ثلثي الأمريكيين يعتقدون أن المؤسسات الإخبارية عمومًا «عادة ما تكون غير دقيقة»، لكن ينخفض نفس هذا العدد إلى أقل من الثلث عندما يُطرَح على النَّاس نفس السّؤال حول المؤسسات الإخبارية «التي تكثر استعانتك بها»[18]. وهذا كما أشار عدد من الملاحظين على مر السنين يشبه كثيرًا ادعاء الجميع بأنهم يكرهون الكونغرس في حين ما يعنيه هذا أنهم يكرهون أعضاء الكونغرس كافة باستثناء الأعضاء الذين يمثلونهم، وبالمثل، فإنَّ مَن يكرهون «الإعلام» مازالوا يشاهدون «الأخبار» أو يقرأون «الصحيفة»، طالما أنها مما يثقون به فعليًا.

في النّظام الدّيمقراطي تعد هذه الدرجة من السخرية من الإعلام مسمومة، فكافة المواطنين بما يشمل الخبراء بحاجة إلى أخبار. ينقل الصحفيون أحداثًا وتطورات في العالم حولنا، حيث يزودونا بمسوده من الحقائق التي نستخدمها كمادة خام في كثير من آرائنا ورؤانا ومعتقداتنا. وعليه يجب أن نستند إلى حكمهم وموضوعيتهم؛ لأنَّ تقاريرهم عادةً ما تكون أو ما يُصادف بقيتنا مع أحداث وحقائق مجهولة سابقة. وفي أنحاء العالم يؤدي الصحفيون وظائفهم بإتقان شديد، بحيث يخاطرون في أحيان كثيرة بحياتهم، مع ذلك لا يثق معظم الأمريكيين بالمعلومات التي يقدمونها.

هل المشاهدون أذكى من الخبراء؟

هل يحق للمشاهدين والقُرَّاء هذا الارتياب الشديد؟ بصفتي محترفًا في مجالي، فإنني أميل بالسليقة إلى الاعتقاد بأنَّ الصحفيين بصفتهم محترفين في مجالاتهم يعرفون ما يفعلونه. وفي العموم، أثق في تقارير معظم الصحفيين وكتاباتهم. كما أؤمن أن المحررين والمنتجين الذين عينوهم يعرفون ما يفعلونه، لكنني تمامًا كسائر النَّاس لست متدربًا على الصحافة، ولست متدربًا على معظم المواضيع التي أقرأ عنها.

إنَّ السّؤال عن الكفاءة يُثار إن افتقر الصحفي إلى تلك الخبرة أيضًا، فالصحفيون بلا شك يمكن أن يكونوا خبراء، وبعض المراسلين بالخارج يتحدثون لغة المنطقة التي يغطونها بطلاقة ولديهم معرفة عميقة بالثقافات الأخرى. في حين أن بعض المراسلين العلميين هم أنفسهم علماء أو لديهم قدر معقول من التدريب العلمي. ويوجد بعض المراسلين في مقر الكونغرس بحي كابيتل هيل يمكنهم أن يشرحوا العملية التشريعية أفضل من بعض أعضاء الكونغرس.

مع ذلك ثمة صحفيون يعتقدون بوجود جسر في غزة أو أن إيفلين ووه امرأة. هذه الضحالة الفكرية ليس سببها أن الصحافة تجتذب الأغبياء، لكن بسبب العصر الذي يعد كل شيء فيه صحافة، ويعد كل شخص صحفيًا، كان حتميًا أن تسقط المعايير، فصارت المهنة التي كانت فيها بعض الحواجز على الأقل ذات يوم مفتوحة على مصراعيها، مع نفس النتائج التي

ربما نتوقعها إذا ما صار الطب أو قوة إنفاذ القانون أو الطيران أو علم الآثار مشاريعَ متاحة ليتعلمها كل شخص بنفسه.

وهذا الخطأ يقع جزئيًا على «إضفاء الصبغة الأكاديمية» على ما كان يعد تجارة خاصة في تلك الأيام. عوضًا عن فترة التمرن كجزء من مسيرة مهنية تشمل كتابة النعي وتغطية اجتماعات البلدات، صارت الصحافة والتواصل من تخصصات الطلاب الجامعيين. هذه الأقسام والبرامج تضخ شبانًا لديهم قدر يسير من المعرفة حيال المواضيع التي يتناولونها. فهم يتلقنون دروسًا عن بنية القصة الإخبارية لكن ليس عن عادات وأعراف المهنة. كما أن عددًا منهم اعتادوا على نشر أعمق أفكارهم على الإنترنت منذ المرحلة الثانوية، ولا يفهمون الاختلاف بين «الصحافة» و«التدوين».

في تلك الأثناء يُنبذ الصحفيون العتائد من غرفة التحرير لإفساح المجال إلى الشباب الذين يعرفون كيف يجتذبون نقرات المتابعين على الإنترنت، أو حسب وصف الكاتب دالي ماهاريدج (Dale Maharidge) في العام 2016 في مجلة ذا نيشن.

> كانت صحافة المدرسة القديمة مقايضة، وقد اكتشف الصحفيون المخضرمون أنَّ الصبغة الحالية لشخصية الصحافة بتأكيدها على منشورات المنتديات التي تنتج بوفرة دون النظر إلى الجودة وتجميع جهود الآخرين والحفاظ على حضور مستمر على وسائل التواصل الاجتماعي يعد غريبًا ببساطة،

ويتبنى أصحاب المناصب العليا هذا الانحياز الجديد، وقد ائتمنني على سر أحد المحررين العاملين في إحدى الصحف القومية الرئيسة الذي تجاوز هو نفسه 40 عامًا، بأنه يتردد في تعيين الصحفيين الأكبر سنًا؛ لأنهم «عالقون في طريقة التفكير التي تنشر قصة إخبارية واحدة كل أسبوع» وليسوا مستعدين لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي[19].

تركيز السوق على الشكل وليس المحتوى، والحاجة إلى السرعة والتحزب المُساير للتوجهات السائدة للجامعة العصرية التي تتمازج لينتج عنها خليط من المعلومات المضللة. لا عجب إذًا أن الكُتَّاب المحنكين مثل جويل إنجل (Joel Engel) المؤلف والكاتب الصحفي السابق بجريدتي نيويورك تايمز ولوس آنجلوس تايمز يرثون حال أمريكا التي كانت تحظى بخدمة أفضل «عندما كان 'الصحفيون' مراسلين صحفيين عادةً ما تخرجوا بالكاد من المدرسة الثانوية».

يمكن أن يصبح لهؤلاء الكتاب غير المحنكين تأثير مهول على المعلومات المتاحة على عدد النَّاس الكبير الذين يستقون أخبارهم من وسائل التواصل الاجتماعي. ففيسبوك على سبيل المثال يستخدم أدوات وصاية على الأخبار لتقرير ما يظهر على الصفحة الرئيسية للقراء، وبناءً على بيان صادر في العام 2016 من موقع Gizmodo.com، فإن موقع فيسبوك تعامل مع المراسلين الصحفيين كمقاولين ذوي مستوى منخفض وفي الوقت ذاته أعطاهم سلطة هائلة على الأخبار:

> إنَّ قسم الأخبار السائدة [على فيسبوك] يديره أشخاص في أوائل العشرينيات والثلاثينيات من أعمارهم، ومعظمهم يتخرجون من رابطة اللبلاب (جامعات النخبة) وكليات الساحل الشرقي الخاصة مثل: جامعة كولومبيا، وجامعة نيويورك. لقد عملوا سابقًا في منافذ مثل: نيويورك ديلي نيوز، وبلومبيرج، وإم إس إن بي سي، والغارديان. وبعض الأوصياء على الأخبار تركوا فيسبوك لوظائف بمؤسسات بما في ذلك نيويوركر وماشابل وسكاي سبورتس.
>
> وفق عضو سابق بإحدى الفرق الذي أجرى معه لقاء موقع Gizmodo.com، فإن تلك الجماعة الصغيرة لديها قوة اختيار القصص التي تجعلها مُتصدرة لشريط التوجهات السائدة والأهم، أي: مواقع الأخبار يرتبط بها كل موضوع. قال أحدهم: «نختار التوجه السائد، ولا يوجد أي معيار حقيقي لقياس ما يُصنَّف كأخبار وما لا يُصنف كذلك. وبناءً عليه يرجع إلى الأوصياء على الأخبار تحديد هذا»[20].

الإجابة الواضحة هنا لا تستند إلى فيسبوك من أجل الأخبار، لكن بضعة ملايين من البشر يستندون إليه، تمامًا كما يستند بضعة ملايين أيضًا إلى موقع تويتر الذي يجرب بدوره خوارزميات من شأنها أن تبدل ما يظهر في التوجه السائد على صفحة تويتر وبأي أولوية.

ولكي لا نبخس هؤلاء المراسلين الشبان حقهم، فإنهم عادة ما يجدون أنفسهم في موقف مستحيل بطبيعة حال السوق، أو كما أخبرني الكاتب في موقع Slate.com ويل ساليتان (Will Saletan)، فإن القصص المعقدة تتطلب وقتًا أكبر بكثير من

مجرد التفوه بأي كان ما يجتذب النقرات. أمضى ساليتان سنة يبحث عن السلامة الغذائية للكائنات المعدلة وراثيًا، وهي قصة ربما تفوق حتى الجدال عن اللقاح الذي ينتصر فيه الجهل على العلم[21].

«لا يمكنك أن تطلب من شاب أن يشرح هذا الموضوع في الإطار الزمني الذي عادة ما يسمح به تلك الأيام»، هذا ما قاله ساليتان بعد عرض قصته على الموقع، وهو ما يمزق العلم الزائف الذي يدعم الاعتراض على الكائنات المعدلة وراثيًا. هذا النوع من القصص لا يتطلب وقتًا فحسب، بل أيضًا استعدادًا للبحث والحفاظ على التركيز على تفاصيل مبهمة. أو حسب تعبير ساليتان: «عليك فعلًا أن تكون وغدًا عن عمد لتصر على البحث على موضوع مثل هذا [الكائنات المعدلة وراثيًا]، وهو ما يبدو تقنيًا ومملًا إلى أقصى درجة عندما تتعامل مع تفاصيله الدقيقة، حتى وإن أثار العاطف بتحوله إلى الجانب السياسي».

أحيانًا تكون الأخطاء هامشية ومسلية، فعلى سبيل المثال في القول المخادع: بأن «الشكولاته تساعد في فقدان الوزن»، لا يفكر المخادعون أبدًا بأنهم سيصلون إلى الحد الذي وصلوا إليه؛ ويفترضون أن «المراسلين الصحفيين الذين لا يتحلون بمهارات العلوم» سوف يكتشفون الدراسة الزائفة بأكملها كانت «واهية إلى حد مضحك» ما إن يتواصلوا مع عالم حقيقي، لكنهم كانوا مخطئين، فلم يحاول أحد أن يدقق في القصة مع علماء حقيقيين، أو كما قال أصحاب الخدعة لاحقًا: «يكمن السر في استغلال كسل الصحفيين الشديد. لو انك رتبت

المعلومات بالوضعية الصحيحة يمكنك أن تشكل القصة التي تظهر في وسيلة الإعلام وكأنك تكتب تلك القصص بنفسك. في الواقع، هذا ما تفعله حرفيًا، حيث إن عددًا من المراسلين الصحفيين نقلوا عنا نصوصنا».

إنَّ قصة حمقاء عن الشوكولاته وخدعة فقدان الوزن لن تؤذي عددًا من النَّاس، (فمحبي مذاق الشكولاته لن ينتظروا سببًا علميًا ليستمتعوا بها)، لكن عندما تتجه التغطية إلى مواضيع أكثر جدية، فإن الصحفيين الجهلاء بالموضوع المطروح ويثبطهم انحيازهم الفكري يمكن أن يتسببوا في ارتباك أكثر من التنوير. منذ بضعة سنوات ركز الكاتب جوشوا فاوست (Joshua Foust) على ممارسة «دمج» الصحفيين في الخارج مع قوى عسكرية، ما يصنع وهم الخبرة لدى المراسلين الصحفيين ممن ليس لديهم إلا فكرة بسيطة عن المكان الذي هم فيه:

> إنَّ قدرًا كبيرًا جدًا من المراسلين الصحفيين ليس لديهم أي فكرة حيال الأماكن التي يذهبون لتغطيتها سواءً أكانت جورجيا أم أفغانستان، تفتقر روايات وسائل الإعلام إلى المعرفة الأساسية (أخبرني أحد المراسلين الصحفيين في جورجيا أن المراسلين العاملين كانوا يسألون المسؤولين: «أين أبخازيا؟»).
>
> إن التجربة الشّخصية تشير إلى أن الموقف مشابه إلى حد كبير في أفغانستان، على ما يبدو أن التفكير السائد «أنها بعثة من أسبوع واحد، لذلك يجب ألا أؤدي عملًا كبيرًا، يمكنني أن أتعلم وأنا أمضي في طريقي»[23].

من غير أي معرفة تأسيسية لا يستند الكُتَّاب الشبان إلا للتعليم الجامعي في الصحافة، وهو حسب كلمات جول إنجل (Joel Engel) هي «عملية متجانسة» التي «تضمن التوافق»، وتنتج صحفيون شبان يتخرجون من الكلية «ليروا ما يؤمنون به».

هذا النوع من التجاهل الصريح أو حتى سوء الممارسة المهنية يمكن أن يسبب ضررًا دامغًا لأشخاص حقيقيين ومجتمعاتهم. على سبيل المثال: في العام 2014 عانت مجلة رولينج ستون إخفاقًا صحفيًا هائلًا في تقريرها الصحفي عن القصة سيئة السمعة الآن حيال الاغتصاب الجماعي الذي وقع في جامعة فرجينيا. عقدت إحدى المراسلات الصحفيات العزم على البحث عن قصة عن الاعتداء الجنسي في الأحرام الجامعية الأمريكية المرموقة، ووجدت قصة. نشرها رؤساء تحرير مجلتها بالتفاصيل الغريبة، لكن سرعان ما كشف عن لغز القصة واتضح أنها زائفة، والنتيجة حطام تتصاعد منه الأدخنة على هيئة دعاوى قضائية وتشويه سمعة.

وقد انتهى المطاف بأن تراجعت رولينج ستون عن القصة، وطلبت من كلية الصحافة في جامعة كولومبيا أن تجري تحقيقًا، وقد خلص المحققون أن المراسلة الصحفية سابرينا إرديلي (Sabrina Erdeley) ورؤساء التحرير في مجلتها انتهكوا حتى أبسط قواعد الصحافة، كل هذا تحت مسمى أنَّ القصة كانت على ما يبدو جيدة بما فيه الكفاية لتفقدها[24]. كما ظلت لهذه القصة توابع بعد ذلك بأعوام، حيث ربحت إحدى عميدات الجامعة التي ذكر اسمها بالقصة -امرأة يفترض أنها أهملت

ادعاء الاغتصاب المبدئي- دعوى قضائية ضد مجلة رولينج ستون بسبب تشويه السمعة.

القصة كانت تستند مبدئيًا إلى دراسات تدعي بأن واحدة من أصل أربع (وأحيانًا كان يذكر ان واحدة من أصل خمس) نساء في الكليات والجامعات الأمريكية يتعرضن للتحرش الجنسي. مثل هذه الادعاءات ساعدت في دعم قصة رولينج ستون الزائفة، في حين أن الإحصاءات نفسها والدراسات التي بنيت على أساسها كان ينبغي أن تثير المخاوف. أو كما كتبت إميلي يوفي (Emily Yoffe) في العام 2014: «إن هذا التأكيد على نسبة واحدة من أصل أربع تعني أنَّ الشابات في الكليات الأمريكية يتعرضن للاغتصاب بمعدلات تماثل ما يتعرضن له النساء في الكونغو، حيث يستخدم الاغتصاب كسلاح حرب»[25]، وفي دراسة أخرى تعد ركيزة لهذا السرد الرهيب اتضح أنها تضمنت «رجالًا مسنين في الجامعة» تصل أعمارهم إلى واحد وسبعين عامًا، ولم يعش أي رجل منهم في الأحرام الجامعية في الكلية، لكن ليس مهمًا، فالإحصاءات تعد الآن أقرب إلى الشعارات منها إلى الحقائق، ويمكن لأي شخص أن يجادل في هذا كما هو معلوم بقول: «إنهم رأوه في الأخبار».

ومثلما هو الحال في إحصاء «واحدة من أصل أربع» صار منتشرًا الآن ادّعاءً يتكرر بانتظام في وسائل الإعلام الأمريكية أن المحاربين القدامى الأمريكيين ينتحرون بمعدلات تنذر بالخطر؛ لأنهم خاضوا حربين رئيستين: «اثنان وعشرون كل يوم» -أي: اثنان وعشرون محاربًا قديمًا يقتلون أنفسهم كل أربع

وعشرين ساعة- الذي صار شعارًا لكل منظمة من منظمات خدمة المحاربين القدامى فضلًا عن الجماعات المناهضة للحروب، وقد ظهرت قصص عدة في وسائل الإعلام الإلكترونية والمطبوعة حول «وباء» انتحار المحاربين القدامى في العام 2013 وما أعقبها، مع عناوين رئيسة مثيرة وصور لشبان وشابات يرتدون أزياء رسمية وقضوا على حياتهم. وقد كانت تداعيات القصص واضحة: طوال مدة القتال في ظل الخدمة العسكرية تدفع المحاربين الأمريكيين إلى الانتحار، ولا تهتم الحكومة عديمة القلب.

عندما رأيت تلك الإحصاءات للمرة الأولى شعرت باهتمام شخصي في تقصي الدراسات المتضمنة.

أنا أعمل كل يوم مع ضباط عسكريين وكثير منهم شهدوا القتال في المعارك، كما عملتُ أيضًا استشاريًّا معتمدًا في الوقاية من الانتحار؛ بسبب عمل تطوعي شاركت فيه بإيجاز في شبابي. وبصفتي شخصًا لديه على الأقل بعض الخبرة في الوقاية من الانتحار، كنت مهتمًا بشأن قتل النَّاس أنفسهم، وبصفتي شخصًا عمل مع عسكريين، شعرت بالقلق حيال طلابي وأصدقائي؛ وبصفتي عالم اجتماع، أزعجني هذا الجدال الذي يستند إلى إحصاءات لا تبدو معقولة.

لكن للأسف لم تساعدني وسائل الإعلام. في الواقع كانت جزءًا أصيلًا من المشكلة. ومع صحة القول بأن المحاربين القدامى يقتلون أنفسهم بمعدلات أعلى في القرن الحادي والعشرين عن أي سنوات سابقة. إلا أن هذا يرجع جزئيًا؛ لأن

الجميع كانوا يقتلون أنفسهم بمعدلات أعلى -نظرًا لأسباب ما زال اختصاصيو الأوبئة يجادلون فيها- وليس المحاربون القدامى إلا جزءًا من «الجميع»، وما زاد من هذا الارتباك أنَّ الدراسات التي بحثت في انتحار «المحاربين القدامى» تضمنت أيضًا الجميع من الأعمار كافة ممن خدموا في الجيش بأي صفة، بداية ممن هم في قوات الاحتياط إلى المحاربين العاملين. بعبارة أخرى: إن الشاب الذي عاد إلى الوطن لتوه والرجل في منتصف العمر الذي خدم بضع سنوات فحسب في وحدة حرس حدود محلية قبل ذلك بثلاثين عامًا كلاهما حسبا كجزء من «الوباء» الجديد إن قتلا نفسهما في أي مرحلة.

حاولت سدى إحدى الإدارات المنزعجة بوزارة شؤون المحاربين القدامى -إحدى الإدارات البيروقراطية التي لا تحظى بشعبية في الولايات المتحدة- أن تذكر وفق دراسة كبيرة أُجريت في العام 2012 أن نسبة الانتحار بين المحاربين القدامى لم تتغير فعليًا بهذا القدر منذ العام 1999. وقد نشرت نيويورك تايمز تقريرًا مبهمًا حول تلك الدراسة بعنوان رئيس مفاده: «مع تزايد معدلات الانتحار في الولايات المتحدة، فإن المحاربين القدامى غيض من فيض»، في حين أن عنوان واشنطن بوست أشار ضمنيًا إلى استنتاج معاكس: «كشفت دراسة إدارة المحاربين القدامى أن مزيدًا من هؤلاء المحاربين القدامى ينتحرون»، والمدهش أن كل من العنوانين كانا عن نفس الدراسة، وكلاهما كان حقيقيًا بحس قائم على الحقائق الصارمة.

إن وسائل الإعلام أو على الأقل بعض منافذها أجرت مقابلات مع علماء كتبوا الدراسة، لكن إجابته لم تشكل أي فارق في السرد: «ثمة تصور بأن لدينا وباء انتحار للمحاربين القدامى بين أيدينا، ولا أعتقد أن هذا حقيقي»، هذا ما قاله روبرت بوسارتي (Robert Bossarte) اختصاصي الأوبئة الذي أجرى الدراسة مردفًا: «المعدل يتزايد في الدولة، والمحاربون القدامى جزء منه»[26]. لم تعبأ معظم القصص الإخبارية بهذا الاقتباس، ولم تشمل العلامات الرئيسة المهمة مثل أن معدل الانتحار الإجمالي في الولايات المتحدة بين الرجال في نفس الفئة العمرية مثل شباب المحاربين القدامى المقاتلين. ولم توجد أي وظائف أخرى مقارنة بالعمل العسكري، ربما بسبب المعدلات الأعلى نسبيًا بين المجموعات الأخرى -مثل: الأطباء وآخرين- كانت لتزيل طابع الخبر العاجل عن القصة.

استمر هذا التقرير الصحفي السيئ بعددٍ وافر من القصص كيف أنَّ الانتحار بين العسكريين في العام 2012 فاق في العدد فعليًا حالات الوفاة في ميادين القتال. والرسالة بالطبع أن الجنود الأمريكيين صاروا الآن عرضة للخطر على أنفسهم أكثر من العدو. إنها صورة سوداوية باستثناء مشكلة بسيطة: إنها عديمة المغزى إحصائيًا. إن ذلك التأكيد على أنه توجد «معدلات انتحار أكثر من الوفيات في ميادين القتال» سيظل حقيقيًا دائمًا حسب التعريف في أي سنة لا تنخرط القوات الأمريكية فيها في كثير من القتال الحقيقي.

يمكنك القيام بتلك الحيلة الإحصائية في أي سنة لا تُوجد

فيها معارك كبيرة: لنقل مثلًا: إننا نقارن حالات الانتحار العسكرية في خمسينيات القرن الماضي مع حالات الوفيات بسبب القتال في المعارك. وببراعة صاغت مجلة تايم مقالًا وصف الأمر بصواب، وعنونته حتى «حالات الانتحار العسكرية تأتي في صدارة الوفيات بالمعارك القتالية.. لكن فقط لأن الحروب تنتهي»[27]، لكن مرة أخرى، وجب أن يتضح هذا لأي شخص استغرق دقيقة فحسب ليفكر في الموضوع ومن اللافت للنظر أنه وجب على مجلة تايم أو أي شخص آخر أن يبحث في تلك القصة الإخبارية في المقام الأول.

بيت القصيدة من كل هذا أن النَّاس الذين ينتابهم القلق من المحاربين القدامى وحالات الانتحار لا يعرفون الكثير بحق حيال ما يجري مع المحاربين القدامى اليوم أكثر مما كانوا يعرفونه قبل قراءة تلك القصص. لكنهم يعتقدون أنهم يفعلون هذا، وكانت السموات في عون أي خبير في أي مجال يلقي بظلال من الشك على سبب غضب العامة، أو يحاول حتى أن يشرح الموضوع بإيضاح الفروق الدقيقة بعض الشيء. فالمحاربون القدامى يستشيطون غضبًا، ويقتلون أنفسهم وهذا كل ما في الأمر. في النهاية يقولون: قرأت هذا في الصحف.

ما الواجب فعله؟

في النهاية السّؤال هو: إذا ما كان في استطاعة الصحفيين أن يكونوا خبراء على الإطلاق في الموضوع الذي يكتبون عنه؛

وإن لم يكونوا كذلك، فكيف يمكن للخبراء أن يفعلوا أفضل ما في وسعهم لمساعدتهم؟

لا يمكنني ولن أفعل هذا، إنَّ التوصية هنا تتعدى أن نأمل اكتساب الصحفيين الشبان لمعرفة بخلفية الموضوع الذي يكتبون عنه نوعًا ما، إنَّها نصيحة عامة وهي كل ما لديَّ استعداد أن أفعله لإخبار المحترفين الآخرين كيف يؤدون وظائفهم. أقول هذا وأنا أدرك تمامًا أنه لا شيء يمكن أن يوقف النَّاس عن انتقاء مصادرهم، مهما كانت درجة جودة المعلومات المتاحة لهم.

لكن لديَّ تحذير أوجهه إلى الخبراء وعدد من التحذيرات لمن يقرأون الصحف.

وإلى الخبراء أقول: اعرف متى تقول: لا، فبعض أسوأ الأخطاء التي اقترفتها في شبابي ولم أتمكن من مقاومتها هي الإدلاء برأيي، في أغلب الأوقات كنت محقًّا في اعتقادي بأنني أعرف أكثر من المراسل الصحفي أو القراء، لكن ليس هذا هو المقصد: وجدت نفسي أخوض غمار أخطار كان يجب عليَّ تجنبها. وإنصافًا للصحفيين، اكتشفت أنهم سيحترمون آراءك وينقلونها بدقة -في قليل من الأحيان فقط شعرت بأنني وقعت في فخ أو أسيء استخدام كلامي- لكنهم سيحترمون أيضًا رفضك المستند إلى مبادئ بالحيد عن مسارك، وواجب عليك وليس عليهم أن تحدد تلك اللحظة.

على مستهلكي الأخبار واجب مهم هنا أيضًا، ولديَّ أربع توصيات لكم أيها القراء عند التعامل مع الأخبار:

كن متواضعًا، وكن شاملًا، وكن أقل تشكيكًا، وكن أكثر تمييزًا.

كن متواضعًا، أي: عليك أن تبدأ على الأقل بافتراض أنَّ الذين يكتبون القصة الإخبارية، أيًا ما كانت أوجه القصور لديهم، يعرفون عن الموضوع أكثر مما تعرف. على الأقل حاول أن تتذكر أنه في معظم الحالات، فإن الشّخص الذي يكتب القصة أمضى مزيدًا من الوقت في هذا الموضوع أكثر مما فعلتَ، لو تعاملت مع أي قصة في وسائل الإعلام أو أي مصدر معلومات وأنت تفترض بالفعل معرفتك بنفس مقدار سائر النَّاس في الموضوع، فإن كل ممارسة متابعة الأخبار تلك ستكون إهدارًا لوقتك.

كن شاملًا، أي: نوِّع من وجباتك، فلن تأكل من الطعام ذاته كل يوم، ولذلك لا تستهلك المصادر الإعلامية ذاتها طوال اليوم، مثلًا عندما كنت أعمل في السياسة القومية، كنت مشتركًا في بضع دوريات في أي وقت، من الأطياف السياسية كافة، ولا تكن ضيق الأفق، وحاول أن تستخدم وسائل إعلام من دول أخرى؛ لأنها عادة ما تنشر قصصًا، أو تكون لديها رؤية لا تكون لدى الأمريكيين أي دراية عنها على الإطلاق، ولا تقل: «ليس لديك الوقت»، بل لديك وقت.

كن أقل تشكيكًا.. أو لا تكن مشككًا بدرجة كبيرة: نادرًا جدًّا أن يجلس أي أحد ويكذب عليك عن عمد. أجل، عادةً ما يكون لدى النَّاس الذين يكتبون القصص الإخبارية جدول

أعمال، وسيوجد دائمًا سابرينا إرديلي في كل مكان. وأجل، أحيانًا ما يخطئ الصحفيون الذين تقرأ لهم أو تشاهدهم، عادة مع افتقار مذهل للوعي بالذات، فلا أحد فيهم يحتكر الحقيقة، لكنهم ليسوا جميعًا كاذبين، إنهم يبذلون أقصى ما في وسعهم بما يتوافق مع أفكارهم ومعظمهم سيسعده أن يعرف أنك تتعلم بقراءة مصادر أخبار ومعلومات أخرى.

كن أكثر تمييزًا: لو رأيت شيئًا في وسيلة إعلام رئيسة لا تبدو صحيحة بالنسبة لك، فإن البحث عن موقع إلكتروني صُنع على عجل لن يعطيك إجابة شافية.

إن المواقع الإلكترونية التي تُعد منافذ للحركات السياسية أو المؤسسات الأخرى الأسوأ حتى التي تحفل على وجه التحديد بعددٍ مهول من الحمقى، ستوقع ضررًا أكبر من النفع بحثًا عن المعلومات الدقيقة. عوضًا عن هذا، اطرح على نفسك أسئلة حينما تستخدم أحد وسائل الإعلام. من هؤلاء الكُتَّاب؟ هل لديهم محررون؟ هل هذه دورية أو صحيفة تناصر تقريرها الصحفي أم أنها جزء من عملية سياسية؟ هل يمكن التحقق من ادعاءاتهم؟ أو هل حاولت وسائل الإعلام التثبت أو نفي قصصهم؟

إنَّ المؤمنين بنظرية المؤامرة والمذعنين إلى الدجل لن يصدقوا أبدًا أي شيء يعارض رؤاهم، لكن يمكن لمعظمنا أن يفعلوا أفضل من هذا، وتذكر: إن قراءة الأخبار ومتابعتها مهارة كأي مهارة أخرى نحسنها بالتكرار، وأفضل طريقة لنصبح

مستهلكين أفضل للأخبار أن نكون مستهلكين منتظمين للأخبار.

لقد انتقدت بقسوة الحد الأدنى للمعرفة الأساسية بين الأمريكيين عن النرجسية والانحياز الذي يمنعهم من التعلم، وعن الكليات التي تعزز الجهل، وليس علاجه، وعن وسائل الإعلام التي تعتقد أنَّ وظيفتها هي التسلية، وعن الصحفيين الكسالى جدًّا، أو عديمي الخبرة جدًّا، بحيث لا يتقنون سرد قصصهم، كما كنت أصب جام غضبي على معظم الجماعات التي أعتقد أنها تحمل مسؤولية كبيرة على موت الخبرة وتقويض المعرفة الراسخة في أكثر الأوقات التي نحتاج إليها فيها.

لكني إلى الآن استثنيت جماعة واحدة من المأزق: الخبراء.

ما الذي يحدث عندما يخطئ الخبراء، ومن يجب أن يكونوا مسؤولين لتقرير متى ينبغي الاستماع إليهم، ومتى ينبغي تجاهلهم؟ سوف نواجه هذا السّؤال في الفصل التالي.

6

عندما يخطئ الخبراء

«حتى عندما يتفق كل الخبراء، ربما يكونون مخطئين».

برتراند راسل

لا حاجة للخبراء:

كتب عالم تاريخ مرموق في العام 2002: إنَّ الحكايات التي تُروى على نطاقٍ واسع عن لافتات «لا حاجة للإيرلنديين» آخر القرن التاسع عشر في أمريكا كانت خرافات. قال الأستاذ ريتشارد جنسين (Richard Jensen) الأستاذ في جامعة إلينويز أن هذه الإشارات كانت اختراعات، «خرافات الظهور بمظهر الضحية» التي انحدرت من المهاجرين الإيرلنديين إلى أطفالهم حتى وصلت إلى المكانة الحصينة للأساطير، لأكثر من عقد وافق معظم المؤرخين على مؤلفات جنسين الدراسية في هذا الخصوص، أما المعارضون لأطروحة جنسين، فقد نبذوا -أحيانًا من جنسين نفسه- بصفته مواليًا للأمريكيين الإيرلنديين.

وفي قصة إخبارية في العام 2015 بدت وكأنَّها تُوجز مشكلة

موت الخبرة، ادعت فتاة في الصف الثامن الثانوي تُدعى: «ريبيكا فريد (Rebecca Fried)» أنَّ جنسين مخطئ لأسباب ليس أقلها البحث الذي أجرته على جوجل، كانت تتحدث باحترام، لكنها مُصرّة على رأيها. «ظل يؤدي دراسات أكاديمية لعقود قبل أن أُولد، وآخر شيء أردت فعله هو إبداء عدم الاحترام له ولعمله»، هذا ما قالته لاحقًا. بدا كل هذا كأنه حالة أخرى يخبر فيها أحد الأطفال مبكري النضج أستاذًا مُحنكًا -أستاذًا ضليعًا في التَّاريخ لا أقل من هذا- إنه لم يؤدِّ واجبه.

لكن كما اتضح، فإنها أصابت وأخطأ هو، كانت هذه اللافتات موجودة، ولم يكن من الصعب العثور عليها.

على مدار سنوات تصارع أكاديميون آخرون مع ادعاءات جنسين، لكنهم صارعوا عمله في إطار أدغال علم التَّاريخ الاحترافي. وفي حوالي ذلك وخارج الدراسة الأكاديمية لاقى تأكيد جنسين قبولًا سريعًا، وأعلن أنه بمثابة حالة من الظلم المتخيل بين الأمريكيين الإيرلنديين (بالطبع أحبت دورية وكس مقال جنسين الأصلي).

إلا أن ريبيكا فعلت ما يجدر بالشّخص العاقل فعله: بدأت تبحث في قواعد البيانات بالصحف القديمة، ووجدت اللافتات، كما نشرت ذا ديلي بيست لاحقًا: «عندما جمعت حفنة من الأمثلة، فعشرات منها وبعد ذلك المزيد، بحثت في عدد من قواعد بيانات الصحف قدر المستطاع، ثم فكرت، وجب على شخصٍ ما أن يفعل هذا فيما قبل، أليس كذلك؟».

لكن كما اتضح، لم يعبأ جنسين أو أي أحد آخر على ما يبدو بهذا التحقق من صحة المعلومات.

ولاحقًا صد جنسين الهجوم، وحاول أن يرد بالبنية على عمل الطالبة المدرسية بادعاء أنه كان على صواب، لكنه كان يمكن أن يصبح أدق في ادعاءاته، في حين أن المناظرة حول أطروحته حسب وصف مجلة سميثسونيان لاحقًا: «ربما ما تزال مشتعلة في قسم التعليقات» على قوائم مختلفة بالإنترنت، لكن عمل فريد أثبت «أن أي شخص لديه عقل فضولي ونزعة للبحث يمكن أن يتحدى الوضع التَّاريخي الراهن»[1].

إن السيدة فريد من جانبها دخلت المدرسة الثانوية الآن بمقالة منشورة في دورية التَّاريخ الاجتماعي.

في أواخر سبعينيات القرن العشرين، أخبر علماء التغذية الأمريكيون المرموقون حكومة الولايات المتحدة أن البيض من ضمن أطعمة أخرى ربما يكون مميتًا. ربما لا يوجد تطبيق أبسط لشفرة أوكام مع تقفي الأثر من الحظيرة إلى المشرحة. يحتوي البيض كثيرًا من الكوليسترول، والكوليسترول يسد الشرايين، والشرايين المسدودة تسبب الأزمات القلبية، والأزمات القلبية تقتل النَّاس. وكان الاستنتاج واضحًا: الأمريكيون بحاجة للاستغناء عن كل هذا الكوليسترول من وجباتهم الغذائية.

وهذا ما فعلوه، ثم حدث شيء غير متوقع: اكتسب الأمريكيون كثيرًا من الوازن، وصاروا يموتون جراء أشياء

أخرى. كما اتضح، فإن البيض لم يكن سيئًا إلى هذه الدرجة، أو على الأقل لم يكن سيئًا مثل الأشياء الأخرى. وفي العام 2015 قررت الحكومة الأمريكية أن البيض مقبول، بل ربما يكون حتى صحيًا، أو كما ذكر كاتب العمود (الذي يقطن ولاية فيرمونت المليئة بالبيض) جيوفري نورمان (Geoffrey Norman) في حينها،

> كثير من الأشخاص [السِمان] الذين تبعوا هذا المسار اعتقدوا أنهم يتبعون حمية غذائية مصدق عليها من الحكومة، وقد انخفض استهلاك البيض بمقدار 30% عندما وضعتها الحكومة على القائمة السوداء للحميات الغذائية، يجب على النَّاس أن يأكلوا، لذلك استبدلوا أشياء أخرى بالبيض، أشياء كانت سببًا في زيادة أوزانهم. أما البيض الذي لم يأكلوه، فاتضح أنه لم يكن ليسد شرايينهم أو يقتلهم. إلا أن الأشياء التي استبدلوا بها هذا البيض ربما سببت لهم معاناة من مرض السكري من النوع الثاني وأسوأ[2].

هذا الفزع من البيض كان يستند إلى فيض من الدراسات المعيبة، وبعضها يرجع إلى نصف قرن تقريبًا. بالطبع من يريدون تجنب البيض، ربما يستمرون في فعل هذا بالفعل، في الواقع، ثمة دراسات الآن تشير إلى أن تجنب الإفطار بالكلية -الذي حذّر العلماء أيضًا من تجنبه فترة طويلة- ليس بالفكرة السيئة كما كان يعتقد أي شخص أيضًا[3].

لقد حذر بشدة سيويرين بيالر (Seweryn Bialer) أحد أرقى

الخبراء في الاتحاد السوفييتي قراء الدورية المرموقة فورين أفيرز أن اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية أقوى بكثير مما بدا في حينه.

> إنَّ الاتحاد السوفييتي ليس في النزع الأخير من أزمة نظامية، ولن يكون كذلك على مدار العقد القادم؛ لأنه يعتز بوجود احتياطيات هائلة غير مستخدمة من الاستقرار السياسي والاجتماعي التي تكفيه لتحمل أعتى الصعوبات.
>
> إن الاتحاد السوفييتي مثل أي اقتصاد عملاق آخر يشرف عليه محترفون أذكياء ومدربون، ولن يفلس. ربما يصبح أقل فاعلية، وربما يركد، بل حتى يعاني تدهورًا مطلقًا لعام أو عامين، لكن مثل هذا النّظام السياسي لن ينهار[4].

بعد ذلك بعام ربح بيالر «منحة العباقرة» من مؤسسة ماك آرثر. وبعد ذلك بعامين اختار الحزب الشيوعي السوفييتي -الذي يواجه كما هو واضح النزع الأخير من أزمة نظامية حقيقية- ميخائيل غورباتشوف (Mikhail Gorbachev) قائدًا جديدًا له. وبعد أقل من ثمانية أعوام من محاضرة بيالر التي تشير بأصابع اللوم، لم يعد لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية وجود.

وفي الأشهر الأخيرة من انهيار الاتحاد السوفييتي، شهد الأستاذ ستيفين ماير (Stephen Meyer) بمعهد ماساتشوستس للتقنية أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي، حيث شعر بالقلق القادة السياسيون الأمريكيون الذين يراقبون الأحداث في الاتحاد السوفييتي حيال سلامة

آلاف الرؤوس النووية السوفييتية المُوجهة صوب الولايات المتحدة، لكن ماير أحد خبراء الشؤون العسكرية السوفييتية الرواد في جيله طلب من الجميع الهدوء: غورباتشوف تحت السيطرة، حيث طمأن أعضاء مجلس الشيوخ المجتمعين أن «التلميحات بالانقلاب العسكري» في الاتحاد السوفييتي ما هي إلا «شطحات من الخيال المحض»[5].

أدلى ماير بشهادته في السادس من يونيه في العام 1991، بيد أنه بعد ذلك بتسعة أسابيع أطيح بغورباتشوف في انقلاب قادته مجموعة تضمنت وزير الدفاع السوفييتي ورئيس الجهاز الأمني المهيب، كيه جي بي. وقد عمت الفوضى مع دخول الدبابات شوارع موسكو، لكن مهما كان: بعد عام من انهيار الاتحاد السوفييتي، فقد ترك ماير دراسة روسيا والأسلحة النووية تمامًا، وعمل في مواضيع تخص التنوع البيئي، حيث خدم في لجان عدة لصالح إدارة الشؤون السمكية والحياة البرية في ولاية ماسوتشستس إلى أن وافته المنية بغتة في العام 2006.

بالكاد يشكل بيالر وماير أقلية، كما لاحظ المؤرخ نيك جفوسديف (Nick Gvosdev) بعد ذلك ببضع سنوات، فإن عديد من الخبراء السوفييت غيروا آراءهم بشأن ما آمنوا به، أو أرادوا أن يؤمنوا به حيال الاتحاد السوفييتي عوضًا عن «التحليل النقدي للحقائق المطروحة»، وقد ذكر اثنان من الأكاديميين المختصين في العلاقات الدولية أن سائر النَّاس فهموا الأمر خطأ أيضًا. «قياسًا بمعاييرها، فإن أداء المهنة [الأكاديمية] كان

مثيرًا للحرج»، هذا ما كتبه الأستاذان ريتشارد نيد ليبو (Richard Ned Lebow) وتوماس ريسي كابين (Thomas Risse Kappen) في العام 1995 مردفين: «لم تدرك أي نظرية من النظريات القائمة في العلاقات الدولية احتمالية أن نوع التغيير الذي حصل يمكن أن يحصل»[6].

يخطئ الخبراء طوال الوقت، وتأثيرات مثل هذه الأخطاء التي تتراوح بين الإحراج الخفيف إلى إهدار الوقت والمال، وفي حالات أكثر ندرة يمكن أن تنتج عنها حالات وفاة، بل حتى كارثة دولية. ومع ذلك يطلب الخبراء من المواطنين أن يثقوا بحكمهم، وألا يثقوا بندرة هذه الأخطاء فحسب، لكن بأن الخبراء سوف يحددون هذه الأخطاء ويتعلمون منها.

يومًا بعد يوم، لا يجد النَّاس خيارًا أمامهم سوى الثقة بالخبراء، إننا نعيش حياتنا ونحن عالقون في شبكة من المؤسسات الاجتماعية والحكومية المعنية بضمان أن المحترفين هم في الواقع من يقولون أنهم يفعلون ما يقولون، ويقولون ما يفعلون.

إن الهدف من وجود الجامعات ومؤسسات الإجازات ومجالس التراخيص وهيئات الاعتماد ولجان الفحص التابعة للولاية والمؤسسات الأخرى هو الحفاظ على تلك المعايير. وعمومًا تفلح تمامًا تلك الطرق الوقائية. على سبيل المثال: نشعر بالصدمة عندما نقرأ قصة عن طبيب غير كفء يقتل مريضًا تحديدًا؛ لأن تلك القصص غير معتادة على الإطلاق في دولة يمارس فيها قرابة مليون طبيب مهنة الطب بأمان كل يوم.

إلا أن هذه الثقة في المحترفين تعد مسألة ضرورية مملة، تمامًا كما نثق بسائر النَّاس في حياتنا اليومية بما في ذلك سائق الحافلة الذي نفترض أنه غير سكير، أو العامل بالمطعم الذي نفترض أنه غسل يديه. لكن هذا لا يشبه الثقة بالمحترفين عندما يتعلق الموضوع بأمور السياسة العامة: عندما نقول: إننا نثق بأن يكتب أطباؤنا الوصفة الطبية الصحيحة، فهذا لا يماثل القول: بأننا نثق بالأطباء المهنيين كافة بخصوص ما إذا كان ينبغي أن يصبح في أمريكا نظام من الرعاية الصحية القومية. إذا قلنا: إننا نأتمن أستاذًا جامعيًا على أن يُدرّس لأطفالنا تاريخ الحرب العالمية الثانية، فهذا لا يماثل القول بأننا نثق بالمؤرخين الأكاديميين كافة في مشورتهم على رئيس الولايات المتحدة في أمور الحرب والسلام.

فمن أجل هذه القرارات الأكبر لا تُوجد رخص أو شهادات، ولا تُوجد غرامات أو إيقاف عن العمل إذا ما ساءت الأمور. في الواقع، لا يُوجد إلا قدر يسير من المساءلة المباشرة على الإطلاق، ولهذا السبب نتفهم سبب خشية النَّاس. في النّظام الدّيمقراطي، فإن المسؤولين المنتخبين الذين قد يكونون قبلوا -أو رفضوا- مشورة الخبراء يشترطون المساءلة، وهو موضوع سنعاود الحديث عنه في الفصل التالي والفصل الأخير، لكن المساءلة شيء يعقب الحقيقة. ربما نشعر بالراحة معنويًا عندما نُحمّل المسؤولية لشخصٍ ما، لكن إلقاء اللوم لا يشفي الجراح أو يستعيد السلام. عمومًا، كيف يخطئ الخبراء؟ أو كما قالت الصحفية سالينا زيتو (Salena Zito) «من اللافت

للنظر أن مشاهدة كيف أن الخبراء لا يفهمون المجال الذي هم خبراء فيه»، وبالنسبة للعوام يتعدى هذا أكثر من مجرد الشعور بقليل من الانزعاج. ما الذي يمكن للمواطنين فعله عند مواجهتهم بفشل الخبير؟ وكيف يمكن أن يحافظوا على ثقتهم في مجتمعات الخبراء؟ وبالمثل فما المسؤوليات التي يتحملها الخبراء عندما يقترفون أخطاء؟ وكيف يمكنهم أن يصلحوا علاقاتهم بعميلهم (المجتمع)؟

كم عدد أوجه الفشل؟

تُوجد أنواع عدة من فشل الخبراء، الأكثر براءة والأكثر شيوعًا هو ما يمكن أن نفكر فيه كأنواع الفشل العادية للعلم.

تفهم الأسئلة المهمة خطأ من أفراد، أو حتى حرف بأكملها؛ بسبب الخطأ، أو بسبب قيود المجال ذاته.

إنهم يلاحظون ظاهرةً ما، أو يدققون في مشكلةٍ ما، ثم يبتكرون نظريات أو حلول، ثم يختبرونها، أحيانًا ما يكونون على صواب، وأحيانًا ما يكونون على خطأ.

عادة ما تشمل العملية عددًا من الحلفاء العميان والتجارب الفاشلة على مر الطّريق. وأحيانًا ما يتستر على الفشل، بل حتى يتفق معهم خبراء آخرون.

وهكذا أصيب بالسمنة جيل من الأمريكيين بتجنب البيض، ولهذا السبب، فإن أول محاولة أمريكية لإطلاق قمر صناعي

انتهت بانفجار ضخم على منصة الإطلاق، ولهذا السبب افترض لعقود كبار الخبراء في السياسة الخارجية أن إعادة توحيد ألمانيا سلميًا غير محتمل، ثم وجبت عليهم إعادة التفكير في وجهات نظرهم عندما ملأت السماء ألعاب نارية فوق برلين الحرة.

العلم أيضًا يُتعلم بالممارسة، فالولايات المتحدة اخترعت القنبلة النووية في العام 1945، لكن تطلب الأمر عقدًا آخر من أجهزة اختبار التفجير قبل أن يفهم العلماء والباحثون حول العالم «النبض الكهرومغناطيسي» فهمًا أفضل، وهو تأثير خفي للصواعق النووية التي تعبث مع الأنظمة الكهربائية. أما العامة، فصاروا من جانبهم أكثر دراية بالنبض الكهرومغناطيسي عندما تفجرت مصابيح الشوارع، وانقطعت الاتصالات الهاتفية على بُعد أميال من هاواي في العام 1962 على إثر اختبار أمريكي في المحيط الهادئ، وهو التأثير الذي شك العلماء في حدوثه، لكنهم قللوا حجمه المتوقع.

لا يسع أي شخص فعل شيءٍ حيال هذا الإخفاق، بما في ذلك الخبراء؛ لأنه ليس إخفاقًا كما هو جزء لا يتجزأ من العلم والحياة الأكاديمية.

إن العوام لا يشعرون بالراحة تجاه الغموض، ويفضلون إجابات وليس توضيحات تدرأ سوء الفهم، لكن العلم عبارة عن عملية وليس استنتاجًا، فالعلم يخضع نفسه للاختبار المستمر عبر مجموعة من القواعد الدقيقة التي يمكن بموجبها فقط دحض نظريات بنظريات أفضل منها، ولا يمكن للعوام أن

يتوقعوا تنزه الخبراء عن الخطأ دائمًا؛ فلو كانوا قادرين على إيتاء هذه الدرجة من الدقة، لما احتاجوا إلى إجراء البحث والتجارب في المقام الأول، فلو كان خبراء السياسة مستبصرين، أو يمتلكون علمًا بلا حدود، لما أصيبت الحكومات قط بعجز في الميزانية، ولما خاضت حروبًا تنشب فقط بتحريض من المجانين.

أحيانًا أيضًا يأتي خطأ الخبراء بتأثيرات مفيدة، لكنها نادرًا ما تُعامل بنفس طريقة الأخطاء التي تهدر حياة النَّاس أو أموالهم، ومن ذلك إنه عندما اخترع العلماء موانع الحمل التي تُتناول بالفم، كانوا يحاولون اكتشاف طريقة لكيفية مساعدة النساء على منع الحمل غير المرغوب فيه، ولم يكونوا يحاولون أن يقللوا مباشرة مخاطر سرطان المبيض.. لكن على ما يبدو أن بعض أنواع حبوب منع الحمل تفعل هذا بالضبط، وبمعدلات هائلة. بالنسبة لبعض النساء، فإن موانع الحمل الفموية تنطوي على مخاطر، أما بالنسبة لأخريات، فربما تطيل تلك الحبوب أعمارهن. وبالطبع، إن كانت حبوب منع الحمل تزيد خطورة السرطان، لندبنا فشلًا علميًا آخر، لكن هذا التأثير الإيجابي الجانبي كان مجهولًا تمامًا كعدد من التأثيرات الجانبية الأخرى منذ نصف قرن.

وبالمثل أخطأ الخبراء الذين تنبأوا بسباق تسليح نووي عالمي في الأنحاء نهاية الخمسينيات، لكنهم كانوا مخطئين جزئيًا على الأقل؛ لأنهم قللوا قدر فاعلية جهودهم في الحد من انتشار الأسلحة النووية. كان الرئيس جون كينيدي يخشى

عالمًا يُوجد فيه ما يصل إلى خمس وعشرين قوى مسلحة نوويًا بحلول سبعينيات القرن العشرين. (لكن بدءًا من العام 2014 لم تتخطَّ هذا الحد سوى عشر أمم فحسب، بما فيها واحدة - جنوب إفريقيا- تخلت عن ترسانتها)[7].

إن تنبؤ كينيدي بناءً على أفضل نصائح الخبراء لم يكن مستحيلًا، أو حتى غير معقولًا، بل انخفض عدد القوى النووية المستقبلية بفضل السياسات التي ناصرها نفس هؤلاء الخبراء.

في النهاية، لا يمكن للخبراء ضمان النتائج، ولا يمكنهم الوعد بأنهم لن يقترفوا أخطاء أبدًا، أو أنهم لن يقعوا فريسة لنفس أوجه القصور التي تحكم التفكير البشري المتأني كافة، كل ما يمكنهم أن يعدوا به هو وضع قواعد ومناهج تقلل من فرصة مثل هذه الأخطاء، وجعل تكرار تلك الأخطاء أقل بكثير عما يمكن للعامي أن يقع فيه، لو أننا سنقبل فوائد عمل مهنةٍ ما، يجب أن نقبل شيئًا أقل من المثالية، بل ربما حتى نقبل قدرًا محددًا من الخطورة.

إلا أن الأشكال الأخرى من فشل الخبراء تبعث أكثر على القلق، على سبيل المثال: يمكن للخبراء أن يخطئوا عندما يحاولون أن يوسعوا نطاق خبراتهم من مجال لآخر، وهذه ليست وصفة للخطأ فحسب، لكنها تثير جنون الخبراء الآخرين أيضًا، وفي بعض الحالات يكون انتهاك حرمة الخبرات الأخرى واضحًا، تمامًا كما يخلط الفنانون -الخبراء في مجالهم بكل تأكيد- بين الفن والحياة ويشرعون في تفسير الأمور المعقدة.

وفي حالات أخرى، تكون الحدود أقل وضوحًا، ولا يغدو الموضوع متعلقًا بالخبرات، بل بالخبرة النسبية، فعالم الأحياء مثلًا ليس طبيبًا، لكن عمومًا، يحتمل أن يكون عالم الأحياء أفضل نسبيًا في فهم المواضيع الطبية أكثر من الشّخص العادي. مع ذلك، فلا يعني هذا أن أي أحد في علوم الحياة يكون أفضل معرفة دائمًا من أي شخص آخر في أي موضوع بهذا المجال. أيضًا الشّخص المجتهد الذي تأنى في قراءته عن مرض السكري على سبيل المثال يمكن أن يكون مُفوّهًا أكثر في الحديث عن الموضوع من عالم النباتات. والمحترف ذو الخبرة العميقة وإن كانت ضيقة ربما لا تكون معرفته أفضل من سائر النَّاس في الأمور الخارجة عن مجاله.

إنَّ التعليم والشهادات في مجال واحد لا تضمن الخبرة في كافة المجالات.

مع ذلك، فالمشكلة الأخرى تكمن في أن يبقى الخبراء في مسارهم، لكن بعد ذلك يحاولون الانتقال من تفسير إلى تنبؤ. وفي حين أن التأكيد على التنبؤ ينتهك قواعد العلم -الذي تعد مهمته التفسير وليس التنبؤ- فإن المجتمع كعميل يطالب بتنبؤات أكثر بكثير من التفسيرات. والأسوأ أن العامة يميلون إلى عد فشل التنبؤات دلالة على عدم جدوى الخبرة.

يواجه الخبراء مهمة صعبة في هذا الصدد؛ لأنه مهما كان عدد المرات التي يحاول فيها الأكاديميون التأكيد على أن هدفهم هو تفسير العالم، وليس التنبؤ بأحداث سرية، لكن

يفضل العوام وصناع القرار السياسي التنبؤ. (بل إن الخبراء عادة ما ينصاعون بسعادة). إنه توتر طبيعي، لكن متعذر حله بين الخبراء وعملائهم، ويفضل معظم النَّاس التنبؤ بالمشاكل عن تجنبها، وعوضًا عن شرحها في ضوء الأحداث الماضية، إن الوعود بالتشخيص حتى وإن كان تحزرًا، دائمًا ما تلقى ترحيبًا أكبر من التيقن التام الناتج عن التشريح التفصيلي.

أخيرًا، يُوجد خداع صريح وارتكاب المحظور، لكنها الفئة الأكثر ندرة والأشد خطورة. هنا يزور الخبراء النتائج لأسبابهم الخاصة (عادة دفاع عن مسيرتهم المهنية بأعمالهم الرديئة)، ويأملون من جانب ألا يتمكن العوام من الإمساك بهم، ومن جهة أخرى ألا يلاحظ زملاؤهم أو يعزوا احتيالهم إلى الخطأ الشريف.

هذه الفئة الأكثر خطورة هي الأسهل في التعامل معها، لذلك سنبدأ هناك.

عندما يأثم الخبراء:

شهد القرن الحادي والعشرون في مطلعه بعض السنوات العجاف على العلماء، فقد وصلت حالات التراجع عن الآراء من الدوريات العلمية إلى معدلات غير مسبوقة، كما تبدو حالات الاحتيال أو سوء التصرف كأنها نمط معتاد الآن.

ليس من الصعب تعريف خداع الخبراء، لكن ربما يصعب

تحديده، إذ يحدث سوء التصرف الواضح عندما يكذب الخبراء المزعومون بأنهم معتمدون أو مُرخصَّون لممارسة مهنتهم. (يصف العلماء هذا مستخدمين اختصار: «ت، ت، س»، أو «تزوير أو تلفيق أو سرقة علمية»)، ويمكن أن يصعب كشف سوء التصرف هذا تحديدًا؛ لأنه يحتم على الخبراء الآخرين الكشف عنه، أما العوام، فليسوا مجهزين بتمحيص الدراسات العلمية، ليس أكثر من مجرد احتمالية أن ينظروا عن كثب إلى شهادة مُعلّقة على الحائط ليتثبتوا حقيقتها.

أحيانًا لا يكون الخبراء خبراء، فالنَّاس يكذبون، ويتبجحون بالكذب حيال شهاداتهم، إنه نوع من المهارة الفنية في التزوير التي مثّلها «المدعي العظيم» فرانك أباجنيل (Frank Abagnale) في ستينيات القرن العشرين (التي اشتهرت لاحقًا في الفيلم (أمسكني إن استطعت))، بما في ذلك تجسيده لشخصيتي طيار وطبيب.

أما النوع الأكثر شيوعًا وتعقيدًا من الخداع، فيحدث عندما يلحق الخبراء الحقيقيون شهاداتهم بتكريمات زائفة أو مبالغات. ربما يدعون أنهم أعضاء رابطة مهنية، أو أنهم حضروا اجتماعات مستشارين أو ندوات، أو أنهم حصلوا على تكريمات أو جوائز أو أي زخارف تعد احتيالًا في الواقع، عادة ما يمسك بهؤلاء النَّاس فقط عندما يحدث شيء يجعل الآخرين يدققون في سجلاتهم.

عندما يكذب الخبراء الفعليون، فإنهم لا يعرضون للخطر مهنتهم فحسب، لكن أيضًا عافية عميلهم (المجتمع).

إن تهديديهم على الخبرة يأتي على شكل النتيجة المباشرة لخدعتهم وتآكل الثقة المجتمعية التي ينتجها سوء التصرف هذا عندما يكتشف. ولهذا السبب (بصرف النظر عن أي عقوبات قانونية ربما تفرض على الكذب والاحتيال)، فإن المنظمات المهنية والمؤسسات الأكاديمية وخلايا التفكير والدوريات والجامعات تحتفظ ببعض أغلظ عقوباتها لأجل سوء التصرف المتعمد.

مثل هذه العقوبات موجودة على عكس الخيال الشائع، ثمة خرافة رائجة بين عدد من الأمريكيين بأنه يستحيل طرد الباحثين وأساتذة الجامعات، إلا أن هذا الاعتقاد ليس دون أساس بالكلية؛ لأن طرد الأساتذة الدائمين صعب جدًّا في الواقع. ففي حين أن عددًا من الأساتذة لديهم بنود قانونية عن «الأعمال الشائنة» بعقود عملهم، إلا أن الأعراف الاجتماعية خفضت هذا المعيار في القرن الحادي والعشرين إلى درجة أنه لا يوجد تقريبًا أي شيء يفعله الأستاذ الجامعي في قاعة المحاضرة أو حياته الشّخصية يمكن أن تجعل الكلية تتحرك إلى درجة فسخ عقده الدائم. إن الإساءات الواضحة التي تستدعي الطرد مثل التهديد المادي لطالب أو رفض الحضور إلى العمل صراحة يمكن أن يستدعي طردًا، لكن تقريبًا أي شيء آخر في فئة السلوك الشّخصي عادةً ما يُصرف عنه النظر.

على أي حال، فإن سوء التصرف الأكاديمي ما يزال خطًّا أحمرَ بالنسبة لعدد من الكليات.

إن الحرية الأكاديمية تضمن الحق في التعبير عن أفكار غير

شعبية أو غير تقليدية، لكنها ليست رخصة لإنتاج بحثٍ مهمل أو مضلل عن عمد. مثال ذلك: عندما طردت جامعة كولورادو وارد تشيرشل (Ward Churchill) -المعلم الذي قارن ضحايا هجمات الحادي عشر من سبتمبر في نيويورك بالنازيين- فقد طردوه ليس لأنه أحمق عديم الإحساس، لكنهم طردوه؛ لأن تعليقاته جذبت انتباهًا جديدًا «لرسالته العلمية» التي اتضح أن أقسامًا منها مسروقة، لكن بالطبع ادعى تشيرشل أنه كان ضحية للانحياز السياسي، وقد رفع دعوى ضد طرده بصفته موظفًا في ولاية كولورادو وصولًا إلى المحكمة العليا بكولورادو وخسر القضية.

مما لا شك فيه أنَّ سجل تشيرشل فحص بتركيز فقط؛ بسبب آرائه السياسية. وقد أعزى تشيرشل طرده إلى نفس هذه الأسباب، محاججًا بأن سرقته العلمية تتألف من أخطاء بريئة اكتُشِفت فقط عندما تبنّى وجهة نظر جدلية. لكن هذا في حد ذاته موقف مزعج: هل يتطلب الأمر أن تطلق على من ماتوا في برجي التجارة العالميين «[أدولف] أيخمان الصغار» كما فعل تشيرشل، قبل أن يلقي أي أحد آخر نظرة فاحصة على العمل الأكاديمي للأستاذ الجامعي؟

إنَّ الادّعاء بأن السرقة العلمية اكتُشفت فقط؛ لأن الأستاذ الجامعي تمكن من جذب الانتباه الكافي لنفسه بتعليقاته البغيضة ليس قدرًا كبيرًا من الدفاع.

كما أنَّ حالة تشيرشل كانت فريدة من بعض المناحي، لأسباب كثيرة منها الشهرة التي اكتسبتها. معظم قضايا سوء التصرف المهني في المجال الأكاديمي لا تلاحظ من العوام.

فالدراسة التي صدرت عن زواج الشواذ في العام 2014 التي تمثل تزويرًا بالجملة للبيانات، كانت استثناءً، لكنها حظيت بقدر هائل من الانتباه؛ بسبب التأثير السياسي المحتمل للخاتمة.

معظم الدراسات الأكاديمية ليست مثيرة للاهتمام بقدر الدراسة التي تدعي بأنه يمكن إقناع النَّاس بالتراجع عن رهاب الشواذ، ولهذا لا تحظى بنفس درجة الاهتمام.

إلا أن معظم الحالات التي لا تحظى بشعبية لا تقل خطورة.

في العام 2011 اكتُشف أنَّ أحد الباحثين في مرحلة ما بعد الدكتوراه يعمل بمنحة من الحكومة الأمريكية في جامعة كولومبيا قد زيف بحثًا أحيائيًا عن الخلايا يتعلق بمرض الزهايمر، وقد وافق الباحث ألا يقبل أي مِنح حكومية لثلاثة أعوام، لكن مع حلول الوقت الذي اكتشف فيه سوء التصرف اقتبس من مقاله علماء آخرين قرابة 150 مرة. كما طردت باحثة إسبانية في العام 2016 من معهدها أيضًا؛ نظرًا لاحتيال مزمع له علاقة بعملها على الأمراض القلبية.

وفي حالة أكثر إثارة نجد آندرو واكفيلد (Andrew Wakefield) الطبيب الذي نشر دراسة جدلية تربط بين اللقاحات والتوحد فقد سحبت منه رخصته الطبية في المملكة المتحدة في العام 2010. لم تقل الهيئات الطبية البريطانية أنها سحبت رخصته؛ لأنه حاجج بأطروحة علمية مثيرة للجدل، لكن لأنه كسر عددًا من القواعد الأساسية للإجراءات العلمية لفعل هذا.

كما اكتشف المجلس الطبي العام بالمملكة المتحدة أن واكفيلد «أجرى بحثًا توسعيًا على الأطفال دون موافقة أخلاقية، حيث تصرف ضد المصلحة الطبية لكل طفل، ولم يستطع الكشف عن تضارب المصالح المالية والتمويلات غير الملائمة»[8].

ومثلما هو حال وارد تشيرشيل، حاجج مناصرو واكفيلد بأنه كان ضحية لما يشبه صيد الساحرات، لكن البحث الذي يفقد مصداقيته ليس مماثلًا لسوء التصرف. على سبيل المثال: فإن بيتر دوسبرج أحد المنكرين الرواد لمتلازمة نقص المناعة المكتسبة ظل في جامعة كاليفورنيا ببيركلي على الرغم من اتهام النقاد له بأنه انخرط في سوء تصرف أكاديمي، وهي تهم ظلت تلاحقه إلى أن حققت جامعته في الأمر وطردته في العام 2010.

مع ذلك لا تُوجد طريقة للالتفاف حولها: تُوجد كمية لا يُستهان بها من البحوث العلمية المنشورة والمشكوك فيها في أحسن الأحوال ومزورة في أسوأ الحالات. ربما يكون في هذا قليل من العزاء للعامة، لكن سبب معرفتنا بحدوث أي سوء تصرف هذا؛ لأن العلماء في جميع المجالات يعترفون به. مثلًا في دراسة العام 2005 طرح سؤالًا على العلماء إن كانوا ارتكبوا ممارسات بحثية مثيرة للتساؤلات، أفاد 2% من العلماء بارتكابهم التلفيق أو التزوير أو «تعديل» البيانات مرة واحدة على الأقل، في حين قال 14%: إنهم شهدوا سلوكًا مماثلًا من زملائهم. وعندما سُئلوا عن سوء تصرف خطير يكاد يستوجب الشنق، مثل: التزوير الصريح، اعترف ثلث المجيبين بأنَّهم

انخرطوا في ممارسات أقل وضوحًا وإن كانت لاتزال تنطوي على عملٍ مشبوه، مثل: تجاهل النتائج التي تتعارض مع نتائجهم، بينما ادّعى أكثر من 70% أنهم شهدوا نفس هذه التصرفات من زملائهم[9].

جزء كبير من سوء التصرف هذا غير مرئي للعوام؛ لأنه مبهم جدًّا. على عكس القصص المثيرة للاحتيال الجماعي التي يشاهدها النَّاس في أفلام مثل: (إيرين بروكوفيتش) أو (ذا إنسايدر)، فإنَّ معظم حالات التراجع عما نشر في الدوريات العلمية تكون عن أخطاء لا تُذكر أو تحريفات في دراسات لها علاقة بمواضيع محدودة، تبدو العلوم الطبيعية أكثر عُرضة للمشاكل، لكن هذا على الأرجح؛ لأنَّ دراساتها تسهل اختبارها.

يمكن لعلماء العلوم الطبيعية الإشارة إلى أنَّ هذه التراجعات في حدٍّ ذاتها إشارة إلى المسؤولية المهنية والإشراف.

إنَّ الدوريات العلمية والطبية الأعلى تأثيرًا في مجالاتها -ذا نيو إنجلاند جورنال أوف ميديسين على سبيل المثال- عادةً ما تكون معدلات التراجع بها أعلى، لكن لا أحد متأكد تمامًا من السبب[10]. ربما يكون السبب أنَّ مزيدًا من النَّاس يتفقدون النتائج، وهو اتجاه سائد مشجع. كما يحدث أيضًا؛ لأن مزيدًا من النَّاس يختصرون الطرق للالتحاق بالدوريات المرموقة، ما يشكل حقيقة تبعث على الكآبة، ربما يكون أيضًا وقع النشر في دورية مرموقة: مع مزيد من القراء تزداد احتمالية محاولة أحدهم للبحث في عمله الخاص، وبالتالي، يكشف سوء التصرف كلما عاد إليه مستقبلًا.

إنَّ المعيار الذهبي لأي دراسة علمية يتمثل فيما إذا كانت قابلة للتكرار، أو على الأقل إعادة إنشائها، ولهذا السبب يستخدم العلماء والأكاديميون الحواشي السفلية؛ ليس تأمينًا ضد السرقة العلمية -وإن كان يوجد هذا أيضًا- لكن حتى يتبع خطاهم أقرانهم ليروا إن كانوا سيصلون إلى نفس النتائج. أما إذا لفق العلماء الكتب، فسيُصعّب هذا تكرار نتائجهم، وبالتالي، يحبط دراساتهم أو يجعلها حتى مزورة.

على أي حال يفترض هذا النوع من التأكيدات أن أي شخص يعبأ بتكرار العمل في المقام الأول، إن مراجعة الأقران العادية لا تشمل إعادة إجراء التجارب؛ بل يقرأ الحكام البحث مفترضين تلبية المعايير الأساسية للبحث والإجراء. ويقررون بقدر كبير إن كان الموضوع مهمًا، وإذا ما كانت البيانات ذات جودة كافية، وإذا ما كان الدليل المقدم يدعم الاستنتاجات.

بالطبع، يبدو أن متطلبات القابلية للتكرار توصي بالثقة أكثر في العلوم البحتة مثل الكيمياء أو الفيزياء، أما العلوم الاجتماعية والعلوم النفسية، فتستند إلى دراسات عادةً ما تعتمد على المواضيع البشرية، وبالتالي، تصعب إعادة إنتاجها أكثر من غيرها. على الأقل، يمكن للعلوم الطبيعية ادعاء إن كانت لديها معايير أوضح، لو أكد شخصٌ ما أنَّ نوعًا محددًا من البلاستيك يسيح عند درجة حرارة 100 درجة مئوية، فبإمكان النَّاس كافة أن تفقد هذه النتيجة إن كانت لديهم عينة من المادة ذاتها و موقد بنزين. عندما طلب من مئة متطوع المشاركة في استطلاع رأي أو تدريب ازدادت الأمور صعوبة، ربما تكون

النتائج لقطة خاطفة في أحد الأوقات، أو تخص إقليمًا محددًا، أو تم التلاعب بها بطريقة أخرى. من المفترض أن يضع تصميم البحث هذه المواضيع في الحسبان، لكن الطّريقة الوحيدة للمعرفة بمحاولة تكرار التجارب.

وهذا بالضبط ما بادر بفعله فريق من الباحثين في مجال علم النفس، وأقل ما تُوصف به النتائج أنها مثيرة الدهشة. كما أفادت صحيفة نيويورك تايمز في العام 2015، جهدًا «شاقًا» لإعادة إنتاج 100 دراسة نشرت في ثلاث دوريات مرموقة بعلم النفس وجد أن أكثر من نصف النتائج لم تتكرر عند إعادة اختبارها.

> أجرى التحليل باحثون في علم النفس، تطوع عديد منهم بوقته لإعادة فحص ما اعدّوه عملًا مهمًّا... عدّت الدراسات المُدققة جزءًا من المعرفة الجوهرية التي يفهم بها العلماء تفاعلات: الشّخصية، والعلاقات، والتعلم، والذاكرة. يعتمد المعالجون والمعلمون النتائج المماثلة لترشدهم في قراراتهم، وحقيقة أنَّ عددًا من تلك الدراسات كان محل شك يمكن أن يزرع هذا الشك في الأسس العلمية لعملهم[11].

هذه النتيجة مدعاة للقلق، لكن هل تعد احتيالًا؟ إنَّ البحث المُهمل ليس مرادفًا لسوء التصرف. في عدد من تلك الحالات لا تتمثل المشكلة في أن تكرار الدراسة تنتج عنه نتيجة مختلفة، لكن في أنَّ الدراسات نفسها «لا يمكن إنتاجها» في جوهرها، ما يعني أن نتائجها ربما تكون مفيدة، لكن لا يمكن لباحثين

آخرين أن يعيدوا إجراء تلك التحقيقات البشرية بنفس الطّريقة مرارًا وتكرارًا.

في الواقع، ربَّما لا تكون الدراسات النفسية أبحاثًا رديئة، فتُوجد مجموعة أخرى من الأكاديميين الذين فحصوا لاحقًا التحقيقات نفسها -هكذا يسري العلم على أي حال- وخلصوا إلى أنها كانت «غير منصفة تمامًا، بل حتى غير مسؤولة» حسب كلمات جاري كينج (Gary King) الأكاديمي في جامعة هارفارد، ذكر كينج أنه بينما تعد إعادة الإنتاج «مهمًّا بشدة» سؤالًا مهمًّا يجب أن «يثير هوس» الأكاديميين، «فليس حقيقيًّا أنَّ كل علماء النفس الاجتماعي يختلقون الأشياء»[12]. إنَّ العمل بأكمله، نقض النقض، في المكان الذي ينتمي إليه الآن: في صفحات دورية ساينس، حيث يمكن للخبراء أن يواصلوا تقييم الجدالات كافة، ويخضعوها لمزيد من التحليل.

هل العلوم الطبيعية إذًا تمسك بمزيد من عملها الرديء أو الزائف عن العلوم الاجتماعية؟

ربما لا. عندما حاول بحّاثو السرطان إعادة تكرار دراسات في مجالهم، مروا بنفس المشاكل التي مر بها علماء النفس وآخرون.

كتب دانييل إدينبرج (Daniel Engber)، الكاتب بموقع (Slate.com) تقريرًا في العام 2016 عن مجموعة من الدراسات الطبية الأحيائية التي تشير إلى وجود «أزمة في تكرار النتائج» تمامًا مثل تلك الواردة في علم النفس، وقد ذكر أنه وفق بعض

التقديرات، «فإن النصف بأكمله من تلك النتائج على أسس مهتزة، وربما لا يمكن تكرارها في معامل أخرى. هذه الدراسات عن السرطان لا تعجز فقط عن إيجاد العلاج؛ لكن ربما لا تقدم أيضًا بيانات مفيدة من أي نوع»[13]. المعضلة في التكرار تشبه كثيرًا تلك التي شيطنت علماء الاجتماع: الإهمال، ومرور الوقت، وعدم القدرة على إعادة إنتاج نفس الظروف من التجربة الأولى، وما إلى ذلك.

هنا ننتقل من العمل الاحتيالي إلى العمل الذي ربما يكون مجرد إهمال، إننا نتناول موضوعًا معقدًا جدًّا هنا، لكن «أزمة تكرار النتائج» في المجتمع الأكاديمي ليست مبنية على محض احتيال، فضلًا عن القيود الفيزيائية الزائلة التي تحول دون القابلية للتكرار بمثالية، ومشاكل أخرى من بينها إغفال المنح، والضغط الهائل من المؤسسات الأكاديمية لابتكار نتائج يمكن نشرها (مهما كانت تافهة)، وتلك النزعة بين الأكاديميين لتعليب أعمالهم السابق والإطاحة بها ما إن ينشر البحث أو الدراسة.

إنَّ البحث في العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية يصعب تكراره على وجه التحديد؛ لأنه لا يستند على الإجراء التجريبي، لكن على تفسير الخبراء للأعمال أو الأحداث السرية.

إن كتاب النقد الأدبي هو بالضبط كما يبدو: نقدًا، وليس علمًا، مع ذلك يتطلب حكم الخبراء معرفة عميقة بالموضوع، وبالمثل، فإنَّ دراسة أزمة الصواريخ الكوبية ليست بالضبط تجربة في العلوم الطبيعية، لا يمكننا إعادة تكرار شهر أكتوبر

في العام 1962 مرارًا وتكرارًا، لذلك فإنَّ المؤلف الذي يفحص نتائج الأزمة يمثل تحليل خبير لإحدى القضايا التَّاريخية، ربما تكون مثل هذه الدراسة مليئة بالنتائج التي فيها عيوب، لكنها مادة خام لأجل مزيد من النقاش عوضًا عن حالة مخالفة مهنية.

مع ذلك ظلت تُوجد حالات من الاحتيال الصريح في العلوم الاجتماعية والإنسانية. من ذلك أن أحد المؤرخين في جامعة إيموري يُدعى مايكل بيلزايلز (Michael Bellesiles) ربح في العام 2000 جائزة بانكروفت في التَّاريخ على كتاب بعنوان: (تسليح أمريكا) الذي ادّعى فيه بيلزايلز أنه يفضح زيف فكرة أن أصل تفكير الأمريكيين في امتلاك الأسلحة النارية لا يرجع إلى أوائل مرحلة المستعمرات لكن إلى تأثيرات أخرى عقب ذلك بقرابة عام. وقد استقطبت الدراسة مناصرين ومعارضين على الفور؛ لأنها حاججت بأن ملكية الأسلحة النارية الخاصة لم تكن شائعة في أوائل عهد أمريكا.

مرة أخرى، دراسة ربما ما كانت لتلاحظ لكنها جذبت تدقيقًا عن كثب؛ بسبب موضوعها، حيث افترق أنصار الحد من انتشار الأسلحة النارية وأنصار ملكيتها إلى فسطاطين على إثر حجة بيلزايلز. مع ذلك عندما حاول أكاديميون آخرون أن يبحثوا عن المصادر التي استند إليها بيلزايلز خلصوا إلى أنه إما أساء استخدامها وإما اختلقها، وعليه سحبت جامعة كولومبيا جائزة بانكروفت منه، وأجرت جامعة إيموري تحقيقها الخاص، ووجدت أنه في حين أن بعض أخطاء بيلزايلز ربما تُعزى إلى

عدم الكفاءة، كانت تُوجَد أسئلة لا يمكن تلافيها حيال نزاهته الأكاديمية، بعد ذلك سرعان ما استقال بيلزايلز من منصبه، وأوقفت دار النشر الأصلية طباعة كتابه، مع أنه صدر عقب ذلك من دار نشر تجارية صغيرة.

كما نشر كتابًا في العام 2012 مؤلف يُدعى ديفيد بارتون (David Barton) حول توماس جيفرسون (Thomas Jefferson)، لم تكن لبارتون خلفية كمؤرخ محترف؛ وترجع شهرته إلى حدٍّ كبير إلى مكانته في الحركة الإنجيلية. (أطلقت عليه مجلة تايم في العام 2005 وهو واحد من أكثر من خمسة وعشرين إنجيلًا تأثيرًا في أمريكا). وقد اجتذب كتابه إشادة هائلة ومناصرة من المحافظين الرواد، بما في ذلك المرشح للرئاسة في العام 2012 مايك هاكابي (Mike Huckabee) والمؤرخ الذي تحول إلى سياسي نيوت جينجريتش (Newt Gingrich)، وكما هو حال دراسة بيلزايلز عن الأسلحة النارية، جذب عمل بارتون قدرًا كبيرًا من الانتباه؛ نظرًا لتداعياته السياسية فضلًا عن شهرة مؤلفه، لم يكن حتى عنوان الكتاب مبهمًا أو غير مباشر، أكاذيب جيفرسون: كشف الخرافات التي آمنت بها دائمًا حيال توماس جيفرسون، وقد حاجج كتاب بارتون بأن المؤرخين المعاصرين لم يشوهوا سمعة حياة جيفرسون الخاصة، لكنهم تجاهلوا أيضًا كيف أن عددًا من معتقداته كانت فعليًا داعمة لآراء المحافظين المعاصرين؛ ونظرًا لإعجاب جيفرسون بثورة فرنسا وارتباطه لاحقًا بالليبرالية (مقارنة بغريمه المحافظ جون آدامز (John Adams))، فقد كان هذا ادعاءً جريئًا.

تجاهل معظم الأكاديميين المحترفين الكتاب؛ كونه صادرًا من مؤرخ هاوٍ ودار نشر دينية غير أكاديمية، لكن الكتاب لم يكن يستهدف الأكاديميين على أي حال، بل يستهدف جمهورًا مُتشوّقًا بالفعل لقراءته، وقد أصاب بارتون هدفه المنشود: سرعان ما حقق كتاب أكاذيب جيفيرسون أعلى المبيعات على قائمة صحيفة نيويورك تايمز.

إلا أنه سرعان ما تمَّ التشكيك في الكتاب، ليس من الليبراليين غير المؤمنين بإلهٍ في جامعة بحثية، لكن من أكاديميين في كلية جروف سيتي، وهي كلية مسيحية صغيرة في بنسلفانيا. وبعد تمحيص أكثر انهارت ادعاءات بارتون، ولاحقًا صوّت قراء شبكة أخبار التَّاريخ بأنه: «أقل الكتب المطبوعة الجديرة بالتصديق»، لكن الكارثة الأكبر أنَّ دار النشر وافقت على أن الكتاب مليء بالعيوب إلى درجة أنَّهم سحبوا تداوله، وقد قال الكاتب بمجلة ذا أتلانتيك وأستاذ القانون جاريت إيبس (Garret Epps) في مراجعة قاسية حول هذا الأمر: «معظم كتب [بارتون] ينشرها بذاته ولن تُسحب أبدًا، لكن الاستنكار من أكاديميين مسيحيين ودار نشر مسيحية علامة على الخزي الذي سيتحمله من الآن فصاعدًا»[14].

في كل تلك الحالات، اكتشف الاحتيال وسوء التصرف. لكن بالنسبة للعامي، فمن المفهوم أن تقديره النهائي لمثل هذه الأعمال يكون غير ذي صلة، أما الموضوع الأساسي، فهو ما إذا كانت بالإمكان الثقة في الدراسات في أي مجال.

هذا السّؤال خاطئ من أحد الأوجه، فنادرًا ما تشكل دراسة

واحدة أو تحطم موضوعًا بأكمله، والشّخص العادي لن يعتمد على نتيجة أي مشروع محدد، في أبحاث الخلايا على سبيل المثال. عندما تجمع مثلًا مجموعة من الدراسات حول مخدر أو علاج ربما تكون تلك الدراسة الوحيدة جزءًا منه، فهذا في حد ذاته يدفع بدراسات متتابعة حول سلامته وفاعليته. من الممكن تزييف دراسة واحدة، أما تزييف مئات الدراسات والوصول بالتالي إلى نتائج خطيرة أو محتالة تمامًا، فموضوع مختلف بالكلية.

وبالمثل، لا تُوجد دراسة واحدة في السياسة العامة ترسخ اعتماد الخبير، حتى عندما يلقى أحد الأكاديميين انتباه المجتمع السياسي بسبب كتاب أو مقال، فإن تأثيره لا يعتمد على قابلية التكرار العلمية، لكن على الأفكار التي يطرحها. في العلوم الاجتماعية كما هو الحال في العلوم البحتة نادرًا ما تؤثر دراسة واحدة في حياة المواطن العادي دون بعض المراجعات الدقيقة على الأقل من خبراء آخرين.

أما ما يفعله الاحتيال في أي مجال، فهو إهدار الوقت وإرجاء التقدم. وبدرجة كبيرة مشابهة يمكن لخطأ طُمر مبكرًا وسط مجموعة معقدة من المعادلات أن يعطل الحسابات اللاحقة، كما يمكن للاحتيال أو سوء التصرف أن يرجئ مشروعًا بأكمله إلى أن يكتشف أحدهم تلاعب -أو زور عمدًا- الحقائق. وبالطبع عندما تكشف تلك الحالات للعامة تكون لديهم أسئلة مشروعة حيال مدى وتأثير سوء التصرف هذا، خاصة إن كانوا يدفعون له من المال العام.

اعتقدت أنك من طلاب تمهيدي طب:

ثمة مصادر أخرى من فشل الخبراء تتعدى الاحتيال المتعمد أو عدم الكفاءة المربكة، ومن أكثر الأخطاء التي يقترفها الخبراء هو افتراض أنه نظرًا لكونهم أذكى من معظم النَّاس في أشياء محددة، فهم أذكى من سائر النَّاس في كل شيء، إنهم يعدون معرفتهم الخبيرة رخصة لإلقاء محاضرات عن أي شيء. (مرة أخرى لا يمكنني إلقاء أول حجر هنا)، فتعليمهم المتقدم وخبرتهم يشكلان نوعًا من الغطاء التأميني بأنهم يعرفون ما يفعلونه في كل مجال تقريبًا.

هؤلاء الخبراء مثل إريك ستارتون (Eric Stratton) في الفيلم الهزلي القديم (منزل الحيوانات). عندما ينهض للدفاع عن أخوّيته الجامحين بالكلية في محكمة طلابية، ويسأله أصدقاؤه إن كان يعرف ما يفعله، فيؤكد لإخوته: «هوّنوا على أنفسكم، أنا طالب تمهيدي حقوق»، فيسأله أحدهم: «اعتقدت أنك طالب تمهيدي طب»، فيجيب ستارتون: «وما الفارق؟».

هذه الثقة المفرطة لا تجعل الخبراء يحيدون عن مساراتهم فحسب ويدلون بتصريحات حول أمور بعيدة كل البُعد عن مجال خبرتهم، لكن أيضًا «يفرطون في ادعاء» امتلاكهم خبرات أشمل حتى في مجال كفاءتهم العام، وتمامًا مثلما هو حال النَّاس في مساعي أخرى يفترض الخبراء أن نجاحاتهم وإنجازاتهم السابقة دليل على تفوقهم المعرفي، ويتعدون حدودهم عوضًا عن قول الكلمتين اللتين يكرههما كل خبير: «لا أعلم»، فلا أحد يريد

أن يظهر بمظهر غير العارف، أو أن يمسك به وقد غابت عن معرفته الشّخصية بعض الأجزاء. إنَّ العوام والخبراء على سواء سيطلقون تصريحات واثقة حيال أشياء لا يعرفون عنها شيئًا، لكن يفترض أن يتحلى الخبراء بقدر أكبر من المعرفة.

توجد أسباب عدة للانتهاكات التي تقع بين مجالات الخبرة المختلفة، من الخطأ البريء إلى الاستعراض الفكري، لكن أحيانًا يكون الدافع بنفس بساطة الفرصة التي توفرها الشهرة، والفنانون هم أسوأ الجناة هنا. (أجل، هم خبراء في مجالهم، فمعاهد التمثيل لا يديرها مهندسون كيميائيون)، فشهرتهم تتيح لهم سهولة الحديث عن مواضيع ومواضع جدال، وسهولة الوصول إلى الخبراء الفعليين أو صناع السياسات الذين سيعملون معهم؛ بسبب النزعة الطبيعية للرد على الهاتف عندما يتصل شخص شهير.

لكن الحديث مع المشاهير ليس مرادفًا لتعليمهم، وهذا تنتج عنه مواقف غريبة ينتهي فيها المطاف بالخبراء في مجال واحد - الفن- وهم يسهبون في الرد على أسئلة مهمة في مجالات أخرى، وهذه الظاهرة الغريبة لها تاريخ حديث في الولايات المتحدة، لكنها بدأت قبل فترة كبيرة من ثرثرة المشاهير كما يريدون على تويتر، أو على مواقعهم الإلكترونية الخاصة.

على سبيل المثال: دعا عضو الكونغرس عن كاليفورنيا توني كويلو (Tony Coelho) الفنانات: جين فوندا (Jane Fonda)، وسيسي سبيسك (Sissy Spacek)، وجيسيكا لانج (Jessica

Lange) في العام 1985 ليشهدن أمام لجنة الزراعة بالكونغرس بخصوص مشاكل المزارع. مؤهلاتهن، فلعبن أدوار زوجات مزارعين في ثلاثة أفلام شهيرة لهذا العقد، بالطبع كان الموضوع برمته عملًا مثيرًا، وعندما سُئل عن سبب فعله لهذا، قال كويلو من الحزب الدّيمقراطي حينها موجهًا نقده اللاذع إلى الرئيس الجمهوري رونالد ريجان: «على الأرجح، إنهن يفهمن في مشاكل الزراعة أفضل من الممثل في البيت الأبيض»[15].

لكن ليست تلك بالحادثة المنفردة، فعلى مر السنوات أقحم المشاهير أنفسهم في نزاعات لا يعرفون عنها إلا قدرًا يسيرًا، فهم يبتدعون الصيحات الجديدة، ويصنعون تحذيرات زائفة، ويغيرون العادات اليومية لملايين المعجبين المغفلين.

تيموثي كولفيلد (Timothy Caulfield) من خبراء السياسة الصحية الكنديين، وهو أحد الخبراء الكثر الذين فاض بهم الكيل، ألّف كتابًا ينتقد فيه الهجمات على المعرفة الراسخة من المشاهير، ومن أحد المشاهير على وجه التحديد: هل جوينيث بالترو مخطئة بشأن كل شيء؟ عندما تتصادم ثقافة المشاهير مع العلم. (ناقشت بعض توصيات بالترو للعناية الأنثوية -على مضض- في الفصل الرابع)، أو حسب تعبير كولفيلدفي مقابلة في العام 2016.

لو سألت شخصًا ما، هل جوينيث بالترو مصدر موثوق للمعلومات عن سرطان الثدي؟

سيقول معظم النّاس: لا. فماذا عن علم التغذية؟

> حينها سيتشكك معظم النَّاس. لكن نظرًا لأن لها هذه البصمة الثقافية العظيمة قد صنعت تلك العلامة التجارية بنفسها، فسيتماثل النَّاس معها.
>
> وتُوجد أيضًا عقلية بحسب الظروف: المشاهير في كل مكان فحسب. وحقيقة أنهم موجودون في كل مكان، وهذا يؤثر في نفوذهم، من السهل تخيل صورة [بالترو] على مجلة بيبول وهي تتحدث عن الغذاء الخالي من البروتين في مقابل ما تقوله البيانات الفعلية، ما يعطي للمشاهير تأثيرًا كبيرًا على حياتنا[16].

وهذا مؤذٍ، فالنَّاس فعليًا يترددون في تلقيح أطفالهم؛ بسبب نصيحة الممثلة جيني مكارثي (Jenny McCarthy) إحدى عارضات مجلة بلايبوي التي تقول إنها درست كل شيء بعمق حول هذا الموضوع في «جامعة جوجل». سيشاهد مزيد من النَّاس بالترو ومكارثي وأفكارهن التافهة أكثر من مشاهدتهم -أو أن يكون لديهم الصبر للإنصات إلى- عالم أورام أو عالم أوبئة أقل جاذبية.

إنَّ النشاط السياسي أو الفكري حق لكل شخص في المجتمع الدّيمقراطي الحر، لكن ثمة اختلاف جوهري بين هذا النشاط ومشهور يستغل شهرته، يتطلب هذا النشاط بين العوام أن يفترق الخبراء إلى فرق، ومناصرة السياسات المفضلة. بيد أنه عندما يستعيض المشاهير بحكمهم الخاص على حكم الخبراء -في الواقع يطالبون الثقة فيهم فقط لكونهم مشاهير- فلا يكونون أفضل حالًا من عالم أحياء دقيقة يرجح بين الفنون المعاصرة أو عالم اقتصاد يجادل في علم الصيدلة.

في بعض الحالات يتجاوز الخبراء نطاق معرفتهم؛ لأن تجاوزهم هذا يكون في مجال خبرة قريب بما فيه الكفاية لمجالهم حتى إنهم يستبيحون حكمهم الاحترافي لهذا المجال. ويرجح حدوث هذا على وجه التحديد بين الخبراء الذين لقوا إشادة كبيرة؛ نظرًا لإنجازهم في مجالهم، مع ذلك فكون أن المجتمع صار أكثر تعقيدًا، لم تعد تُستساغ فكرة العبقري الذي يمكنه الخوض في أي مجال وكل المجالات: كتبت الفكاهية أليكساندرا بيتري (Alexandra Petri) ذات مرة: « بنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin) كان من أواخر الرجال الذين يمكنك الذهاب إليهم وتقول: 'لقد اخترعت الموقد، في رأيك ما الذي ينبغي علينا فعله حيال تلك الضرائب؟' وتحصل على إجابة متسقة»[17].

على سبيل المثال: في سبعينيات القرن العشرين، اقتنع الكيميائي الحاصل على جائزة نوبل لينوس باولنج (Linus Pauling) أن فيتامين (ج) دواء العجائب، وقد نصح بتناول جرعات مفرطة من هذا المكمل الغذائي لدرء البرد الشائع، وأي عدد من الأمراض الأخرى. لم يوجد أي دليل فعلي على ادعاءات باولنج، لكن باولنج حاصل على نوبل في الكيمياء، وبالتالي، بدا لعدد من النَّاس أن استنتاجاته حيال تأثير الفيتامينات هو امتداد معقول لمجال خبرته.

في الواقع، فشل باولنج في تطبيق المعايير العلمية بمهنته مع بداية مناصرته للفيتامينات. كان قد شرع في تناول فيتامين (ج) آخر الستينيات بناءً على نصيحة شخص ادعى بذاته أنه طبيب،

ويُدعى إروين ستون (Irwin Stone)الذي قال لباولنج: إنه إن تناول ثلاثة آلاف مليجرام من فيتامين (ج) يوميًا -أكثر بخمسين مرة من المعدل الذي ينصح به يوميًا- فسيعيش لعشرين عامًا أطول. مع ذلك، فإن الدرجات العلمية الوحيدة «للدكتور» ستون جائزتين شرفيتين من كلية تراسلية غير معتمدة وكلية طب تقويم العمود الفقري[18].

أراد باولنج تصديق هذا المفهوم، وبدأ يبتلع الفيتامين. وعلى الفور شعر بتأثيرات إعجازية، ربما يشك المراقب غير المتحيز للموقف أنَّ هذا «تأثير الدواء الوهمي»، الذي يكون تأثير إخبار شخصٍ ما أن تناول حبة دواء سيجعلهم يشعرون بشعور أفضل، لكن نظرًا لإسهام باولنج البارز في العلم، أخذه زملاؤه على محمل الجد، وجربوا ادعاءاته.

لم تحدث أي فحص من تلك الفحوصات لفيتامين (ج)، لكن لم يسمع باولنج عن أي منها. أو كما كتب لاحقًا دكتور بول أوفيت (Paul Offit)، وهو طبيب أطفال واختصاصي أمراض معدية في جامعة بنسلفانيا: «مع أنَّ الدراسة تلو الأخرى أظهرت أنه كان على خطأ، لكن رفض باولنج تصديق هذا، وظل يروج لفيتامين (ج) في خطاباته ومقالاته الشهيرة وكتبه، وعندما كان يظهر أمام وسائل الإعلام من حين لآخر بأعراض برد واضحة، يقول إنه كان يعاني حساسية».

وعلى مدار حقبة السبعينيات تمادى باولنج في ادعاءاته، وجادل بأن الفيتامينات يمكن أن تعالج كل شيء، بما في

ذلك: السرطان، ومرض القلب، والجُذام، والمرض العقلي من بين أمراض أخرى. ولاحقًا شرع في اقتراح النظر في استخدامات فيتامين (ج) في مكافحة متلازمة نقص المناعة المكتسبة. بالطبع كان مصنعو الفيتامينات سعداء بأن يكون ملاكهم الحارس أحد الحائزين جائزة نوبل، وسرعان ما صارت المكملات الغذائية بالفيتامينات من الأعمال الرائجة (بما يشمل «مضادات الأكسدة»، وهو مصطلح صار «خاليًا من الجلوتين» و«الكائنات غير المعدلة وراثيًا»).

إلا أنه كما اتضح، فإن جرعات الفيتامينات المفرطة يمكن فعليًا أن تكون خطرة، بما في ذلك زيادة فرصة الإصابة بأنواع محددة من السرطان والسكتات الدماغية. في النهاية لم يشوه باولنج سمعته فحسب، لكن أيضًا عرض للخطر صحة جموع غفيرة من النَّاس على الأرجح. أو حسب وصف أوفيت: «إن الرجل الذي كان مصيبًا إلى حد مذهل لدرجة أنه ربح جائزتي نوبل» كان «مُخطئًا إلى حدٍّ مذهل إلى درجة القول بأنه أكبر دجال في العالم»، وإلى يومنا هذا، يوجد عدد من النَّاس ما زالوا يعتقدون أنَّ حبة كبيرة المملوءة بالفيتامين يمكن أن تدرأ المرض، على الرغم من حقيقة أن العلم كان يسري تمامًا بنفس الطّريقة التي كان يفترض أن يسري بها باختبار ودحض ادعاءات باولنج.

أما باولنج نفسه، فمات بالسرطان في سن الثالثة والتسعين، ولن نعرف أبدًا ما إذا كان قد حصل على الخمسة وعشرين عامًا الإضافية التي وعده بها «دكتور» ستون أو لا.

أحيانًا يستخدم الخبراء أمجاد اعتمادهم في مجال محدد، أو

يستخدمون إنجازًا ما ليتمادوا حتى في الحديث بمجالات أخرى خارج نطاق عملهم، من أجل التأثير في الجدال السياسي العام المهم. ففي خريف العام 1983 بثت محطة إذاعية تابعة لمدينة نيويورك برنامجًا عن سباق التسلح النووي. آنذاك كانت السنوات الأولى في حقبة الثمانينيات مشحونة بالحديث عن الحرب الباردة، وكان العام 1983 أحد أسوأ تلك الأعوام، فقد أسقط الاتحاد السوفييتي طائرة كورية مدنية، وانهارت المفاوضات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في جينيف بخصوص التسليح النووي، وانطلق برنامج الدراما الوثائقية (ذا داي آفتار) على قناة أيه بي سي حول الحرب النووية المحتملة كأحد أكثر البرامج التلفزيونية التي كانت تشاهد حتى ذاك الحين، والتي سرعان ما أصبحت سنة انتخاب.

كنت أحد المستمعين، بصفتي خريجًا شابًا يعيش في نيويورك حينئذٍ، ويدرس الاتحاد السوفييتي، ويتطلع إلى مسيرة مهنية في السياسة العامة، قالت صاحبة الصوت الرخيم على مذياعي بلهجة أسترالية: «إذا ما أعيد انتخاب رونالد ريجان، تزداد رياضيًا احتمالية نشوب حرب نووية»، وقد لفت انتباهي إعلان أن الحرب النووية لا مفر منها، خاصة إنه لم تُوجد أي تكهنات جادة بأن ريجان معرض للخطر في الانتخابات في العام 1984. فمن هذه التي تيقنت تمامًا -إلى درجة زيادة الاحتمالية رياضيًا- بأننا على أعتاب الملحمة الكبرى؟

المتحدثة كانت امرأة تُدعى دكتورة هيلين كالديكوت (Helen

Caldicott)، لم تكن دكتورة فيزيائية أو في الحكومة أو الشؤون العالمية، بل كانت طبيبة أطفال من أستراليا، وكان قلقها حيال الأسلحة النووية حسبما تذكر، نابع من قراءتها رواية صدرت في العام 1956 نيفيل شوت (Nevil Shute) عن حقبة ما بعد نهاية العالم بعنوان: (على الشاطئ) (التي تدور أحداثها في بلدتها الأم)، أو حسب وصفها لاحقًا، لم تجد أي مغزى في معالجة الأطفال من مرضهم إن كان العالم من حولهم ربما يضحي رمادًا في أي لحظة، باختصار، صارت صوتًا بارزًا في المناظرات حول منع انتشار الأسلحة والسياسة النووية، على الرغم من افتقارها التام للشهادات أو الخبرة في الموضوع المطروح.

كانت كالديكوت نزاعة إلى الإدلاء بتصريحات قاطعة بشأن أمور عالية التقنية، وكانت تناقش بثقة أشياء، مثل: صمود منشأة إطلاق الصواريخ الأمريكية، ومعايير الدفاع المدني، وآليات العمل الداخلية لجهاز السياسة الخارجية السوفييتي، وكانت قد أقامت في الولايات المتحدة قُرابة عقد، وصار لها حضور منتظم في الإعلام، حيث تمثل مجتمع النشطاء المناهض للأسلحة النووية.

وقد وصل تأثير تعديها على خبرات غيرها إلى الذروة عندما نشرت كتابها في العام 1985 بعنوان: (حسد الصواريخ)، وهو كتاب طافح بمصطلحات مثل: «تشخيص» السباق النووي. (ومن بين الفصول «علم أسباب الأمراض»، و«الفحص الطبي»، و«دراسة حالة»، وما إلى ذلك)، كان عنوان الكتاب مفصحًا عن فحواه: فقد اكتشفت طبيبة الأطفال أساسًا نفسانيًا للحرب

الباردة في أنفس الرجال السوفييت والأمريكيين، وذكرت أن النساء الأمريكيات وإن كن اكتسبن حق التصويت، فإنهن «لم يفعلن شيئًا به عمليًا»، وقالت كالديكوت: إنَّ نساء في الحكومة مثل رئيسة الوزراء البريطانية آنذاك مارغريت تاتشر، لم «تمثل الخصال الحقيقية للغالبية العظمى للنساء العاقلات الحكيمات»[19]. (عندما سمعت كالديكوت في إذاعة نيويورك، كانت حتى أكثر صراحة: أعلنت الطبيبة أن «مارغريت تاتشر ليست امرأة»)، وقد عادت كالديكوت إلى أستراليا في أواخر ثمانينيات القرن العشرين لترشح نفسها لمنصب سياسي، لكنها هزمت.

إنَّ مجتمع الخبراء مليء بهذه الأمثلة، والأشهر على الإطلاق إذا قيس على الأقل بحجم التأثير في العامة في أنحاء العامة هو أستاذ معهد ماساتشوستس للتقنية نعوم تشومسكي (Noam Chomsky)، أحد الرموز التي تحظى باحترام ملايين القراء حول العالم. تشومسكي، حسب بعض الروايات، هو أكثر المفكرين الأمريكيين الأحياء الذين يقتبس منهم على نطاق عريض، وقد ألَّف كمية كبيرة من الكتب في السياسات والسياسة الخارجية. إلا أن منصبه كأستاذ في معهد ماساتشوستس للتقنية فعليًا أنه أستاذ في علم اللغة، يعد تشومسكي رائدًا، بل كان عملاقًا في مجاله، لكنه ليس بخبير في السياسة الخارجية تمامًا مثلما لا يعد جورج كينان (George Kennan) مثلًا خبيرًا في أصول اللغة البشرية، مع ذلك، صار أكثر شهرة بين العامة؛ بسبب كتاباته عن السياسات أكثر من مجال خبرته؛ في الواقع، عادة ما قابلت طلابًا جامعيين على

مر السنوات كانوا على ألفة بتشومسكي، لكن ليست لديهم فكرة بأنه فعليًا أستاذ لغويات.

وكما هو حال باولنج وكالديكوت، لبّى تشومسكي حاجة في الميدان العام، عادة ما يشعر العوام بتحدي يكونون فيه أصحاب اليد السفلى أمام العلم التقليدي أو الأفكار المهيمنة اجتماعيًا، وسيهرعون إلى رموز مُفوّهة تحمل رؤاهم المظهر العتيق المطمئن للخبرة. الأرجح أنه ينبغي على الأطباء البحث بتركيز في دور الفيتامينات على الأغذية البشرية، من المؤكد أنه ينبغي على العامة الانخراط في إعادة التفكير الجارية في دور الأسلحة النووية، لكن الحصول على درجة في الكيمياء أو برنامج الأطباء المقيمين في طب الأطفال لا يؤهل مناصري تلك المواقف أن يكونوا موضع ثقة أكثر من أي شخص آخر تعلم ذاتيًا في تلك المواضيع الباطنية.

يتسامح العامة إلى أقصى حدٍّ مع مثل هذا التجاوز في الاختصاصات، وتلك مفارقة في حد ذاتها: في حين أن بعض العوام لا يحترمون مجال المعرفة الفعلي للخبراء، يفترض آخرون أنَّ الخبرة والإنجاز شاملين جدًّا إلى درجة أنه في استطاعة الخبراء والمفكرين أن يلقوا بثقلهم وهم مُخوّلون نوعًا ما في أي شيء تقريبًا، فنفس الأشخاص الذين ربما ينتابهم الشك في طبيب العائلة حول سلامة اللقاحات سيشترون كتابًا عن الأسلحة النووية؛ لأنَّ لقب المؤلف يحمل الأحرف السحرية «دكتور».

للأسف عندما يُسأل الخبراء عن آرائهم خارج مجال

كفاءتهم، نجد قليلًا مَن يتواضعون بما فيه الكفاية ليتذكروا مسؤوليتهم في أن يترددوا. لقد اقترفت هذا الخطأ، وانتهى بي المطاف وأنا نادم عليه، لكنَّ شيئًا غريبًا غير متوقع حدث، فقد جادلت أيضًا مع أناس أصررت أن لديهم المقدرة التامة للتعليق على موضوعٍ ما، بينما أوضحت تمامًا أنه ليست لديَّ معرفة محددة في الموضوع المطروح، إنه شعور غريب في الواقع أن تؤكد لأحد المراسلين، أو الطلاب على وجه الخصوص، أنه رغم ثقتهم بي سأكون عديم المسؤولية إن أجبتهم على سؤالهم بأي شكل من النفوذ المقنع، إنه اعتراف متعب، لكنه اعتراف يمكننا فقط أن نتمنى من أساتذة اللغويات وأطباء الأطفال وآخرين كثر أن يدلوا به أيضًا.

أنا أتنبأ:

في بداية ستينيات القرن العشرين، كان أحد الضيوف المترددين على القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية فنانًا معروفًا باسم «كريسويل المذهل (Amazing Criswell)». كان عرض كريسويل قائمًا على التنبؤات المنفعلة التي يبدأها بطريقة مسرحية بقوله: «أنا أتنبأ»، ومن بين عدد من بياناته قوله بأن نيويورك ستغرق في البحر بحلول العام 1980، وفيرموت ستعاني هجمة نووية في العام 1981، وستدمر دنفر بكارثة طبيعية في العام 1989. كان عرض كريسويل محض تسلية، بيد أن العامة استمتعوا به، لكن ما لم يتنبأ به كريسويل أن مسيرته المهنية ستنتهي تدريجيًا نهاية الستينيات، وينتهي به المطاف في بضعة أدوار صغيرة

بأفلام استغلال جنسي منخفضة الميزانية من صديقه المخرج الشهير بشناعته إدوارد وود الأصغر[20].

إنَّ التنبؤ مشكلة الخبراء، وهو ما يريده العامة، لكن عادةً ما لا يكون الخبراء بارعين فيه. وهذا لأنه لا يفترض منهم أن يكونوا بارعين فيه، فالغرض من العلم هو التفسير وليس التنبؤ، ومع ذلك، فإن التنبؤات مثل التجاوزات التي تتعدى اختصاص الخبرة، تعد مثل النعناع البري الذي تنتشي منه القطط بالنسبة للخبراء.

يعتقد الخبراء والعوام على سواء في هذا؛ لأن الخبراء لديهم القدرة على التعامل في أحد المواضيع عن أخرى، ولديهم سجل أفضل من التنبؤات. بالنسبة للخبراء في العلوم البحتة، يكون هذا الادعاء أقوى دائمًا؛ لأنهم يستخدمون الوسائل التجريبية لتحديد الظروف التي سيتصرف وفقها العالم المادي حسب توقعاتهم، وعند حدوث أشياء غير متوقعة تصبح لدى الخبراء نقطة انطلاق جديدة للتحري. أو كما قال كاتب الخيال العلمي الراحل (وأستاذ الكيمياء الحيوية) إسحق عظيموف (Isaac Asimov): : إن الكلمات التي أحدثت أعظم الطفرات العلمية ليست «وجدتها»، لكن «مذهل، هذا مُسَلٍّ».

إلَّا أنَّ بعض الخبراء يتقبلون بسرور فكرة التنبؤات، بل حتى يغرموا السائلين رسومًا لا بأس بها، على سبيل المثال: يبيع مستطلعو آراء الجمهور خدماتهم للمرشحين الرئاسيين والمشتركين في وسائل الإعلام، بينما يتحسس خبراء التسويق

الأجواء من أجل خدمات أو منتجات جديدة، لقد مرت استطلاعات الرأي بمشوار طويل منذ العام 1936، عندما تنبأت مجلة ليتيرالي دايجست بهزيمة آلف لاندون (Alf Landon) لفرانكلين روزفلت (على الأرجح باستطلاع رأي القراء). أما اليوم، فإن البحث في رأي الجمهور علم له خبراؤه ودورياته. وبالرغم من أن بعض مستطلعي الرأي متحزبون ويجعلون النتائج تميل في كفة نتيجة يفضلونها، إلا أنَّ معظمهم لديه خلفية أكاديمية في الإحصاء والوسائل التي تتيح لهم عمومًا أن يعلنوا نتائج دقيقة إلى حدٍّ معقول.

لكن عندما تُخطئ استطلاعات الرأي وأبحاث السوق، يمكن أن يكون الخطأ لديهم هذا فادحًا، من ذلك مثلًا أن إعلان شركة كوكاكولا عن منتجها الجديد «نيو كوك» في منتصف ثمانينيات القرن الماضي كان بمثابة كارثة إلى درجة أن كلمة «نيو كوك» نفسها صارت أضحوكة يُضرب بها المثل على الفشل في قراءة الرأي العام بدقة، ومنذ فترة قريبة أخطأ مستطلعو الرأي والخبراء السياسيون في نتائج عدة مهمة في أوائل القرن الحادي والعشرين، بما في ذلك نتائج انتخابات منتصف المدة في الولايات المتحدة وفي الانتخابات العامة بالمملكة المتحدة في العام 2015.

في الواقع، اكتُشِف مسحٌ لمستطلعي الآراء في العام 2015 أنهم يعتقدون بأن سمعتهم تلطخت؛ نظرًا لسلسلة من الأخطاء، شعر البعض بأن هذا نتيجة تحيز الإعلام (التي تفضل تغطية الفشل أكثر من النجاح)، في حين اعترف آخرون بأن التغيرات

التقنية والسكانية جعلت استطلاع الرأي الدقيق مسعى صعب المنال، قالت خبيرة استطلاع الآراء باربرا كارفالو (Barbara Carvalho) لموقع فايف ثيرتي إيت (المخصص هو نفسه لاستطلاع الآراء): «إن قصة إخبارية عن خطأ استطلاعات الرأي أكثر تشويقًا من تلك التي تصيب فيها استطلاعات الرأي)، لكن اعترف مستطلع الآراء ماثيو تواري (Matthew Towery) في العام 2015: «مَن الواضح أنه قد وقعت فواجع كبيرة عدة في السنوات الثلاث المنصرمة»[21].

المشكلة هنا لا تتعلق كثيرًا باستطلاع الآراء -الذي تقتصر دقته بمدى المشاركة البشرية الفعلية- بقدر ما تتعلق بما يتوقعه النَّاس من استطلاع الآراء، إن استطلاع الآراء ليس ضمانًا مكتوبًا بالنتائج المستقبلية، فعدد من الأشياء بداية من الأحداث غير المتوقعة وصولًا إلى الإعلان يمكن أن تغير الآراء، وكما هو الحال في مساعي الخبراء الأخرى كافة، فإنَّ معيار الكفاءة يكمن في التوجه الإجمالي، وما إن كان الخبراء يمحصون أخطاءهم بحرص، وبالمثل، فأمام كل منتج مثل «نيو كوك» تُوجد آلاف التنبؤات بالمنتجات الناجحة التي تنطلق في الأسواق والحملات الإعلانية الدقيقة، لكن كما هو الحال دائمًا، فلا يتذكر النَّاس إلا التوقعات السيئة - خاصة إن لم يحبوا النتائج- بينما يتجاهلون شتى النجاحات الأكثر عددًا.

يتوقع النَّاس الكثير من تنبؤ الخبير، لكن بعض الخبراء على الأقل مستعدون أيضًا للاعتماد على استبصارهم بما يكفي من القوة ليبيعوه، فعلى مدار سنوات كان أستاذ العلوم السياسية

بروس بوينو دي ميسكيتا (Bruce Bueno de Mesquita) يستخدم «برنامج الخصائص» للتنبؤ بأحداث عالمية لكل من العملاء العامة والخاصة، ومن بين عملاء شركته لأكثر من ثلاثين عامًا وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التي ذكرت في دراسة في العام 1993 أنه «أصاب كبد الحقيقة» في مئات التنبؤات ضعف ما حققه محللوه.

لم يتسنَّ لخبراء آخرين أن يتثبتوا من ادعاءات بوينو دي ميسكيتا، حيث إن أساليبه ونماذجه محمية بصفتها ملكية عمل، وليست معروضة في دراسات منشورة، أو حسبما ذكر في ملف صحيفة نيويورك تايمز في العام 2009:

> في حين أنَّ بوينو دي ميسكيتا نشر عديد من تنبؤاته في الدوريات الأكاديمية، فإن الغالية العظمى من تنبؤاته كانت طي الكتمان لصالح الشركات أو العملاء الحكوميين، حيث لا يمكن لأي أكاديميين مستقلين التحقق منها. قال [أستاذ جامعة هارفارد ستيفين] والت: «ليست لدينا فكرة إن كان قد أصاب تسع مرات من أصل عشر أو تسع من أصل مئة، أو تسع من أصل ألف».
>
> كذلك فإن والت ليس معجبًا بدراسة وكالة المخابرات المركزية التي تظهر إصابة تنبؤات بوينو دي ميسكيتا بمعدل 90%. قال والت: «أحد الموظفين البيروقراطيين من الدرجة المتوسطة في وكالة المخابرات قال: 'كانت أداة مفيدة،' ليس الأمر كأن لديه برنت سكوكروفت (Brent Scowcroft) يقول: 'بالعودة إلى إدارة بوش، لم نتخذ أي قرار دون استشارة بوينو دي ميسكيتا'»[22].

ومع أنَّ دقة تنبؤات بوينو دي ميسكيتا مجهولة، فالنقطة الأهم أنه يُوجد سوق رحب لتنبؤاته تلك، فالمؤسسات التي لديها خطوة كبيرة على المحك -حيوات أو أموال أو كلاهما - تشرع في عمليات بحث بشراهة عن المعلومات قبل الإقدام على أي مخاطر. والخبير الذي يقول: إن في استطاعته اختلاس النظر إلى المستقبل سيكون مطلوبًا دائمًا ممن يعرض مشورة محدودة أكثر.

يُدفع المال لمستطلعي الآراء مثل بوينو دي ميسكيتا للتنبؤ بأشياء، ويرجع إلى عملائهم تحديد قيمة عملهم. لكن يتنبأ أيضًا خبراء آخرون ومفكرون مشاهير، وهذه الإخفاقات العديدة في تنبؤات الخبراء كان لها أكبر الأثر في تقويض ثقة العامة بالأكاديميين والمحترفين. وعندما يعود الأشخاص الذين لم يقوموا بالتنبؤ بنهاية الاتحاد السوفييتي -أو وعدوا بأن حربًا شاملة على العراق ستغدو نصرًا سائغًا- ليسدوا مزيدًا من النصائح حول قرارات تتعلق بالموت والحياة، يكون تشكك العامة متفهمًا حينئذٍ.

إذا نحينا جانبًا موضوعًا ما إذا كان ينبغي على الخبراء التنبؤ أو لا، فستظل مشكلة أنهم يتنبؤون بالفعل عالقة أمامنا، وعادة ما تكون تنبؤاتهم سيئة إلى حدٍّ مذهل، في دراسة قرأت على نطاق عريض عن أحداث «البجعة السوداء» -اللحظات غير المتوقعة التي يمكن أن تغير التَّاريخ- وصف نسيم نقولا طالب «الغطرسة المعرفية» لكل أعمال التنبؤ.

> لكننا نتصرف وكأن في استطاعتنا التنبؤ بالأحداث التَّاريخية أو حتى أسوأ من هذا، وكأننا قادرون على تغيير مسار التَّاريخ. إننا نتوقع لثلاثين عامًا مقدمًا بخصوص العجز في الضمان الاجتماعي وأسعار الوقود، وليس في استطاعتنا حتى التنبؤ بهذه الأمور للصيف القادم.. إن أخطاء توقعاتنا المتراكمة بخصوص الأحداث السياسية والاقتصادية متوحشة جدًا إلى درجة أنه في كل مرة أنظر إلى السجل التجريبي ينبغي عليَّ أن أقرص نفسي لأتأكد أني لا أحلم[23].

إنَّ تحذير طالب من دوام حالة عدم اليقين ملاحظة مهمة، لكن إصراره على تقبل عدم جدوى التنبؤات غير عملي، فالبشر لن يستسلموا ويتخلوا عن أي احتمالية لاستخدام الخبرة كواقٍ استباقي.

السّؤال ليس ما إن كان ينبغي على الخبراء المشاركة في التنبؤات، فسوف يفعلون. فالمجتمع الذي يعيشون فيه والقادة الذين يحكمونه سيطلبون منهم فعل هذا. لكن عوضًا عن هذا، فالسّؤال هو: متى وكيف ينبغي على الخبراء التنبؤ؟ وما يفعلونه حيال هذا حينما يخطئون؟

في العام 2005 جمع الأكاديمي فيليب تيتلوك (Philip Tetlock) بيانات حول تنبؤات الخبراء في علم الاجتماع، واكتشف ما شك فيه عدد من النَّاس: «عندما نجعل الخبراء يدخلون في صراع ديكة ضد أقل معدلات مؤشرات الأداء - الغاوين والشمبانزي رامي السهام وخوارزميات الاستقراء المتجانسة- نجد قليلًا من العلامات على تحويل الخبراء هذا

إلى قدرة أعظم إما لتنبؤات 'محسوبة بدقة' أو 'حصيفة'»[24]. يبدو أن الخبراء ليسوا أفضل في التنبؤ بالمستقبل من عجلة مقامرة الروليت الدائرة، فالنتائج المبدئية لتيتلوك عن عدد من النَّاس أكدت الشك بأن الخبراء لا يعرفون بحق ما يفعلونه.

لكن ردة الفعل هذه على عمل تيتلوك كانت من الحالات المُعتادة لسوء فهم العوام للخبرة، أو كما ذكر تيتلوك نفسه: «رحب المشككون الأصوليون بتلك النتائج، لكن انتابهم الضيق الشديد عندما بدأنا نكتشف أنماطًا من الاتساق بخصوص من يتنبأ بماذا الصواب، يخبرنا المشككون الأصوليون ألا نتوقع شيئًا، لكن كشفت البيانات مزيدًا من الاتساق في تعقب المتنبئين للسجلات بأكثر مما يمكن أن ينسب إلى المصادفات»[25].

إن تيتلوك في الواقع لم يقارن بين الخبراء وسائر النَّاس في العالم، لكن جعلهم في مقارنة مع مؤشرات أداء أساسية، خاصة تنبؤات الخبراء الآخرين، وليس السّؤال ما إذا كان الخبراء لا يفوقون أي شخص آخر في التنبؤ، لكن السّؤال لماذا يبدو بعض الخبراء أفضل في التنبؤ من آخرين، وهو سؤال مختلف بالكلية، أو حسبما أشار جيمس سوروييكي (James Surowiecki) (مؤلف كتاب «حكمة الحشود»)، فإن القول: بأن «التنوع المعرفي» مهم -أي أن الآراء المختلفة يمكن أن تكون أفضل من واحدة -لا يعني أنك لو «حشدت جماعة من النَّاس المختلفين، لكنهم جاهلون تمامًا، فإن حكمتهم الشاملة ستكون أذكى من حكمة الخبير»[26].

ما اكتشفه تيتلوك فعليًا ليس أن الخبراء لا فضل لهم على المخمنين العشوائيين، لكن هناك أنواع محددة من الخبراء تبدو أفضل في تطبيق المعرفة بخصوص الفرضيات عن زملائهم، وقد استخدم تيتلوك تشبيه المفكر البريطاني أشعيا برلين (Isaiah Berlin) بين « قنافِذ» و«الثعالب» للتفريق بين الخبراء الذين كانت معرفتهم واسعة وشاملة («يعرف الثعلب عديد من الأشياء») عن أولئك الذين لا تتعدى خبرتهم مجالًا ضيقًا وعميقًا («لا يعرف القنفذ إلا موضعًا واحدًا»).

إنَّ دراسة تيتلوك إحدى أهم الأعمال التي كُتبت على الإطلاق حول كيفية تفكير الخبراء، وتستحق قراءتها بأكملها، لكن في العموم يمكن تلخيص إحدى أكثر النتائج المثيرة للفضول التي توصل إليها بالقول: في حين أن الخبراء يعانون مشاكل عند محاولة الانتقال من التفسير إلى التوقع، فإن «الثعالب» في العموم يفوقون «القنافذ» في أدائهم لأسباب عدة.

فالقنافذ مثلًا تميل إلى التركيز الشديد على تعميم معرفتهم المحددة على مواقف خارج مجال كفاءتهم، في حين تكون الثعالب أفضل قدرة على دمج مزيد من المعلومات وتغيير رأيها عندما تقدم إليها بيانات جديدة، توصل تيتلوك إلى أن «نمط تفكير الثعالب المنتقد للذات الذي يطرح النقطة وعكسها، يحول دون انهماكها في درجة كبيرة من الحماس حيال تنبؤاتها التي تبديها القنافذ، خاصة أصحاب المعرفة العالية»[27].

إن الخبراء التقنيين الذين يجسدون تمامًا القنافذ يعانون

مشكلة كبيرة لا تتعلق بالتنبؤ فحسب، لكن مع بسط نطاق قدرتهم لمعالجة المعلومات خارج مجالهم في العموم، إن الأشخاص المحصورين في مجال معرفي محدد للغاية ليس لديهم عدد من الأدوات خارج نطاق تخصصهم، ولذلك يخبرهم حدسهم بأن يأخذوا ما يعرفونه ويعممونه على كل ما يخرج عن نطاقهم، مهما كان التفاوت بين مجالهم والموضوع الذي يتناولونه[28]. وتنتج عن هذا تنبؤات تقال بقدر أعلى من الثقة، لكنها تميل إلى أن تكون مخطئة أحيانًا كثيرة، في الغالب؛ لأن العلماء، بصفتهم قنافذ تقليديين، لديهم صعوبة في تقبل المعلومات ومعالجتها إن كانت خارج مجال خبرتهم الضيق تمامًا وإن كان بالغ التعقيد.

تُوجد بعض الدروس في كل هذا، ليس للخبراء فحسب، لكن للعوام الذين يحكمون -بل حتى يتحدون- تنبؤات الخبراء.

النقطة الأهم أن التنبؤات المخطئة لا تعني الكثير من حيث الحكم على الخبرة، عادة ما يغطي الخبراء تنبؤاتهم (وجزء كبير من تفاصيلها) بالمحاذير؛ لأن العالم بأكمله مليء بالحوادث التي لا يمكن توقعها، والتي يمكن أن تصبح لها تأثيرات تموج كبيرة في المستقبل، يمكن أن يتغير التَّاريخ بأحداث طارئة وبسيطة مثل أزمة قلبية أو إعصار، لكن يميل العوام إلى تجاهل تلك المحاذير، مع أهميتها، تمامًا كما يتجاهلون مقدم نشرة الأرصاد الجوية عندما يقول: إنه من المتوقع أن تمطر السماء بنسبة 70%، فإذا ما وقعت احتمالية الثلاثة من عشرة وكان اليوم مشمسًا، فسيعتقدون أن مقدم النشرة مخطئ.

ليس الهدف من هذا حل الخبراء من تبعية الإخفاقات الهائلة في استبصارهم، خاصة مجتمعات الخبراء، ففي حين أنه لم يتمكن أي خبير في الشأن السوفييتي في سبعينيات القرن العشرين من التنبؤ بسقوط الاتحاد السوفييتي بحلول العام 1991، فإن تصلب رأي الخبراء حول الرأي المضاد - بأن انهيار الدولة السوفييتية مستحيل عمليًا- كان خطأ فادحًا في حكمهم الذي ينبغي أن يطارد هذا المجال. (للأسف، لم يحدث هذا؛ فعلى مدار عشرين عامًا، استحى معظم المختصين في الشأن الروسي من تفنيد أخطاء بعضهم بعضًا).

إلا أن الفشل في التنبؤ لا يجرد الخبراء بأثر رجعي من ادعائهم بالمعرفة أكثر من عامة النَّاس، فيجب على العامة عدم القفز إلى الافتراضات بأن إحدى الاستنتاجات الخاطئة من الخبراء تعني بالتبعية أن الآراء كافة صالحة بالتساوي (أو عديمة القيمة بالتساوي). إن خبير استطلاعات الرأي نيت سيلفر (Nate Silver) الذي بنى سمعته بتنبؤات دقيقة جدًا في انتخابات في العام 2008 و2012، اعترف منذ ذلك الحين بأن تنبؤاته عن المرشح الرئاسي الجمهوري دونالد ترامب (Donald Trump) في العام 2016 كانت بناءً على افتراضات معيبة[29]، لكن بصيرة سيلفر تظل قائمة في الانتخابات الأخرى، حتى وإن أدهشته ظاهرة ترامب هو وآخرين. أو كما ذكر لاحقًا كاتب العمود نواه روثمان (Noah Rothman): «أوضح ترامب أنَّ عددًا من القواعد التي أمضى المحترفون السياسيون مسيرتهم المهنية فيها وهم يدرسونها لم تكن تنبؤية هذا العام، لكن مقولة 'كل شيء

عرفناه عن السياسات كان مخطئًا' لا تستبدل 'لا نعرف شيئًا عن السياسة'»[30].

إذا طلب من الخبراء تحمل مسؤولية أسوأ التنبؤات بخلاف خبراء آخرين هو أمر مختلف. لكن عند صياغة الأسئلة على هيئة تنبؤات بـ: نعم أو لا، وذكر أن العامة يمكن أن يكونوا مصيبين بنفس معدل الخبراء يلعب دورًا جوهريًا في سوء فهم دور الخبرة نفسه. في الواقع، يعد طرح مثل هذه الأسئلة غير المتمايزة من الأسباب التي تعفي الخبراء من المسؤولية. مثلًا تُوجد مزحة قديمة عن موظف بريطاني في الخدمة المدنية الذي تقاعد بعد مسيرة مهنية طويلة في وزارة الخارجية، والتي امتدت لمعظم القرن العشرين. قال الموظف الدبلوماسي: «في كل صباح كنت أذهب إلى رئيس الوزراء وأطمئنه بأنه لن توجد حرب عالمية اليوم، ويسعدني القول بأنه طوال مسيرتي المهنية على مدار 40 سنة لم أخطئ سوى مرتين»، وبالحكم على عدد الإصابات والإخفاقات، فهذا العجوز لديه سجل رائع جدًا.

إنَّ هدف مشورة وتنبؤ الخبير ليس الفوز في قرعة العملة التي تُلقَى في الهواء، بل مساعدته في اتخاذ قرارات حيال الأحداث المستقبلية المحتملة، إن طرح سؤال في العام 1980 عما إذا كان الاتحاد السوفييتي سيسقط قبل العام 2000 هو سؤال بـ: نعم أو لا. وإذا طرح سؤالًا خلال الأعوام السابقة عن أفضل طريقة لتحقيق انهيار الاتحاد السوفييتي بسلام واستبدال احتمالية هذا الحدث (وتقليل فرص الآخرين) هو أمر مختلف تمامًا.

وبالنظر إلى خلفيتي الخاصة في الدراسات السوفييتية، ربما

يتساءل قارئ يقظ عند تلك المرحلة إن كنت جزءًا من مجتمع الخبراء السوفييت الذين فهموا خطأ أو أشاغب من المقاعد الخلفية بالفصل فحسب، وهو سؤال منصف.

لم أُخطِئ في فهم انهيار الاتحاد السوفييتي، لكن هذا فقط لأنه لم تواتِني الفرصة لأكون مخطئًا في المقام الأول، فقد تخرجت في كلية الدراسات العليا آخر العام 1988، عندما صار من الواضح بالفعل أن انهيار الاتحاد السوفييتي بات وشيكًا. عوضًا عن هذا انتظرت لعشر سنوات أخرى قبل أن أرتكب خطأ فادحًا حول السياسات الروسية، أعرف مخاطر التنبؤات السيئة؛ لأني تنبأت خطأ من قبل وهو ما يجب عليَّ تحمل مسؤوليته.

في بداية العام 2000 كتبت أن ظهور قائد روسي جديد البيروقراطي المجهول الذي يُدعى فلاديمير بوتين (Vladimir Putin)، ربما يكون فعليًا خطوة على طول الطّريق نحو مزيد من الدّيمقراطية في روسيا، وبالطبع ما كنت لأخطئ أكثر من هذا، فقد اتضح أن بوتين مستبد وظل تهديدًا مستمرًا على السلام العالمي. أما لماذا كنت مخطئًا، فسيبقى سؤالًا يستنزف جل أعمالي ومناقشاتي مع زملائي، خاصة الذين يشاركوني الرأي. هل استغفلنا بوتين في العام 2000، أم كنا محقين في تفاؤلنا، لكن بوتين نفسه تغير مع مرور الوقت وفاتتنا الفرصة، أم حدث شيءٌ ما داخل الكرملين، ما يزال خفيًا على الغرباء إلى الآن الذي ورط قادة روسيا كافة في مسار الأوتوقراطية والعدوان العالمي؟

بالنسبة للعوام لا يهم هذا كثيرًا، فهل يجب أن يكون مهمًا؟ عندما ضغط عليّ لأصل إلى حكمٍ ما حيال بوتين (كما كان يحدث مع عدد منا في الشأن الروسي)، أدليت برأي محدد عوضًا عن تبني الرؤية الصبورة، وإن كانت أقل إثارة التي تفيد بأنه من الباكر جدًّا الإفصاح عن هذا. مع ذلك، في محاولة لفك خيوط ما يحدث في روسيا اليوم، فهل خطئي الجسيم لما تنبأت به منذ قرابة عشرين عامًا قبل ذلك يُقوِّض تحليلي ونصيحتي؟ ألم أعد قادرًا على مناقشة دوافع بوتين أكثر من أي عامي مطلع؟

كنت مخطئًا حيال بوتين، لكن تظل الحقيقة قائمة أن الشّخص المتوسط سيتورط فيما لا طاقة له به في محاولة منه لشرح تعقيد السياسات الروسية، أو حتى عندما يدرس محاضرة تمهيدية عن الموضوع. مع ذلك يظل سبب خطئي هو سؤال مهم، على الأقل؛ لأنه يجبرنا على مراجعة افتراضاتنا والمشاركة في المناظرة وتصحيح الذات الذي هو واجب مجتمع الخبراء. كان عدد كبير من النَّاس متفائلين ببوتين، لكن بعض من هذا لم يكن سوى رهاب من روسيا انعكاسي أو مجرد تخمين، ولا يجدي أي منهما في صناعة القرار السياسي. إن الحكم غير المدروس، حتى وإن كان صحيحًا، عادة ما يكون أقل نفعًا من الرأي الحصيف، وإن كان خطأ، إذ يمكن بعدها: فصله، وفحصه، وتصويبه.

إصلاح العلاقة:

تقع على عاتق الخبراء والعوام مسؤوليات عندما يتعلق الأمر بفشل الخبير، فينبغي على الخبراء عدم التبرؤ من أخطائهم، ويجب أن يعلنوها ويبدوا الخطوات التي يتخذونها لتصحيحها، أما العوام من جانبهم، فيجب أن يتعاملوا بحرص أشد عندما يطالبون الخبراء التكهن، ويجب أن يعلموا أنفسهم الفارق بين الفشل والاحتيال.

في العموم يفحص الخبراء أخطاءهم، لكن ليس في أماكن يحتمل أن ينظر إليها العوام، فالشّخص العامي لن يقرأ دورية طبية أو تحليلًا إحصائيًا لمقالة في علم الاجتماع. وللأمانة، أشك أن معظم الخبراء والأكاديميين سيفضلون على الأرجح أن يتجنب العامة فعل هذا؛ لأنهم لن يفهموا معظم ما كانوا يقرأونه، ويحاولون متابعة ما يُسفر عنه الجدال بين الخبراء ما ينتج عنه مزيد من الارتباك لدى العامة يفوق التنوير.

من الوارد حينئذٍ أن يتحمل المفكرون الذين يخاطبون العامة مزيدًا من المسؤولية، أي: من يرأبون الصدع بين الخبراء والعوام. فالعامة لا يستفيدون تمام الفائدة إن كان الأشخاص الوحيدون الذين يتحدثون عن سبل العلاج الجديدة لا يستطيعون ترجمة معرفتهم إلى اللغة الإنكليزية البسيطة (الذين ربما يكونوا منوطين بمنصبٍ ما)، أو صحفيين ليست لديهم خلفية علمية، ولا يمكنهم تقييم الادعاءات العلمية المعقدة. وهذا يترك فراغًا شاسعًا -عادة على الإنترنت- يملؤه الهواة وأصحاب الدسائس السياسية والدجالون وأصحاب نظرية المؤامرة.

عادةً ما يُسخر من المفكرين الذين يخاطبون العامة داخل مجال عملهم على أنهم مجرد «مبسطين للعامة»، وفي تلك التهمة بعض الحقيقة. فالعالم لا يحتاج على الأرجح إلى بيل ناي آخر («رجل العلوم») ليدلي بدلوه في التغير المناخي العالمي، كما أن مجتمع السياسة الخارجية ليس بحاجة إلى بيروقراطي سابق آخر أو ضابط جيش متقاعد صغير نسبيًا يملأ موجات الأثير بأفكار عميقة فقط؛ لأنه يُوجد الآن فائض من الوقت والنطاق الترددي في الإذاعة الذي يمكن ملؤه، لكن إذا زادت الفجوة بين العامة والخبراء، فسيتحدث الخبراء لبعضهم فحسب، وسينتهي المطاف بالعامة، وقد استبعدوا من القرارات التي تؤثر لاحقًا في حياتهم.

إلا أنَّ المواطنين لديهم أهم دور هنا، إذ يجب أن يعلموا أنفسهم ليس فقط عن المواضيع المهمة بالنسبة إليهم، لكن أيضًا عمن ينصتون لهم. أعتقد من جانبي أن تيتلوك شجع على تركيز النظر في سجلات المثقفين والخبراء كوسيلة لإجبارهم على تحسين مستواهم في إسداء المشورة، وعليه سيكون لديهم «دافع للمنافسة بتحسين قيمة (الحقيقة) المعرفية لمنتجاتهم، ليس فقط بالتودد إلى مجتمعات مشتركة المعتقد»[31].

لكن نشر سجل المثقفين السيئين سيشكل فارقًا فحسب إن كان النَّاس يعبأون ويولون اهتمامًا، وإن ظلوا متلقين سلبيين للمعلومات على شاشة التلفاز أو ظلوا يبحثون بفاعلية عن المعلومات التي يريدون تصديقها فقط، فلن يهم كثيرًا أي شيء آخر، عوضًا عن هذا ينبغي على العامة أن يطرحوا على أنفسهم

بعض الأسئلة المهمة، بما في ذلك مقدار ما يريدون تعلمه حيال الموضوع وما إن كانوا مستعدين حقًا لمواجهة الحقائق التي تزعزع معتقداتهم، يجب أن يطرحوا أسئلة أفضل حيال مصدر معلوماتهم، ويجب أن يتدبروا في خلفية الخبير الذي ينصتون إليه.

فلو أنَّ شخصًا عاميًا يريد بحق الاعتقاد بأن فيتامين (ج) يمكن أن يشفي من السرطان، فلن يكون للخبراء أي تأثير وإن كانت سجلاتهم حافلة بالأبحاث والتنبؤات مقارنة بموقع إلكتروني عليه صورة حبة دواء، إن كان المواطن غير المتعلم يعتقد بحق أنَّ غزو بلد (أو بناء حائط أمام بلدٍ آخر) سيحل مشاكل أمريكا، فلن تهمه رزمة كبيرة من كتابات الخبراء، وعلى العامة أن يتحملوا قدرًا أكبر من المسؤولية بخصوص معرفتهم، أو افتقارهم إليها: ليس عذرًا ادعاء أنَّ العالم معقد جدًا، وتُوجد مصادر عدة للمعلومات، كما أن رثاء هذا النهج في يد الخبراء المجهولين الذين يزدرون آراء العامة.

كما أن العامة بحاجة أيضًا إلى التعامل مع نصيحة الخبراء بقدر محدد يمزج بين التشكك والتواضع، أو كما كتب الفيلسوف بيرتراند راسل (Bertrand Russell) في مقال العام 1928، ينبغي على العامة أن يقيموا ادعاءات الخبير بممارسة منطقهم الحريص أيضًا.

إن الشكوكية التي أدعو إليها تتمثل فقط في هذا: (1) عندما يتفق الخبراء، فالرأي المعارض لا يمكن عدّه مؤكدًا. (2)

عندما لا يتفقون، فلا يمكن عد أي رأي مؤكدًا من غير الخبراء. (3) عندما يرتأون بأنه لا يوجد أساس كافٍ لوجود رأي إيجابي، فعلى الشّخص العامي أن ينصاع ويعلق حكمه.

لا تكفي معرفة ما يتفق عليه الخبراء، ومن المهم بنفس القدر قبول حدود هذا الاتفاق وعدم استنباط أي استنتاج يتعدى ما ترجحه آراء الخبراء.

علاوة على ذلك، على العوام أن يتقبلوا بأن الخبراء ليسوا صناع قرار سياسي.

يشور الخبراء على قادة وطنيين ولصوتهم ثقل يفوق صوت العامة، لكنهم لا يتخذون القرارات النهائية، ففي ظل نظام ديمقراطي، حتى وإن كانت جمهورية منظمة وبيروقراطية جدًّا مثل الولايات المتحدة، قلة من الخبراء هم صناع القرار السياسي المنفردون.

إن السياسيين، بداية من مجالس المدينة ووصولًا إلى الولايات المتحدة، لديهم القول النهائي بخصوص معظم القرارات المهمة في حياتنا، بداية من المخدرات إلى الردع. وإن رفض العامة أن يؤدوا واجباتهم بصفتهم مواطنين على محمل الجد، والإلمام بالمواضيع التي تهمهم، فستتشوه الدّيمقراطية وتضحى تكنوقراطية، إذ سينمو دور الخبراء افتراضيًا إلى الدرجة التي يخشاها العامة.

بالنسبة للعامة الذين يعملون بمشورة الخبراء، ويضعون

المحترفين في أدوارهم الملائمة كخادمين هم وليس سادة، فعليهم أيضًا تقبل حدودهم، لا يمكن للديمقراطية أن تجدي نفعًا عندما يغدو كل مواطن خبيرًا. أجل، إنه زهو بالغ عندما يعتقد الخبراء أن في استطاعتهم إدارة نظام ديمقراطي وتجاهل الناخبين؛ لكن من النرجسية الجاهلة أيضًا اعتقاد العامة أن في استطاعتهم الحفاظ على أمة كبيرة ومتقدمة دون الاستماع إلى أصوات من يفوقونهم تعليمًا وخبرة أكثر من أنفسهم.

كيف نصل إلى هذا التوازن، وبالتالي، نخفف حدة التصادم المُقلق بين الخبراء وعملائهم في المجتمع، هو موضوع الفصل التالي والأخير.

خاتمة

الخبراء والدّيمقراطية

«إنَّ من يتطلعون إلى حكم أنفسهم يجب أن يسلحوا أنفسهم بالقوة التي تهبها المعرفة».

جيمس ماديسون

«أحتفظ بحقي في أن أكون جاهلًا ، تلك هي طريقة الحياة الغربية».

فيلم: الجاسوس الذي جاء من البرد

«الخبراء فظيعين»

خلال الجدال الذي أُثير في سنة 2016 عما إذا كان ينبغي على المملكة المتحدة أن تغادر الاتحاد الأوروبي «البريكست» أو لا ، عدَّ مناصرو مغادرة الاتحاد الأوروبي أن الخبراء على وجه الخصوص -معظمهم كان يحذر أن البريكست فكرة فظيعة- أعداء للناخب العادي، وقد حاجج قائد في حركة البريكست اسمه مايكل جوف (Michael Gove) بأن الحقائق مهمة مثل مشاعر الناخب البريطاني. قال بتشامخ: «أعتقد أن النَّاس في هذا البلد فاض بهم الكيل من الخبراء».

لكن كما ذكر لاحقًا الكاتب الأمريكي وخبير السياسة الخارجية جيمس تراوب (James Traub) حول ترصد جوف للخبراء:

> إنَّ كلمة «خبير» ـ بالطبع ـ مصطلح ازدرائي لشخص يعرف ما يتحدث عنه، مثل: جوف على ما أعتقد الذي تخرج من أكسفورد وأمضى سنوات عمره وزيرًا في حكومات الحزب المحافظ، لكن ما كان يقوله جوف بالفعل أنه ينبغي للناس أن يكونوا أحرارًا في بناء خيالات سارة خالية من الحقائق المزعجة[1].

اقترح حتى نايجل فاراج (Nigel Farage) قائد حزب استقلال المملكة المتحدة الوطني أن «الخبراء» كانوا فعليًا استغلاليين، فيعملون لصالح الحكومة البريطانية، أو يُدفع لهم من الاتحاد الأوروبي نفسه[2]، وفي العام 2016 كان التصويت «بالمغادرة» أعلى قليلًا من 52% في استفتاء شعبي.

كان الهجوم على الخبراء جزءًا من استراتيجية تهدف إلى استغلال الأمية السياسية لعددٍ لا بأس به من الناخبين البريطانيين ونزعتهم إلى عدم الثقة في النخبة الفكرية التي تعارض بشدة البريكست، وخلال أيام - لكن مع حصر الأصوات بأمان- اعترف المؤيدون للبريكست أنَّ عددًا من ادعاءاتهم كان مبالغًا فيها أو حتى خاطئة، فقال على التلفزيون البريطاني السياسي البريطاني المناصر للبريكست دانيال هنان (Daniel Hannan): «بصراحة، إن كان المشاهدون يعتقدون

أنهم صوتوا، وإن نسبة الهجرة ستصل إلى الصفر من الاتحاد الأوروبي، فسيخيب ظنهم»، وقد استثارت تعليقات حفيظة الناخبين الذين اعتقدوا على ما يبدو أن مثل هذه السياسة هي ما اختاروه بالضبط، قال هنان: «لا يوجد حقًا بعض النَّاس الباعثين على السرور»، ثم أعلن أنه «سيبتعد عن تويتر لشهر»[3].

ما تزال أمام بريطانيا سنوات قادمة للخروج الفعلي من الاتحاد الأوروبي. مع ذلك، فإن المعاداة للفكر وعدم الثقة في الخبراء التي تتبع ذلك لعبت دورًا مباشرًا ومحوريًا في الولايات المتحدة خلال الحملة الرئاسية في العام 2016، وفي سباق بولاية ويسكونسن في العام 2016 شن المرشح الجمهوري دونالد ترامب هجومًا على الخبراء، ففي مناظرات سابقة عادة ما كان يمسك بترامب متلبسًا بكلمات خاطئة حول أمور أساسية في السياسة العامة، وها هو يشن هجومًا مضادًا الآن، فقال أمام أحد الحشود: «يقولون: إن ترامب ليست لديه خبرة، أو تعرفون، أردت دائمًا أن أقول هذا: إن الخبراء فظيعون، يقولون: إن ترامب بحاجة إلى مستشار في السياسة الخارجية... لكن إن افترضنا أنه ليس لديَّ هذا المستشار بالفعل، فهل سيكون الوضع أسوأ مما نحن عليه الآن؟»[4]

إن تهكم ترامب من الخبراء استغل معتقدًا أمريكيًا راسخًا بأن الخبراء والمفكرين لا يديرون حياة الأشخاص العاديين فحسب، بل أدائهم مريع أيضًا في عملهم هذا. إن صعود ترامب في العام 2016 كان نتيجة عوامل عدة، بعضها (مثل الملعب المزدحم الذي نتج عنه فائز بالأكثرية) محض ظروف فحسب،

إلا أنه مما لا شك فيه أيضًا أن انتصار ترامب في النهاية من بين أحدث الصيحات -وأكثرها دويًا- التي تعلن موت الخبرة الوشيك.

ضع في الحسبان شتى الطرق التي مثلت بها حملة ترامب حملة رجل واحد ضد المعرفة الراسخة، لقد كان أحد أوائل «المطالبين بشهادة الميلاد» الذين طالبوا باراك أوباما بإثبات جنسيته الأمريكية. وقد اقتبس من صحيفة ناشونال إنكوايرر بإشادة عادًّا إياها مصدرًا للأخبار، وناصر النشطاء المناهضون اللقاح، واعترف بأنه يتلقى معظم معلوماته عن السياسة الخارجية من «البرامج» التلفزيونية صبيحة يوم الأحد، وأشار إلى أن قاضي المحكمة العليا أنتونين سكاليا (Antonin Scalia) الذي توفي بأسباب طبيعية في أوائل العام 2016، ربما تعرض للقتل، واتهم والد أحد خصومه (تيد كروز (Ted Cruz)) بأنه تورّط في كل نظريات المؤامرة، اغتيال جون فيتزجيرالد كينيدي.

إنَّ الأخطاء الصريحة في الخطب السياسية تمثل خطرًا وظيفيًا على المرشحين السياسيين -مثلما ادّعى باراك أوباما عندما كان عضوًا بمجلس الشيوخ، إنه زار الولايات السبع وخمسين كلها- لكن جهل ترامب خلال الحملات الانتخابية كان متعمدًا ومعاندًا، لم تكن لديه أدنى فكرة كيف يجيب حتى على الأسئلة الأولية في السياسة، عوضًا عن الشعور بالخزي من افتقاره للمعرفة كان يبتهج بها، من ذلك إنه عندما سُئل عن الثالوث النووي، وهي ترسانة هائلة ستكون تحت تصرفه بصفته

رئيسًا للولايات المتحدة، قال ترامب: «يجب أن نكون يقظين جدًّا عندما يتعلق الأمر بالنووي، فالنووي يغير كل قواعد اللعبة». وعندما ضغط عليه ليفصح عما يعنيه، أضاف: «أعتقد.. أعتقد، بالنسبة لي إن النووي قوة، والتدمير مهم جدًّا بالنسبة لي».

لم تكن تلك زلات لسان، فعندما طلب من ترامب توضيح تعليقاته لاحقًا، تجاهلت إحدى المتحدثات باسم ترامب الموضوع بأكمله قائلة غير ذي صلة، فقالت كاترينا بيرسون (Katrina Pierson): إن ترامب كان شديدًا، وهذا كل ما يهم، وتساءلت: «ما النفع الذي يعود عليك إن كان لديك ثالوثًا نوويًا إن كنت خائفًا من استخدامه؟» كان الضيف المقابل لبيرسون محاميًا ومعلقًا سياسيًّا كورت شلختر (Kurt Schlichter)، وهو عقيد سابق بالجيش تخصصه العسكري في المواضيع الكيميائية والنووية الذي يعد من المحافظين المتشددين وفق أي معايير، من الواضح أن شلختر كان مذهولًا، فقال مشددًا على كلامه: «إن الغرض من الثالوث النووي أن تخشى استخدام هذا الشيء اللعين».

نجا ترامب من كل هذا، واستحوذ على ترشيح الجمهوريين وفاز؛ لأنه في النهاية كان مرتبطًا بنوع محدد من الناخبين الذين يعتقدون بأن معرفة أمور مثل الرادع النووي الأمريكي مجرد ثرثرة تصدع الرأس.

والأسوأ أن الناخبين لا يهتمون فحسب بأن ترامب جاهل أو

مخطئ، بل على الأرجح لم تكن لديهم القدرة على إدراك جهله أو أخطائه.

يعتقد عالم النفس ديفيد دانينج -الذي اكتشف منذ عهد بعيد هو وزميله جاستن كروجر تأثير دانينج- كروجر الذي يقول: من غير المرجح أن يدرك غير المتعلمين أو عديمو الكفاءة افتقارهم للمعرفة أو عدم الكفاءة- أن الآلية التي وصفوها كانت فعالة بين جمهور الناخبين، وربما حتى محورية لفهم الطبيعة الغريبة لانتخابات العام 2016:

> أشار عدد من المعلقين إلى أن زلات [ترامب] الواثقة هي نتاج النرجسية والأنا المزعومة لدى ترامب، لكن مأخذي على هذا أن العكس صحيح، فعدم رؤية الأخطاء على ما هي عليه تسمح بتمدد أي نرجسية وأنانية محتملة دون رقيب.
>
> إنَّ افتقار الناخبين للخبرة سيكون مدعاة للرثاء، لكن ربما لا يثير القلق كثيرًا إن كان لدى النَّاس بعض الحس عن مدى نقصان معرفتهم المدنية. وإن فعلوا هذا، يمكن أن يصلحوها. لكن يقترح تأثير دانينج-كروجر شيئًا مختلفًا. يقترح أن بعض الناخبين خاصة من يواجهون كربًا مهولًا في حياتهم، ربما يحبون بعض ما يسمعونه من ترامب، لكنهم لا يعرفون بما فيه الكفاية لتحميله مسؤولية الغلطات الخطيرة التي يقع فيها[5].

بعبارة أخرى، لا يتعلق الأمر بعذر مناصري ترامب له عندما تشدق بأكثر ادعاءاته جهلًا، لكن كما يقول دانينج: «لا يستطيعون إدراك تلك الغلطات، وأنها تعد زلات لسان».

لا عجب إذًا أنَّ أشد مناصري ترامب في العام 2016 كانوا مرتكزين بين أصحاب الدرجات الدنيا من التعليم، قال ترامب مبتهجًا بعدما ربح مجالس نيفادا الانتخابية: «أحب من تلقوا قدرًا ضئيلًا من التعليم»، ومن الواضح أن هذا الحب كان متبادلًا[6]. إنَّ الأمريكيين الذين يؤمنون بأن قوى الظلام تفسد حياتهم، وأن أي قدرة فكرية ظاهرة هي في حد ذاتها سمة مثيرة للشكوك في القائد الوطني وجدوا في ترامب بطلًا قوميًا، لكن من أين تخطر تلك الأفكار للناس، مثل: الاعتقاد بأن الصفوة السياسية وحلفاءهم المفكرين يتآمرون ضدهم؟

جزئيًا، ترافقهم هذه الأفكار بملاحظة سلوك الصفوة السياسية وحلفائهم الفكريين، وبعد شهر من قول ترامب مستهترًا بعدم جدوى الخبراء مثلًا، إذا بأحد مستشاري السياسة الخارجية الكبار للرئيس أوباما يؤكد بالضبط هذا النوع من الشكوك الذي أضرم نيران الهجوم على مشاركة الخبراء في السياسة الوطنية، حيث وصف ضغط إدارة أوباما على الكونغرس والشعب الأمريكي لقبول صفقة مع إيران على برنامج أسلحتها النووية، فقال بين رودس (Ben Rhodes) نائب مستشار الأمن القومي لمجلة نيويورك تايمز أن الإدارة عرفت بأنه سيكون عليها: «أن تصل إلى [كلمة نابية] من هذا الحوار».

أدلى رودس بهذا الحوار إلى مراسل تايمز ديفيد صامويلز (David Samuels) الذي تم التشكيك في موضوعيته (بشأن صفقة إيران، فضلًا عن بعض النَّاس الذين ذكرهم في المقال) عندما ظهرت القصة إلى العلن[7]. مع ذلك، فإن اعترافات رودس كانت

صريحة جدًا، وقد حدد بفخر أسماء خلايا تفكير وخبراء وصحفيين ادعى أنهم جزء من ضغط الإدارة من أجل تلك الصفقة.

«لقد صنعنا غرفة تأييد مغلقة»، هذا ما اعترف به، عندما طلبت منه أن يفسر الهجوم الضاري على الخبراء المستجدين الذين يناصرون الصفقة: «كانوا يقولون أشياء تثبت ما أمليناه عليهم ليقولوه».

وعندما سألت ما إذا كان أفق نفس هذا النوع من الحملات الدعائية تشنها إدارة مختلفة، فهذا شيء يخيفني، واعترفَ أنها كذلك. قال وهو يهز كتفيه: «أعني، أني أفضل مناظرة علنية عقلانية ورصينة، يتأمل بعدها أعضاء الكونغرس في الأمر ويصوتون، لكن هذا مستحيل»[8].

ليس غريبًا على كبار المسؤولين الحكوميين التأكيد على أن بعض المواضيع مهمة جدًا ومعقدة، بحيث لا يمكن تركها إلى المناظرة العامة، خاصة في الأمن القومي. كما أن المعاهدات السرية والحملات للفوز بالرأي العام جزء لا يتجزأ من تاريخ الحكومات الدّيمقراطية كافة، بما في ذلك الولايات المتحدة.

إلا أن ما يقوله رودس كان مختلفًا، وضرره أكبر بكثير على العلاقة بين الخبراء والسياسة العامة، فعليًا كان يتفاخر بأن الصفقة مع إيران قد بيعت بتزييف الجدال بين الخبراء أنفسهم، وباستغلال حقيقة أن وسائل الإعلام الجديدة، خاصة عند الصحفيين الشبان الذين استحوذوا على التقارير الوطنية، لا

يعرفون أفضل من هذا. قال رودس: «إن متوسط سن المراسل الذي نتحدث معه 27 عامًا، وتتشكل خبرتهم الوحيدة في التقارير الصحفية من كونهم جوار حملات سياسية، إنه تغير كالذي يعتري البحر، إنهم حرفيًا لا يعرفون شيء».

كان تلميح رودس واضحًا، إذ لم يعتقد فقط أن العامة أغبى من أن يفهموا الصفقة -التي لم تكن خاطئة، وإن لم يفعل رودس أي شيء ليجعلهم أكثر ذكاءً- لكن أن الميع، بما في ذلك الكونغرس، كانوا أغبى من أن يفهموها أيضًا. بالنسبة لرودس كان إفساد المناظرة بالمعلومات المضللة مجرد شرط أساسي لخير أعظم.

استغل ترامب ورودس جهل العامة بطرق مختلفة لخدمة مصالحهم الشّخصية، لكنهما اختلفا في الأساليب فقط: كان ترامب يسعى إلى السلطة خلال انتخابات العام 2016 بتحريك الناخبين الأشد غضبًا وجهلًا بين الناخبين، في حين أن رودس تحدث باستعراض عن الصفقة الإيرانية بالحديث عن سرد وهمي ليتداوله العامة وإهمال جمهور الناخبين بالكلية، بينما كان يفعل أفضل ما في وسعه سرًّا كما خُيِّل إليه وآخرين.

لا يمكن التسامح مع هذين الموقفين، إذ يُوجد قدر كبير من اللوم الذي يُلقى على عاتق الحالة المحفوفة بالمخاطر لدور الخبرة في الحياة الأمريكية، وهذا الكتاب تناول قدرًا كبيرًا منها، لقد لعب الخبراء أنفسهم دورهم إلى جانب المعلمين والصحفيين وشركات وسائل الترفيه وآخرين، مع ذلك تُوجد في النهاية مجموعة واحدة من النَّاس الذين ينبغي لهم تحمل

المسؤولية المطلقة لتلك الحالة في الشأن الجاري، وهم فقط من يستطيعون تغيير أي منها (مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية).

الخبرة والدّيمقراطية: دوامة الهلاك:

تعتمد الخبرة والحكومة على بعضهما بعضًا، خاصة في ظل النّظام الدّيمقراطي. فالتقدم التقني والاقتصادي الذي يضمن رفاهية النَّاس يتطلب تقسيم الأعمال الذي يؤدي بدوره إلى توفير مهن، والمهنية تشجع الخبراء على بذل قصارى جهدهم لخدمة عملائهم، واحترام حدودهم، والمطالبة بأن يحترم الآخرون حدودهم كجزء من خدمة شاملة للعميل الأكبر (المجتمع نفسه).

تطالب الأنظمة المستبدة أيضًا بنفس هذه الخدمة من الخبراء، لكنهم ينتزعونها بالتهديد ويوجهون استخدامها بالأوامر، ولهذا السبب، فإن النظم المستبدة أقل كفاءة وإنتاجية من النظم الدّيمقراطية، على الرغم من الخرافات التَّاريخية التي يواصل عدد من الأمريكيين الاعتقاد فيها عن الكفاءة المزعومة لألمانيا النازية والنظم السياسية الأخرى[9]. في كنف النّظام الدّيمقراطي، تكون خدمة الخبراء للعامة جزءًا من العقد الاجتماعي، فالمواطنون يفوضون سلطة اتخاذ القرار حيال مواضيع لا حصر لها لممثلين منتخبين ومستشاريهم الخبراء، بينما يطالب الخبراء من جانبهم أن تكلل جهودهم بأن يستقبلها بنية حسنة شعبًا علم نفسه أن يصدر أحكامًا متعقلة.

إن العلاقة بين الخبراء والمواطنين تُبنى على الثقة مثل العلاقات كافة تقريبًا في النّظام الدّيمقراطي، وإذا ما انهارت تلك الثقة، يصبح الخبراء والعامة فصائل متحاربة. وعند حدوث هذا، يمكن للديمقراطية نفسها أن تدخل في دوامة هلاك تمثل خطرًا وشيكًا للتدهور، إما إلى حكم الدهماء وإما إلى حكم تكنوقراطي من الصفة، وكلاهما نتيجتان سلطويتان، وكلاهما تهديد للولايات المتحدة اليوم.

لهذا السبب، فإن العلاقة بين الخبراء والمواطنين تسبب خللًا وظيفيًا للديمقراطية نفسها.

إنَّ الإلمام المعرفي العميق على الصعيدين السياسي والعام بين الشعب الأمريكي هو أساس كل تلك المشاكل، إنَّه التربة التي نمت فيها جذور الخلل الوظيفي وازدهرت، ولم تكن انتخابات في العام 2016 سوى أحدث التعبيرات عنه. أو حسب وصف الكاتب دانييل ليبيت (Daniel Libit) اكتشف خبراء السياسة العامة بالدولة أن السباق الرئاسي في العام 2016 كان «درسًا مثيرًا للإحباط إلى حدٍّ كبير في ضعف حصانة الناخب الأمريكي»[10]، لكن العلامات التحذيرية كانت مرفوعة قبل ذلك بوقت طويل.

حسب وصف الكاتبة سوزان جاكوبي (Susan Jacoby) في العام 2008، فإن أكثر الجوانب المزعجة في المسيرة الأمريكية نحو الجهل «ليس الافتقار إلى المعرفة في حد ذاته، بل العجرفة المقترنة بهذا الافتقار للمعرفة».

المشكلة ليست مجرد الأشياء التي لا نعرفها (فكر في واحد من أصل خمسة بالغين أمريكيين يعتقدون أن الشّمس تدور حول الأرض وفق مؤسسة العلوم الوطنية)، إنه رقم ينذر بالخطر عن عدد الأمريكيين الذين خلصوا بعنجهية إلى أنهم ليسوا بحاجة لمعرفة مثل هذه الأشياء في المقام الأول، إن هذا المزيج السام من مناهضة العقلانية مع الجهل يؤذي نقاشات السياسة العامة الأمريكية في مواضيع تتراوح بين الرعاية الصحية وتحصيل الضرائب[11].

ربما لم يحب الأمريكيون العاديون قط المحاضرات التعليمية أو الاحترافية كثيرًا، لكن حتى وقت قريب لم يكن منتشرًا ازدراؤهم لتعليمهم الفعلي وعدّه بالشيء السيئ في حد ذاته، بل ربما يكون من اللطف الشديد أن نطلق على هذا مجرد «مناهضة للعقلانية»، بل تكاد تكون ثورة مضادة التي تنأى بنا بعيدًا عن المعرفة المجربة، وتعود بنا إلى الحكمة الشعبية والخرافات التي تناقلتها الألسن.. باستثناء أنها تنتقل الآن بسرعة الإلكترونات.

هذا الهبوط المعرفي ونمو الجهل المتعمد جزء من حلقة مفرغة قوامها الانفكاك بين المواطنين والسياسة العامة، لا يعرف النَّاس إلا قليلًا، ويقل اهتمامهم بطريقة حكمهم، أو كيف يعمل هيكلهم: الاقتصادي، أو العلمي، أو السياسي فعليًا. مع ذلك، كون كل هذه العمليات صارت متعذرة الفهم أكثر، شعر المواطنون بمزيد من الاغتراب؛ ونظرًا لشعورهم بالإنهاك عزفوا عن التعليم والمشاركة المدنية، وانصرفوا إلى

مساعٍ أخرى. وهذا بدوره يجعلهم مواطنين أقل قدرة، وتستمر الحلقة المفرغة في الدوران وتزداد قوة، خاصة عندما يعزز شهية العامة على الهروب أي عدد من الصناعات الترفيهية.

إنَّ الأمريكيين (بل حتى نجد عددًا من الغربيين الآخرين، إن كنا سنتحدث بإنصاف) الذين غمرتهم الأجهزة ووسائل الراحة التي كانت ضربًا من الخيال ذات مرة حتى على مر حياتهم، صاروا تقريبًا مثل الأطفال في رفضهم تعلم أن يوجهوا أنفسهم أو المساهمة في توجيه السياسات التي تؤثر في حياتهم بما فيه الكفاية، وهذا انهيار للمواطنة الفعالة، ما يفتح الباب على مصراعيه لدفق من العواقب الوخيمة.

على سبيل المثال: في ظل غياب المواطن المتعلم، استحوذ قطاع أكبر من النخبة التي لديها القدرة المعرفية إداريًا وفكريًا على التوجه اليومي للدولة والمجتمع. وفي اقتباس عادة ما يستشهد به المحافظون الغربيون، ويحبه على وجه الخصوص التحرريون الأمريكيون، كتب عالم الاقتصاد النمساوي فريدريش فون هايك (F. A. Hayek) في العام 1960:

«إنَّ أعظم خطر على الليبرالية اليوم نابع ممن نحن في أمسّ الحاجة إليهم، والأقوى شكيمة في الحكومات المعاصرة، تحديدًا، الإداريون الخبراء أصحاب الكفاءة والمعنيون حصرًا بما يعدّونه صالحًا عامًّا»[12].

حتى أشد المفكرين تمسكًا بقناعاتهم في أنحاء الطيف الأمريكي سوف يتفقون مع هايك، فالبيروقراطيين غير المنتخبين

والمتخصصين في السياسة في عدد من المجالات لهم أكبر تأثير في الحياة اليومية للأمريكيين. أما اليوم، فهذا الموقف صار هو الوضع الافتراضي وليس مخططًا له. كما تُعزِّز الشعبوية فعليًا هذه النخبوية؛ لأن الاحتفاء بالجهل لا يمكنه إطلاق أقمار الاتصالات الصناعية إلى الفضاء أو التفاوض على حقوق المواطنين الأمريكيين في الخارج، أو توفير أدوية فعالة، وجميعها مهام شاقة يطالب بها حتى المواطنون الأكثر تهميشًا، ويطالبون بها كتحصيل حاصل. وفي المقابل انفك الخبراء أيضًا في مواجهة العامة ممن ليست لديهم فكرة كيف تعمل معظم الأشياء، واختاروا الحديث إلى بعضهم بعضًا وليس إلى العامة.

في حوالي ذلك، لدى الأمريكيين توقعات غير واقعية تزداد يومًا بعد يوم لما يمكن لنظامهم السياسي والاقتصادي أن يوفره. هذا الشعور بالاستحقاق هو أحد أسباب غضبهم المتواصل على «الخبراء»، وخاصة «النخبوية»، وهي كلمة يمكن أن تعني في اللهجة الأمريكية المعاصرة أي أحد تقريبًا تلقى أي درجة من التعليم، ويرفض مداهنة العامة في معتقداتهم الخاطئة، فإذا ما قيل: إن القضاء على الفقر أو منع الإرهاب أصعب كثيرًا مما يبدو عليه، يدير الأمريكيون أعينهم تململًا؛ لأنهم حين يعجزون عن فهم كل التعقيدات حولهم، يختارون عدم استيعاب أي شيء منه تقريبًا، ثم يلومون بوجهٍ مُتجهم من بعد ذلك: الخبراء، والسياسيين، والبيروقراطيين؛ لأنهم أحكموا السيطرة على حياتهم.

العارفون والمقررون:

هذا بدوره يبرز مشكلة أخرى تؤجج دوامة الهلاك التي تعلق فيها الدّيمقراطية والخبرة: المواطنون لا يفهمون أو يختارون عدم فهم الفارق بين الخبراء والسياسيين المنتخبين. بالنسبة لعدد من الأمريكيين، فإن كل النخب الآن مجرد جماهير من الأشخاص المتعلمة والثرية والقوية، وهذه سذاجة خالصة، فليس الأثرياء كافة أقوياء، وليس الأقوياء كافة أثرياء، ونادرًا ما يكون المفكرون أو الخبراء السياسيون أثرياء أو أقوياء. (ثق بي في هذا).

أيًا كان ما أخطأ فيه جورج دابليو بوش خلال فترته الرئاسية، فإنه كان محقًا عندما ذكر الأمريكيين بأنه عندما يتعلق الأمر بأفعال إدارته، فإنه هو «المقرر».

بإمكان الخبراء الاقتراح فحسب، وبعدها يتصرف القادة المنتخبون. في الواقع يكاد يكون خبراء القرار السياسي والقادة المنتخبون مجموعتين مختلفتين، ولا يمكن أن يكون الأمر غير هذا، فببساطة لا يُوجد عدد كافٍ من الساعات في اليوم من أجل أن يلم المُشرِّع بالمواضيع كافة التي يتطلبها القرار السياسي المعاصر حتى وإن كانوا في مجلس مدينة أو ولاية أمريكية صغيرة (ناهيك عن الساعات المتاحة لرئيس).

لهذا السبب يشرك صناع القرار السياسي الخبراء -والعارفين- ليُسدوا إليهم المشورة.

أحيانًا ما تفشل الشراكة بين المستشارين وصناع القرار السياسي، فالخبراء يخطئون ويشيرون على القادة السياسيون أن يسلكوا مسارات يمكن أن تنتج عنها كارثة، ويشير نقاد دور الخبرة إلى الصدمات الوطنية، مثل: حرب فيتنام كأحد الأمثلة على ذلك.

ومع فائدة الإدراك المتأخر، فإن هذه الانتقادات عادةً ما يُدفع بها وكأن مثل هذه الخيارات المؤلمة كان يمكن تجنبها إذا ما أخذ بمشورة حكمة المواطن العام.

لكن هذه الدعوة للركون إلى معرفة وعصمة العامة مجرد هراء حالم، اعترف إيفان توماس (Evan Thomas) الصحفي وكاتب السّيرة الذاتية لريتشارد نيكسون (Richard Nixon) أن «الأفضل والألمع» نجد من بينهم أكاديميين، مثل» هنري كيسنجر (Henry Kissinger)، و«المؤسسات» مثل: وزير الدفاع روبرت سترانج ماكنامارا (Robert S. McNamara)، «كانت أبعد ما تكون عن المثالية»، وإنهم «يتحملون لائمة ما حدث في فيتنام والثمانية وخمسين ألف جندي أمريكي الذين لقوا حتفهم هناك، ناهيك عن ملايين الفيتناميين»[13]. لكن كما يشير توماس، فنفس هؤلاء الخبراء والنخبة «عززوا النّظام العالمي الذي كان يتأرجح على حافة حرب نووية، لقد وسّعوا نطاق التجارة، ووطدوا التحالفات، وتعهدوا بتمويل المساعدات الخارجية بالمليارات».

وما كانت أي سياسة من تلك السياسات لتشتهر من تلقاء نفسها، لكنها ساعدت الولايات المتحدة والغرب على النجاة

من حرب باردة والوصول إلى نهاية سلمية. والأهم، ما أنواع السياسات التي كان يمكن لغير الخبراء أو الشعبويين أن يختاروها؟

تحدى توماس القراء أن «يقارنوا أخطاء ستينيات القرن العشرين بالأوقات التي سمح فيها جورج واشنطن بتحديد السياسات الخارجية حسب الإجماع الشعبي».

> في ثلاثينيات القرن العشرين، أنهى الكونغرس التجارة الحرة لحماية الصناعة الأمريكية، واستمع إلى الناخبين الذين أرادوا جيشًا أقل تعدادًا وتكلفة بدون أي تحالفات متشابكة والنتائج، أسهمت تعريفة سموت هاولي في الكساد العظيم، وتسبب إخفاق عصبة الأمم في صعود الفاشية والحرب العالمية.

وهذا يوضح نقطة مهمة، في الحاضر والمستقبل كان الأمريكيون يميلون إلى التفكير في مواضيع مثل سياسة الاقتصاد الكلي والعلاقات الخارجية فقط عندما تسوء مجريات الأمور. وباقي الوقت كانوا ينعمون بعدم الدراية بالسياسات والعمليات التي تسير على أكمل وجه كل يوم، بينما تدير الأمة عملها.

مع ذلك يبقى السّؤال إذا ما كانت أمريكا حقًا بحاجة إلى كل هؤلاء الخبراء، خاصة عندما تصبح نصيحتهم منتشرة جدًّا، وتشمل عددًا كبيرًا من النَّاس إلى درجة أنه لا يوجد شخص يبدو مسؤولًا عندما تقع الكارثة.

من وجهة نظري دعا آندرو باسيفيتش (Andrew Bacevich) إلى قهر طبقة الخبراء المعاصرة، على الأقل في السياسة العامة:

> إنَّ المفكرين السياسيين -المتفيهقين الذين يفترضون مسبقًا أنهم يرشدون الفانين المرشحين فعليًا لمنصب الرئاسة- هم وبال على الجمهورية. مثل بعض الكائنات المجتاحة، غزوا واشنطن المعاصرة، حيث تسبب حضورهم في خنق الحس العام وجعل القدرة البسيطة على استيعاب الحقيقة على وشك الانقراض.
>
> إنَّ المظهر الحميد -الأنواع المتأنقة التي تشهد أمام الكونغرس أو الكلام الطنان في الصحف والتلفاز، أو حتى شغل مناصب رئيسة في وزارة الخارجية- يكمن وراءه تأثير خبيث. إنهم مثل سمك الشبوط إذا ما أُطلِق له العنان في البحيرات العظمى[14].

المفارقة هنا أنَّ باسيفيتش نفسه مُؤلّف غزير الإنتاج وضابط عسكري كبير سابق وأستاذ متقاعد يقترح من آنٍ لآخر تعليمات محددة جدًّا لنفس مجموعة الفانين. مع ذلك، لديه وجهة نظر: فضلًا عن خمسمائة أو ستمائة من صناع السياسة في الدرجات العليا بالحكومة الأمريكية، يوجد آلاف الخبراء خلفهم ربما لا يكونون بارعين في الواقع فيما يفعلونه.

لا يمكن للخبراء أن يتفادوا مسؤولياتهم هنا، فلا يمكن للعارفين أن يختبئوا فحسب خلف مسؤولين منتخبين في كل مرة تسوء فيها الأمور، عندما تخبر العامة أن يتركوهم وشأنهم

ويعاقبوا متخذي القرار عوضًا عن هذا. عندما يخفق الخبراء، يحتاج القادة الذين وثقوا في مشورتهم نيابة عن العامة إلى البت في أمر فشلهم وإقرار نوع الإصلاح الواجب فعله.

أحيانًا يكون تصحيح فشل الخبير بلجنة التقييم المُبجَّلة وتوصياتها، وأحيانًا تتمثل الإجابة في مُجرد طرد شخصٍ ما. إلَّا أنَّ فيليب تيتلوك اقترح في عمله الإبداعي طرقًا أخرى ربما يحمل بها الخبراء مسؤولية أكبر دون إفساد العلاقة بأكملها بين الخبراء والعامة. توجد احتمالات عدة بما في ذلك مزيد من الشفافية والتنافس، حيث يجب على الخبراء في أي مجال أن يحتفظوا بسجلات لعملهم، ويذكروا بصراحة عدد المرات التي كانوا فيها على صواب أو خطأ، وتكون لديهم دوريات علمية فعلية وجامعات وحراس آخرون يحملون أقرانهم مسؤولية الأخطاء بمعدلات أكبر. وسواءً أكان هذا سيفلح أم لا، فموضوع آخر، ويقر تيتلوك بالحواجز العديدة لهذه الحلول.

أما أصعب الحواجز على الإطلاق، فهو كسل العامة، فلن يهم كثيرًا أي حل من تلك الحلول في تعقب وتقييم الخبراء إذا لم يهتم المواطنون بما فيه الكفاية بتطوير اهتمام بسيط بهذه الأمور. يشير تيتلوك إلى أن العوام للأسف لا يهتمون عادة بالبحث عن خبراء لديهم سجلات ممتازة، بل في الغالب يهتمون بالخبراء الذين يمكن الوصول إليهم بدون قدر كبير من الجهد، ويتفقون بالفعل مع وجهات نظرهم. أو كما ذكر تيتلوك وهو مُحق في ذلك، إنه من غير الكافي تشجيع القابلية للمحاسبة بين «مقدمي المنتجات الفكرية» إن كان «العملاء غير

متحفزين ليكونوا حكامًا للدعاوى المنافسة والدعاوى المضادة».

ربما يكون هؤلاء العملاء أقل اهتمامًا «بالسعي المجرد من العاطفة نحو الحقيقة أكثر من دعم أحكامهم المسبق»، وعندما يحدث هذا، يتعامل العامة مع دور الخبرة «بنفسية الحلبة الرياضية، وليس غرفة الندوات»[15].

إنَّ الخبراء بحاجة إلى تحمل مسؤولية مشورتهم ومحاسبة بعضهم بعضًا. لأسباب عديدة -تكدس الدرجات الأكاديمية، وفقدان الاهتمام من العامة، وعدم القدرة على مواكبة الإنتاج المعرفي في عصر المعلومات- إنهم لم يرتقوا لهذا الواجب بالضمير الحي الذي تتطلبه مكانتهم الاجتماعية المميزة. يمكنهم تحسين أدائهم، حتى وإن لم تُلحظ تلك الجهود عمومًا.

تُوجد معايير يمكن للخبراء اتباعها لتحسين قابلية مساءلتهم، لكن ثمة مواضيع أخرى في العلاقة مع العامة خارجة عن سيطرتهم. فالعامة بحاجة للتفكير في الطرق التي يسيئون فيها فهم دور مشورة الخبير في جمهورية ديمقراطية، ومن بين سوء الفهم الذي ينتاب العامة حيال الخبراء وصناع القرار السياسي، تُوجد خمس نقاط تستحق أن توضع في الحسبان.

أولًا: الخبراء لا يحركون الدُّمى، إذ لا يمكنهم السيطرة عندما يأخذ القادة بمشورتهم، حتى في أقرب العلاقات بين السياسي المنتخب والمستشار الخبير، لا يوجد تطابق تام بين المعتقدات. سواءً أكان نيكسون أو كسنجر -أم أوباما ورودس- لا يوجد قائد مجرد أداة ينفذ بها الخبراء أفكارهم.

إن أي خبير يستحق لقمة عيشه مر بقصص من الهزائم في لعبة السياسة، منذ سنوات عدة كنت مساعدًا لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الكبار الذي عاملني كمستشار مؤتمن، لكنه ذات مرة طردني من مكتبه بوابل من الشتائم على إثر اختلاف على المبادئ في الأيام العصيبة التي أدت لحرب الخليج في العام 1991. في حين أنه عادة ما يُوجد تشابه في هوية المصالح والرؤى بين القائد السياسي وطاقم العمل الخبير، فصانع السياسات أو المسؤول المنتخب عليه ضغوط، وتقع على عاتقه مسؤوليات لن يشعر بها الخبير على الإطلاق، والصراع حتمي.

ثانيًا: لا يمكن للخبراء التحكم بالكيفية التي يُنفِّذ بها القادة مشورتهم، وتلك المشكلة التي تواجه الخبراء أشبه بقصة «مخلب القرد». (ربما يتذكر قراء «مخلب القرد»، تلك القصة الشهيرة التي كتب بداية القرن العشرين عن تعويذة سحرية تحقق الأمنيات بأسوأ الطرق: عندما يتمنى صاحب الشّخصية الرئيسة في القصة مالًا، فيأتي على هيئة تعويض عن موت ابنه)، يمكن للخبراء أن يشوروا على صناع السياسة بما يفعلونه، لكن ربما يعمل بمشورتهم بطرق لم تكن في نيتهم قط، فعالمة الاقتصاد مثلًا التي هي أيضًا عالمة بالبيئة ربما تؤمن أن تخفيض الضرائب فكرة سديدة، ربما تجد لاحقًا أن مشورتها عمل بها عوضًا عن هذا من الكونغرس الذي يريد تخفيض الضرائب على الوقود.

ثالثًا: ليس بإمكان أي خبير بمفرده أن يوجه سياسة بداية من فكرة لتصل إلى مرحلة التنفيذ، وهي حقيقة عادة ما يعدها

العامة محيرة ومثيرة للإحباط، ولهذا السبب، فإن التحليل السياسي هو انضباط أكاديمي محض في حدّ ذاته، خاصة في دراسة المؤسسات الكبرى مثل الحكومات والشركات. ربما يتفق العارفون ومتخذو القرار على ما يريدونه، لكن المؤسسات أسفل منها مثل المشاركين في لعبة «هواتف» كبيرة، فيمكن تشويه السياسات المقصودة ويحولونها إلى شيء آخر، وبتأثيرات مفسدة عندما يُؤتى المشروع أكله.

رابعًا: لا يمكن للخبراء التحكم في مقدار ما يعمل به القادة من مشورتهم، بإمكان الخبراء إسداء المشورة، لكن عادة ما يسمع القادة السياسيون فقط الأجزاء التي يودون سماعها.. تحديدًا الأجزاء التي تحظى بشعبية لدى الدوائر الانتخابية الخاصة بهم، ثم حشد الخبراء الذين يؤكدون الرسالة التي يفضلونها. يمكن مثلًا لبعض الخبراء أن يوصوا بتخفيض الضرائب؛ في حين يقوم بدعوة آخرين إلى زيادة الإنفاق على المشاريع المفضلة التي تتراوح بين شبكة السلامة الاجتماعية والدفاع القومي. وكل الموقفين -تخفيض الضرائب وزيادة الإنفاق- ربما يكون لهما أسس منطقية، لكن لا يمكن تبنيهما في الوقت ذاته، مع ذلك لا يمكن للخبراء التحكم في حقيقة أن السياسيين ربما يؤيدون الخيارات كافة على أي حال، حتى وإن كانت متضاربة مع بعضها. (أما المجموعة التالية من الخبراء التي تُستدعى، فسيُطلب منها أن تحل لغز عجز الميزانية الهائل).

لكن للأسف، إن الشأن العام على نفس المنوال، عندما

استُبعِد اختصاصيو التغذية البيض من قائمة المتهمين بالجريمة الغذائية، لم يكن في نيتهم أن يطلب النَّاس وجبات سريعة من شطائر البيض في كل صباح كجزء من فطورهم الصحي، فالنَّاس يستمعون إلى ما يريدون الاستماع إليه، ثم يتوقفون عن الإنصات، وعندما يتبنون مشورة ليست سديدة من خبير وتسفر عن عواقب وخيمة، يلومون الخبراء على عدم أهليتهم؛ لأنه على الجميع أن يلوموا شخصًا ما.

في النهاية، يمكن للخبراء أن يقدموا بدائل فحسب، ولا يمكنهم على أي حال الاختيار بين القيم، يمكنهم أن يصفوا مشاكل، لكن لا يمكنهم إخبار النَّاس عما يريدون فعله حيال المشاكل، حتى وإن كان يوجد اتفاق عريض حول طبيعة تلك التحديات.

هل يتغير مناخ الأرض؟ هذا ما يؤمن به معظم الخبراء، ويؤمنون بمعرفتهم للسبب. لكن ثمة مساحة منطقية يمكن الجدال فيها حول دقة نماذجهم التي استقرأوها على مدار عقود وقرون، أما ما لا يمكن للخبراء الإجابة عليه، فهو ما يمكن فعله حيال التغير المناخي. من المحتمل كثيرًا أن تغمر المياه بوسطن أو شنغهاي أو لندن خلال خمسين عامًا، لكن يحتمل كثيرًا أيضًا أنَّ الذين لديهم الحق في الخطأ سيختارون توريث تلك المشكلة إلى الأجيال القادمة عوضًا عن المخاطرة بوظائفهم (أو راحتهم) الآن.

بإمكان الخبراء أن يقولوا للناخبين ما هو متوقع حدوثه، لكن على الناخبين الاشتراك في تلك المواضيع وتقرير أكثر ما

يقدرونه، وبالتالي، ما يريدون فعله. وترك بوسطن لتنزلق في المحيط ليس بالنتيجة التي أفضلها، لكن ليس خطأ الخبرة إذا ما تجاهل النَّاس الخبراء، وجعلوا هذا يحدث على أي حال: بل إنه خطأ التفاعل المدني. إن أصبحت بوسطن مثل فينيسيا، فيجب أن يصبح هذا باختيار وليس مُصادفة، وعندما يصبح الناخبون غير مستعدين لفهم المواضيع المهمة؛ لأنها صعبة أو متعبة جدًا، فمن غير المُدهش أن يستسلم الخبراء، وألا يتحدثوا معهم، بل يعتمدون على مناصبهم في عالم السياسة للدفع بحلولهم الخاصة.

أحيانًا يُسدي الخبراء بمشورة سيئة أو يقترفون أخطاء، لكن لا يمكن للمجتمع المتقدم وحكومته أن يؤدوا عملهم دونهم، مهما كان ما يعتقده العدد المتزايد من الأمريكيين.

إن تجاهل مشورة الخبير ليس خيارًا واقعيًا ببساطة، ليس بسبب تعقيدات اتخاذ القرار السياسي؛ لأن فعل هذا يعني حل المواطنين من تبعية مسؤولياتهم في التعلم حيال المواضيع التي تهم مباشرة عافيتهم، علاوة على ذلك، عندما لا يعود في استطاعة العامة التفريق بين الخبراء ومتخذي القرار السياسي، ويريدون فقط لوم الجميع في عالم السياسة على النتائج التي تزعجهم، فلن تفضي النتيجة النهائية إلى سياسة أفضل لكن تسييسًا أكثر للخبرة، لن يتوقف السياسيون عن الاعتماد على الخبراء، لكنهم مع ذلك سيعتمدون على الخبراء الذين يخبرونهم أيًا كان ما يريدون سماعه والعامة الغاضبون الذين يقرعون أبواب مكاتبهم.

وهذا أسوأ العوالم على الإطلاق، حيث تفسد الدّيمقراطية والخبرة؛ لأن القادة الدّيمقراطيين ومستشاريهم الخبراء يريدون التورط مع ناخبين جهلاء، عند تلك المرحلة، لا تستمر الخبرة في خدمة المصلحة العامة، لكن مصلحة العصبة السياسية التي تتجسس ردود فعل العامة أيًّا ما كانت وفي أي لحظة، إننا بالفعل على مقربة إلى درجة خطيرة من هذه النتيجة في أمريكا المعاصرة.

جمهورية، إن كنت تعرف ما تعنيه تلك:

إنَّ تحديات قابلية محاسبة الخبراء تكون مصحوبة بحقيقة أن معظم الأمريكيين لا يبدو أنهم يفهمون نظام حكومتهم. الولايات المتحدة جمهورية وليست ديمقراطية. ونادرًا ما عاد يسمع المرء كلمة «جمهورية»، وهو ما يفصح بعض الشيء عن الدرجة التي يخلط بها الأمريكيون المعاصرون بين «الدّيمقراطية» كفلسفة سياسية عامة مع «الجمهورية» التي تعد إحدى أشكال الحكومات المُعبِّرة عنها.

يُفترض أن بنجامين فرانكلين سُئل في العام 1787 عما سيسفر عنه الاجتماع الدستوري المنعقد في فيلادلفيا، فرد فرانكلين: «جمهورية، إن كان في استطاعتكم الحفاظ عليها»، واليوم، فإن أكبر تحدي هو إيجاد أي شخص يعرف ماهية الجمهورية بالفعل.

وهذا أمر حاسم؛ لأن العامة ينسون بسهولة أن الشكل الجمهوري للحكومة الذي يعيشون في رحابه لم يكن مقصده أن

يتخذ الجماهير قرارات بشأن المواضيع المعقدة. وبالطبع لم يكن مقصده حكم مجموعة صغيرة من التكنوقراط أو الخبراء. بل كان مقصده أن يكون وسيلة يمكن للناخبين المطلعين - المطلعين هي الكلمة الرئيسة هنا- من خلال اختيار أناس آخرين ليمثلوهم في اتخاذ القرارات نيابة عنهم.

ربما يكون الفكر الأمريكي التقليدي متأصلًا في مجد أثينا، لكن لم يكن المقصد على الإطلاق أن تغدو الولايات المتحدة مثل السوق الأثيني من قريب أو بعيد، وينبغي للأمريكيين أن يمتنوا لهذا، أو كما أشار الكاتب مالكوم جلادويل (Malcolm Gladwell) في العام 2010، فإن المؤسسات الكبرى لا تتخذ قرارات باستطلاع رأي كل من بداخلها، مهما كان مقدار ما يبدو عليه الأمر من «ديمقراطية».

> تستخدم شركات السيارات بعقلانية شبكة لتنظيم مئات المُورّدين لهم، لكن ليس في تصميم سياراتهم، ولا أحد يؤمن أن أفضل طريقة للتعامل مع فلسفة تصميم مُتماسكة تكون بالنّظام المؤسسي المنبطح عديم القيادة؛ لأن الشبكات ليست فيها هيكل قيادة مركزية وخطوط سلطة واضحة، بل يصعب فيها الوصول إلى إجماع ووضع أهداف. ولا يمكنهم التفكير بعقلية استراتيجية؛ بل يكونون عرضة إلى الصراع والخطأ المزمنين.
>
> فكيف يمكن أن تتخذ خيارات صعبة حول الأساليب أو الاستراتيجية أو التوجه الفلسفي إن كان الجميع متساوين في قولهم؟[16]

هذه واحدة من التحديات العديدة التي صُممت الحكومة الجمهورية لأجل تخطيها. حتى عندما يعرف معظم النَّاس ما يفعلونه في مجال كفاءتهم، فلا يمكنهم الزج بقراراتهم لتنتج عنها سياسة عامة متماسكة بالطّريقة ذاتها التي يخمنون بها وزن ثور، أو يحاولون تحديد السعر المستهدف لسهم.

إنَّ حل الجمهورية يتيح لمجموعة أقل من النَّاس تلبية الطلبات الإجمالية للعامة المُتعذر حلها غالبًا.

لكن تحديد ما يريده العامة فعليًا أصعب بأضعاف مضاعفة عندما تنعدم كفاءة الناخبين في أي موضوع من المواضيع المثارة، يشتكي العامة من دور الخبراء، ويطالبون بانخراطهم أكثر في الأسئلة الوطنية المعقدة، لكنَّ عددًا منهم يعبر عن غضبه فقط، ويحدد هذه المطالب بعد تنازلهم عن دورهم المهم في تلك الأثناء: على وجه الدقة أن يبقوا مطلعين ومثقفين سياسيًا بما فيه الكفاية لاختيار ممثلين يمكنهم اتخاذ إجراءات نيابة عنهم. أو حسب تعبير إيليا سومين (Ilya Somin): «عندما ننتخب مسؤولين حكوميين بناءً على الجهل، فإنهم لا يحكمون مَن صوتوا لهم فحسب، بل يحكمون المجتمع بأسره. وعندما نمارس السلطة على الآخرين، يكون لدينا التزام أخلاقي أن نفعل هذا باطلاع بقدر معقول على الأقل»[17].

ليس هذا مجال للتأمل في الشكل الأمريكي للديمقراطية الممثلة، خاصة أنه يوجد عدد من نسخ «أوراق الفيدراليست» التي ما زالت متاحة، لكن موت الخبرة وما يرتبط بها من الهجوم على المعرفة يُقوِّض جوهريًا نظام الحكومة الجمهوري،

والأسوأ من ذلك أن تلك الهجمات عبارة عن حملات يشنها أقل القادرين أن يحلوا محل هذا النّظام.

إنَّ الأقل اطلاعًا من بيننا هم من يبدون أنهم الأكثر نبذًا للخبراء، ويطالبون بأعظم قول في أمور متعلقة بأشياء لم يبذلوا فيها أي جهد تقريبًا ليعلموا أنفسهم.

تدبر في حقيقة أن النَّاس يغيرون ما يقولون: إنهم يريدونه بناءً على مَن يعتقدون أنه يؤيد موقفًا، ومرة أخرى كانت السخرية من نصيب جيمي كيميل هنا: أوقف النَّاس في الشارع وسألهم إن كانوا يفضلون الخطط الضريبية التي تعرضها هيلاري كلينتون أو دونالد ترامب.

مع ذلك لم يعرف مَن أجريت معهم المقابلة أنَّ كيميل استبدل تفاصيل كل خطة، أو كما قالت صحيفة ذا هيل لاحقًا: إن الإجابات اعتمدت على من يعتقد النَّاس أنهم يؤيدونه: «بالتأكيد شعر المصوتون لكلينتون بالذهول عند اكتشافهم أنهم شهدوا بصحة مقترح خصمها»، وحينما قيل لأحد الرجال: إنه يدعم خطة ترامب وليس خطة كلينتون قرر أن يعدل عن رأيه: «حسنًا، أنا أؤيد دونالد ترامب إذًا»[18].

وكما اتضح، فإن دهاء كيميل يوضح فعليًا حقيقة كانت معروفة منذ عهد بعيد لمستطلعي الآراء وخبراء الحملات، فعادة ما يكون الناخبون أكثر اهتمامًا بالمرشحين وشخصياتهم أكثر من أفكارهم أو سياساتهم. من هنا عبّرت عن هذا مديرة استطلاعات الرأي بموقع هافينجتون بوست الإخباري أريئيل إدواردز ليفي (Ariel Edwards- Levy):

> إنَّ الأمريكيين بصرف النظر عن وجهات نظرهم السياسية، ليس لديهم رأي قاطع حيال كل موضوع على حدة عن مجريات العصر، خاصة عندما يتعلق بموضوع معقد أو غامض. ومن المنطقي أن يستند النَّاس إلى تشيعاتهم، فلو أنَّ سياسيًّا يدعمونه يؤيد مشروع قانون على الأرجح سيعتقدون أنها فكرة سديدة أو العكس بالعكس[19].

عندما نفذت ليفي وزملاؤها نسخة رسمية أكثر لمقلب كيميل هذا، اكتشفوا الشيء ذاته: إن الجمهوريين الذين يختلفون بشدة مع الحزب الدّيمقراطي بشأن الرعاية الصحية وإيران والتمييز الإيجابي كان اعتراضهم يقل كثيرًا إن اعتقدوا أن السياسات ذاتها يتبناها دونالد ترامب، أما الدّيمقراطيون من جانبهم، فقد سلكوا الاتجاه الآخر، كانوا أقل دعمًا لسياسات حزبهم إن اعتقدوا أنها سياسات ترامب.

على الأقل سياسات الضرائب والرعاية الصحية مواضيع حقيقية ومرتبط بها مواقف حقيقية، لكن في استطلاع للرأي العام سألت جماعة استطلاع ليبرالية في العام 2015 كل من الجمهوريين والدّيمقراطيين إذا ما كانوا يدعمون قصف لدولة عقربة (Agrabah)، فأجاب ثلث الجمهوريين بأنهم سيدعمون مثل هذا القرار، وعارض 13% فقط، أما البقية، فلم يكونوا متأكدين. وفي المقابل كان الدّيمقراطيون أقل ميلًا للتدخل العسكري: إذ دعم القصف 19% فقط ممن يعرفون أنفسهم بأنهم ديمقراطيون في حين أن 36% أعلنوا معارضتهم بحسم.

لا وجود لدولة عقربة، إنها مدينة خيالية ذكرت في فيلم

الرسوم المتحركة لديزني (علاء الدين)، وقد نعق الليبراليون بأن استطلاع الرأي هذا دليل على جهل وعدوانية الجمهوريين، في حين رد المحافظون بحجة مضادة أن هذه التجربة تظهر فقط كيف أن الدّيمقراطيين يعارضون بردة فعل انعكاسية أي تدخل عسكري مهما تدنى مقدار معرفتهم بالموقف، لكن بالنسبة للخبراء لم تكن هناك أي طريقة للتحايل على الحقيقة الإجمالية التي صورت في استطلاع الرأي هذا، حتى وإن كانت عرضية: 43% من الجمهوريين و55% من الدّيمقراطيين لديهم رأي محدد فعلي عن قصف مكان من أفلام الرسوم المتحركة [20].

بعض هذه الألعاب غير منصفة بالنسبة للعامة، فالأشخاص العاديون مشغولون بكسب لقمة عيشهم، وليس التفكير فيما إن كان يتلاعب بهم من مستطلعي الرأي أو أصحاب المقالب الهزليين، مثل: كيميل (أو المذيع بقناة فوكس الإخبارية جيسي واترز (Jesse Watters) الذي طرح سؤالًا سريعًا مماثلًا في الشوارع). هذا حقيقي على وجه الخصوص عندما يعرض على الناخبين «الأوجه كافة» المواضيع في الإعلام دون أي إشارة إلى أي من المواضيع تعد أكثر موثوقية عن الأخرى، أو حسب تعبير عالم النفس ديريك كولر (Derek Kohler):

> إنَّ الإجراء الحكومي يتم توجيهه جزئيًا بالرأي العام، والرأي العام يوجه جزئيًا باستيعاب ما يعتقده الخبراء، لكن ربما ينحرف الرأي العام -وعادة ما يحدث هذا- عن رأي الخبير، ليس ببساطة على ما يبدو؛ لأن الرأي العام ربما لا يكون قادرًا على تحديد أين يكمن رأي أغلب الخبراء[21].

إنَّ أحد البرامج مثلًا التي فيها عالم واحد يقول بأن الكائنات المعدلة وراثيًا آمنة، وأحد النشطاء الذين يقولون بأنها خطيرة تبدو «متزنة»، لكن في الواقع هذا انحراف؛ لأن قرابة تسعة من أصل عشرة علماء يعتقدون أن الكائنات المعدلة وراثيًا آمنة للاستهلاك.

في مرحلةٍ ما وسط كل تلك المشاحنة، يستسلم العامة ببساطة ويعودون للاعتماد على مصادر المعلومات الأبسط، حتى وإن كانت مجرد صورة هازئة على فيسبوك.

لكن على أي حال ليس هذا بعذر لجهل المواطنين وانفكاكهم، وخاصة لمناصرة الأحزاب بتعصب التي تجعل النَّاس يغيرون آراءهم حيال السياسة فقط؛ بسبب من يؤيدونهم. لو لم تكن للعامة أي فكرة عن جوهر موضوعٍ ما، وسيصوتون بناءً على من يحبونه عوضًا عما يريدونه، من الصعب إلقاء كثير من اللوم على صناع القرار السياسي ومستشاريهم الخبراء؛ لكونهم أنفسهم مرتبكين. كيف يمكن لجمهورية أن تسير بفاعلية لو لم يكن في استطاعة من أرسلوا ممثليهم للبت في أسئلة عن الحرب والسلام لا يعرفون الفارق بين: عقربة، أو أوكرانيا، أو سوريا؟

بعبارة أخرى: عندما يدّعي العامة أنهم ضللوا أو تم التعتيم عليهم، ولا يسع الخبراء وصناع السياسة إلا أن يسألوا: «أنى لك أن تعرف؟».

عندما يتجاهل العامة الخبرة ويعلنون أنهم سأموا من كل

شيء وكل شخص، فإنهم ينسون أن النَّاس الذين انتخبوهم مازال ينبغي عليهم اتخاذ قرارات كل يوم حيال عاصفة مستمرة من القضايا. وهؤلاء المسؤولين ليست لديهم رفاهية إلقاء اللوم على الخبراء واستطلاعات الرأي، ومن ثم العودة إلى: أجهزة التلفاز، والحواسيب، وأجهزة التحكم في الألعاب. يجب أن يتعاهدوا، أحيانًا بحياتهم ودائمًا بالمال، على كل شيء بداية من حق الملاحة ووصولًا إلى رعاية الطفل. وهذه القرارات وكيفية تطبيقها ستؤثر في حياة المواطنين كافة، المُطّلع فضلًا عن الجاهل، المُشارك والمُنفك.

إنَّ اهتزاز الثقة بين العامة والخبراء والمسؤولين المنتخبين في الجمهورية يسير في الاتجاهات كافة. والعامة على وجه التحديد بحاجة أن يكونوا قادرين على الثقة في القادة ومستشاريهم الخبراء. لكن يصعب الحفاظ على هذه العلاقة على أي حال عندما لا تكون لدى العامة أي فكرة عما يتحدثون عنه أو ما يريدونه.

وعندما تهتز تلك الثقة، يمكن لجهل العامة أن يتحول إلى سلاح سياسي بالتلاعب المتهكم. إنَّ معاداة الفكر في حد ذاته وسيلة لإفشال الدّيمقراطية؛ لأن الدّيمقراطية المستقرة في أي ثقافة تعتمد على فهم العامة لتداعيات خياراتهم. إن معظم العامة الذين يشكون بالفعل في الفصول التعليمية، يكفيهم قليل من التحريض ليثوروا ضد الخبراء.. حتى وإن كان هؤلاء الثوار يقودهم مفكرون آخرون للمفارقة.

سأل الرئيس فرانكلين روزفلت مستمعي المذياع في العام 1942 أن يذهبوا لشراء خرائط، بحيث يتابعون معه وهو يتلو عليهم تطورات الحرب العالمية الثانية. سرعان ما بيعت الخرائط في أنحاء البلاد. وبعد أقل من خمسة وستين عامًا بعد ذلك كشفت دراسة وطنية في العام 2006 أن قرابة نصف الأمريكيين في الفئة العمرية بين ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين عامًا -أي: من يرجح أن يخوضوا غمار حرب- لم يعتقدوا أنه من الضروري معرفة موقع الدول الأخرى التي تقع فيها أحداث إخبارية مهمة[22]. وبعد ذلك بعقد، خلال انتخابات العام 2016 ابتهجت الحشود بدونالد ترامب عندما لخّص نهجه مع الإرهاب في الشرق الأوسط: «سأقصفهم إلى أن ينفجروا بالبراز، سأفجر الأنابيب ومعامل تكرير النفط، سأنسف كل بوصة، لن يتبقى أي شيء».

إنها جمهورية إن استطعت الحفاظ عليها، أو إن استطعت أن تجدها على خريطة.

أنا جيد مثلك تمامًا:

الشيء الأخير والأكثر إزعاجًا أن مواطني النظم الدّيمقراطية الغربية والأمريكيين على وجه الخصوص لم يعودوا يدركون مفهوم الدّيمقراطية نفسه، وهذا على الأرجح هو أكثر شيء جعل العلاقة تتدهور بين الخبراء والمواطنين. إن العلاقة بين الخبراء والمواطنين ليست «ديمقراطية».

والنَّاس كافة لا يمكن ولن يكونوا أبدًا متساوين في موهبتهم أو ذكائهم. مع ذلك، فإن المجتمعات الدّيمقراطية دائمًا ما يغريها أن تحتد في الإصرار على المساواة الذي يصبح جهلًا مستبدًا إذا ما ألقي لهم الحبل على الغارب.

وللأسف، فإن هذه هي حالة أمريكا المعاصرة، فلم يعد المواطنون يفهمون أن الدّيمقراطية تعني حالة من التساوي السياسي التي يحصل فيها شخص واحد على صوت واحد، وكل فرد فيه على قدم المساواة في أعين القانون. عوضًا عن هذا، يفكر الأمريكيون الآن في الدّيمقراطية كحالة من المساواة الفعلية التي يكون فيها كل رأي جيدًا مثل أي رأي آخر في أي موضوع تقريبًا تشرق عليه الشّمس، إن المشاعر أهم من الحقائق: لو اعتقد النَّاس أن اللقاحات مضرة أو اعتقدوا أن نصف الميزانية الأمريكية تذهب للمساعدات الخارجية، لكانت معارضتهم «نخبوية» و«تتنافى مع الدّيمقراطية».

هذه المشكلة ليست جديدة، وليست بفريدة أيضًا على الولايات المتحدة، ففي الماضي حذر الكاتب الأمريكي سي. إس. لويس (C. S. Lewis) من خطر الدّيمقراطية عندما لم يعد في استطاعة النَّاس إدراك أي اختلاف بين المساواة السياسية والمساواة الفعلية، في مقالة مستفيضة كتبها في العام 1959 التي تتحدث عن أحد أشهر أعماله الأدبية، عن شيطان داهية وخبيث اسمه: «سكروتيب».

بصفته أحد أكبر الموظفين في جهنم، دعي سكروتيب لإلقاء خطاب افتتاحي في كلية الجحيم التدريبية للغاوين الجدد. وفي

أثناء خطابه يتغاضى سكروتيب عما يعدّه عملًا كاسدًا للإغواء الفردي، ويجري مسحًا على المشهد العالمي عوضًا عن هذا. وفي حين إنه كان نافرًا من التقدم البشري (بما في ذلك نجد الثورتين الفرنسية والأمريكية وإلغاء العبودية من بين لحظات أخرى)، فإنه يرى أملًا كبيرًا -لكلية الجحيم، وليس للبشر- في أسر مفهوم الدّيمقراطية والحياد به عن معناه السامي.

«إنَّ الدّيمقراطية كلمة ينبغي أن تجعلك تأخذ بنواصيهم»، هكذا نصح سكروتيب الخريجين بابتهاج، ثمَّ يعد بهذا بعد ذلك باستخدام كلمة «صاف كالتعويذة»، يمكن خداع البشر ليس فقط للإيمان بكذبة واضحة، لكنها تؤدي إلى تعزيز تلك الكذبة كشعور حميم:

الشعور الذي أعنيه هو بالطبع ذاك الشعور الذي يشجع أحد الرجال على قول: أنا جيد مثلك.

> لا أحد يقول: إنه جيد مثلك، ويؤمن بهذا، فلن يقولها إن كان يؤمن بها، فكلب من سلالة سانت برنارد لا يقولها أبدًا لدمية على هيئة كلب، ولا يقولها الأكاديمي للأبله، ولا القادر على العمل للمتشرد، ولا المرأة الجميلة للعادية. إن ادعاء المساواة خارج المجال السياسي الصارم، لا يطالب به إلا من يشعرون بأنهم نوعًا ما منحطون. ما يعبر عنه هذا هو بالضبط ذلك الإدراك المزعج واللاذع والمتلوي بالانحطاط الذي يرفض أن يتقبله [البشر].
>
> وبالتالي، يحتدون، أجل، يحتدون من كل أنواع التفوق لدى الآخرين، فيشوهونه ويتمنون تحطمه[23].

إنه نفس التحذير الذي قاله خوسيه أورتيجا إي جاسيت عندما كتب (تمردُ الجماهير) في العام 1930: «إنَّ الجماهير ينسحقون تحت وطئهم، كل شيء مختلف، وكل شيء ممتاز وفردي ومؤهل ومختار. وأي شخص لا يشبه سائر النَّاس ولا يفكر كسائر النَّاس فيخاطر بأن يستبعد»[24].

«أنا جيد تمامًا مثلك»، هكذا قال سكروتيب ضاحكًا في نهاية خطابه: «جملة تقال لتدمير المجتمعات الدّيمقراطية».

وهكذا هو الحال، عندما يطالب العامة الحانقون بتكافؤ علامات الإنجاز كافة وتساويها، بما فيها الخبر، وذلك باسم: «الدّيمقراطية» و«الإنصاف»، فلا أمل إذًا في الدّيمقراطية أو الإنصاف. يصبح كل شيء مسألة وقت، وتصبح الآراء كافة على أدنى درجة شائعة وبالتساوي ذاته، إن تفشى السعال الديكي؛ فلأن جهولًا لم يلقح طفلًا هو علامة تسامح، وانهيار تحالف خارجي؛ لأن أحد الانفصاليين المحليين لا يمكنه العثور على أمم أخرى في أطلس كل هذا انتصار لمبدأ المُساواتيّة.

صارت الدّيمقراطية بالكيفية التي تمارس بها في الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين عملًا حانقًا وغاضبًا. إنَّ الأنا الهشة لطلبة الكليات النرجسيين تباري الهوية الذاتية الغاضبة والجريحة لمدمني البرامج الحوارية الإذاعية التي تطالب جميعها بأن تأخذ بالتساوي على محمل الجد من سائر النَّاس، مهما كانت رؤاهم متطرفة أو جاهلة. يخشى من الخبراء بصفتهم نخبويين، من المجموعات التي يشتهر عنها ظاهريًا

القول المتعسف: «نحن النَّاس»، وهو مصطلح يستخدمه الناخبون الآن بلا تمييز، ويعني في الغالب «أنا».

إنَّ نصيحة الخبير أو أي نوع من التشاور عن اطلاع من أي شخص يعدّه العامة من النخبة -أي: القول: بأن هذا يشمل الجميع تقريبًا سوى أنفسهم- يكون مرفوضًا كمبدأ في الصدارة، ولا يمكن لأي نظام ديمقراطي أن يسير على هذا المنوال.

ثورة الخبراء:

لا أنوي الانتهاء من هذا الكتاب بهذا الكلام المتشائم، لكني لست واثقًا إن كانت أمامي خيارات كثيرة، يمكن تجاوز معظم أسباب الجهل، إذا كان النَّاس مستعدين للتعلم، لكن لا شيء على أي حال يمكن أن يتجاوز ذلك المزيج المسمم من العجرفة والنرجسية والتهكم الذي يرتديه معظم الأمريكيين الآن مثل حلة كاملة من درع مُصفح ضد جهود الخبراء والمحترفين.

ولم يعد في الإمكان للحلول التقليدية أن تفلح، فالتعليم عوضًا عن كسر الحواجز لاستمرار التعليم يدرس للشباب أن مشاعرهم أهم من أي شيء آخر.

إن «الذهاب للكلية» بالنسبة لعديد من الطلاب مجرد تمرين واحد إضافي لتوكيد الذات الشّخصي، أما وسائل الإعلام التي تغوص في وحل المنافسة على المستويات كافة، فتسأل العملاء

الآن ما يودون معرفته عوضًا عن إخبارهم بما هو مهم، أما الإنترنت، فنعمة ممتزجة، نبع من المعلومات المسممة بما يساوي التخريب الفكري.

وعندما يواجه الخبراء بجهل العامة المطبق، فإنهم يهزمون. يقول ديفيد أوتور (David Autor) عالم اقتصاد العمل بمعهد ماسوتشستس للتكنولوجيا: «عدد منا يشعرون بقلة الحيلة أمام هذا، نشعر أن بإمكاننا تدريب طلابنا، لكن طلابنا ليسوا من العامة، ولا نعرف كيف نعلم العامة. أما أستاذ جامعة ييل دان خان (Dan Kahan)، فكان أكثر تشاؤمًا، حيث قال في العام 2015: «إنَّ قصف النَّاس بوابل من المعرفة لن يساعد، بل لا يفعل أي شيء لشرح الأشياء للناس، لكن ها أنا هنا أشرح فحسب الحقائق مرارًا وتكرارًا. ربما أنا موضع السخرية».

إحدى الإشارات التي تعطي أملًا أنه على ما يبدو أن الخبراء يتمردون ضد الهجمات على خبرتهم. على سبيل المثال: عندما شجب جيمس تراوب (James Traub) نتائج البريكست، قال صراحة: حان الوقت للمدافعين عن الليبرالية الغربية التقليدية «أن يتمردوا على الجماهير الجاهلة»[26]. بالطبع، فعل هذا يعني المخاطرة بمواجهة الاتهام المرعب «بالنخبوية»، وهي تهمة كان لها دائمًا تأثيرًا أكبر على أمريكا المُساواتيّة أكثر من أي ثقافات طبقية أخرى في أوروبا وأي مكان آخر، أو كما أقر تراوب: «يجب القول: إن النَّاس ليسوا مضللين، وإن مهمة القيادة في إزالة غشاوة التضليل عنهم. فهل تلك 'نخبوية'؟ ربما هي كذلك؛ ربما صرنا ننزع بشدة إلى الاحتفاء بموثوقية

القناعات الشّخصية كافة حتى إنه صار من النخبوية الآن الاعتراف بالعقل والخبرة ودروس التّاريخ».

مع ذلك يبدو أن المحترفين قد سئموا في أطياف المجالات المختلفة كافة بعدد من الدول، وقد شعرت بالصدمة من قدر الحكايات التي سمعتها بعد صدور مقالي الأصلي عن «موت الخبرة»، فاتصل بي: علماء، وأطباء، ومحامون، ومدرسون، وعدد من المحترفين الآخرين في أمريكا، ومن أرجاء العالم. لم يحكوا لي عن إحباطهم فحسب، لكن عن غضبهم وحزنهم من العلاقات المتدهورة مع: المرضى، والموكلين، والطلاب، وحتى فتور الصداقات الشّخصية الحميمة، كل هذا لأنهم طالبوا أخيرًا بوضع حد لتلك المحاضرات ضحلة المعرفة التي تلقى عليهم في مجال تخصصهم.

يبدو أنَّ الأطباء على وجه الخصوص قد فاض بهم الكيل، ومثال حديث على هذا أن كيميل -مرة أخرى- أعلن في العام 2015 عن خدمة عامة متهكمة يشارك فيها أطباء فعليون في إحدى الحملات بشتائم نابية ضد المرضى المعاندين الذين يخشون التطعيمات. فسأل أحد الأطباء: «هل تذكر ذلك الوقت الذي أصابك فيه شلل الأطفال؟

بالطبع لا تذكر؛ لأن والديك جعلاك تتلقح [كلمة نابية]. «في حين قال آخر: «يجب عليَّ أن أخصص جزءًا من يوم إجازتي الوحيد للحديث إليكم أيها البلهاء عن اللقاحات». فيضحك آخر ضحكة خافتة ويقول: «لأنك استمعت إلى أحد الحمقى الذين قرأوا بريدًا إلكترونيًا أُعيد إرساله».

قد انتشر إعلان كيميل على نطاق واسع، حيث أُذيع في وسائل الإعلام الرئيسة وأعيد تشغيله (حتى تاريخ كتابة هذه الكلمات) أكثر من ثمانية ملايين مرة على يوتيوب فقط. بالطبع كانت ردة الفعل سريعة، فمواقع إلكترونية مثل Infowars.com الذي يستضيف مدونين مناهضين للقاح (بالطبع) نعتوا الأطباء بالجهل وأدوات لنظام فاسد والإهانات المعتادة الأخرى. لكن يبدو أن الموجة المضادة للقاح قد انكسرت الآن، وذلك جزئي؛ لأن المحترفين ومن يدعمونهم قرروا استخدام وسائل الإعلام والإنترنت بالطّريقة ذاتها مثل متبني نظرية المؤامرة.

هذه الأنواع من الجهود في وسائل الإعلام ستنقذ حياة بعض الأطفال، لكنها ليست كافية لهزيمة الحملة التي تشن على المعرفة الراسخة أو عكس تأثيراتها في النّظام الدّيمقراطي الأمريكي. في النهاية لا يمكن للخبراء أن يطالبوا بأن يلقي المواطنون بالًا للعالم من حولهم، ولا يمكنهم الإصرار على أن يتناول النَّاس وجبات صحية أو يتدربوا أكثر، ولا يمكنهم جر المواطنين من أعناقهم بعيدًا عن آخر برامج الواقع التلفزيونية، وجعلهم يلقون نظرة على خريطة عوضًا عن هذا، ولا يمكنهم معالجة النرجسية بمرسوم.

للأسف، أشك أن قرارًا محتملًا يمكن أن يخمد كارثة وإن كانت غير متوقعة بعد، ربما تكون حرب أو انهيار اقتصادي. (هنا، أعني حربًا رئيسة تمس أمريكا أعمق من الصراعات البعيدة التي يحاربها المتطوعون الشجعان، أو أعني ركودًا اقتصاديًا حقيقيًا، وليس الكساد الذي وقع في أوائل القرن

الحادي والعشرين)، ربما يكون هذا على إثر ظهور دَهماوية جاهل، وهي عملية تجري بالفعل في الولايات المتحدة وأوروبا، أو صعود قوة تكنوقراطية ينفد منها صبرها أخيرًا، وبالتالي، تستغني عن التصويت وتعدّه مجرد شكليات.

إنَّ صناعة ثقافة فكرية وعلمية حيوية في الغرب والولايات المتحدة تطلبت نظامًا ديمقراطيًا وتسامحًا علمانيًا، وبدون تلك الفضائل تقع المعرفة والتقدم فريسة للهجمات: العقائدية، والدينية، والشعبوية. أما الأمم التي استسلمت لتلك الإغواءات، فقد عانت عددًا كبيرًا من الأقدار الفظيعة، بما في ذلك نجد ركودًا اقتصاديًا ضخمًا وفقرًا ثقافيًا وماديًا وهزيمة في الحرب.

ما زلت أؤمن بالنّظام الأمريكي، وأؤمن بأن شعب الولايات المتحدة مازال قادرًا أن ينفض عن نفسه الانغماس في الذات والعزلة، ويتحمل النَّاس مسؤولياتهم كمواطنين. لقد فعلوا هذا العام 1941، ومرة أخرى بعد محنتي حرب فيتنام وفضيحة واترجيت، وبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. لكن في كل مرة ينزلقون في حالة الرضا عن النفس، وفي كل مرة تزداد عمقًا حفرة الجهل وعدم الرضا التي يحفرونها لأنفسهم. وعند مرحلةٍ ما ربما لا يرون نور الشّمس من جديد.

لا يسعنا إلَّا أن نأمل قبل حدوث هذا أن يشارك المواطنون والخبراء وصناع القرار السياسي في نقاش مُحتدم (وإلى الآن غير مُرحَّب به) حول دور الخبرة والصفوة المتعلمة في النّظام

الدّيمقراطي الأمريكي، وقد حذر آندرو سوليفان (Andrew Sullivan) في العام 2016 بعدما انسحب من حملة دونالد ترامب في الترشح نيابة عن الحزب الجمهوري قائلًا: إن «النخبة مازالوا مهمين في النّظام الدّيمقراطي».

> إنهم يهمون ليس لأنهم أعداءً للديمقراطية، لكن لأنهم يوفرون المُكوِّن الحاسم لإنقاذ الدّيمقراطية من نفسها.
>
> يمكن للمؤسسة السياسية أن تهاجم وتحطم انصياعًا لخوارزميات الإنترنت والشعارات الوجيزة للدهماء الموهوبين، لكن ليس هذا وقت فقدان الأمل في مزيج الدّيمقراطية ومسؤولية النخبة الأمريكي الذي يكاد أن يكون فريدًا ومستقرًا.
>
> ربما يكون من الصادم القول بأننا نحتاج إلى النخبة في هذا العصر الدّيمقراطي.. خاصة مع اتساع رقعة تفاوت الثروة والفشل المتكرر للنخبة من حولنا. لكننا بحاجة إليهم على وجه التحديد لحماية هذه الدّيمقراطية الغالية من تجاوزاتها المزعزعة للاستقرار[27].

إنَّ الدّيمقراطية كما عرف سكروتيب بقصة ليويس تدل على نظام حكومة وليس حالة مساواة فعلية، فكل صوت على حدة في النّظام الدّيمقراطي مساوٍ الصوت الآخر، لكن كل رأي على حدة ليس بنفس المساواة، وكلما سارع المجتمع الأمريكي في إعادة تأسيس قواعد أساسية جديدة للتفاعل الإيجابي بين النخبة المتعلمة والمجتمع الذي يخدمونه، كان ذلك أفضل.

ينبغي على الخبراء أن يتذكروا دائمًا أنهم خدم، وليسوا سادة للمجتمع الدّيمقراطي وحكومة النّظام الجمهوري. فإذا ما صار المواطنون سادة، يجب أن يجهزوا أنفسهم ليس بالتعليم فحسب، لكن بنوع الفضيلة المدنية التي تجعلهم منخرطين في إدارة دولتهم، لا يمكن للعامة أن يؤدوا دورهم من غير الخبراء، ويجب أن يتقبلوا هذه الحقيقة بدون ضغينة، وبالمثل ينبغي على الخبراء تقبل أن مشورتهم التي قد تبدو واضحة وصائبة بالنسبة لهم، لن يعمل بها على الدوام في نظام ديمقراطي ربما لا يقدر نفس الشيء الذي يقدرونه. وإلا ، عندما تُفهم الدّيمقراطية كمطالب لا نهاية لها لاحترام لم يكتسب لآراء لا أساس لها، يصبح عندئذٍ أي شيء وكل شيء ممكنًا، بما في ذلك نهاية الدّيمقراطية والحكم الجمهوري نفسهما.

وهذا على الأقل رأيي في هذا الصدد بصفتي خبيرًا، ولربما جانبني الصواب.

الهوامش

المقدمة

(1) Pride Chigwedere et al., "Estimating the Lost Benefits of Antiretroviral Drug Use in South Africa", *Journal of Acquired Immune Deficiency Syndromes* 49 (4), December 1, 2008.

(2) Kyle Dropp, Joshua D. Kertzer, and Thomas Zeitzoff «كلما قلت معرفة الأمريكيين بموقع أوكرانيا، زادت رغبتهم في تدخل الولايات المتحدة»، *Monkey Cage Blog, Washington Post online,* April 7, 2014 .

الفصل الأول

(1) José Ortega y Gasset, The Revolt of the Masses (New York: W. W. Norton, 1993), 16-18.

(2) Richard Hofstadter, Anti- Intellectualism in American Life (New York: Vintage, 1963), 34.

(3) Ilya Somin, "Political Ignorance in America," in Mark Bauerlein and Adam Bellow, eds., The State of the American Mind (West Conshohocken, PA: Templeton, 2015), 163-164.

(4) Dana Goodyear, "Raw Deal: California Cracks Down on an Underground Gourmet Club," New Yorker, April 30, 2012.

(5) Olga Khazan %27 من الجراحين مازالوا يعتقدون أن قانون الرعاية الصحية الذي أطلقه أوباما يتضمن لجنة موت، Atlantic online, December 19, 2013.

(6) Kaiser Family Foundation, 2013 Survey of Americans on the US Role in Global Health.

(7) Henry Blodget, "Here's What Day Traders Don't Understand," Business Insider, March 29, 2010.

الفصل الثاني

(1) See David Dunning, "We Are All Confident Idiots," Pacific Standard online, October 27, 2014.

(2) Justin Kruger and David Dunning, "Unskilled and Unaware of It: How Difficulties in Recognizing One's Own Incompetence Lead to Inflated Self-Assessments," Journal of Personality and Social Psychology 77(6), December 1999, 1121-1122.

(3) Dunning, "We Are All Confident Idiots."

(4) John Allen Paulos, Innumeracy: Mathematical Illiteracy and Its Consequences, New York: Hill and Wang, 2001), 9.

(5) Michael Crichton, "Panic in the Sheets," Playboy, December 1991; archived at MichaelCrichton.com.

(6) يوجد مجال كامل في الإحصاء يدعى «استدلال بايزي»، على اسم عالم الرياضة الإنجليزي في القرن الثامن عشر، والذي يتناول هذا السؤال.

(7) Social scientists, no less than any other, are aware of this problem. See Charles O. Jones, "Doing before Knowing: Concept Development in Political Research," American Journal of Political Science 18(1), February 1974.

(8) Maria Konnikova, "How a Gay- Marriage Study Went Wrong," New Yorker, online, May 22, 2015.

(9) Jonathan Kay, "Has Internet- Fueled Conspiracy Mongering Crested?," in Mark Bauerline and Adam Bellow, eds., The State of the American Mind (West Conshohocken, PA: Templeton, 2015), 138- 139.

(10) في الواقع، حاجج الأكاديمي روس إي. شيت إن الحالات التي لم يتم التعامل معها جيداً في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين كانت لها ردة فعل عكسية، مع تأرجح بندول الرأي العام بين التصديق الدائم للأطفال الصغار إلى التشكك الكبير في أي ادعاءات تحرش على الإطلاق. مع ذلك، كان العنصر الشيطاني جزء من هذا الهرع،

ولم تجد الدراسات اللاحقة من الأكاديميين وقوات إنفاذ القانون أي دليل على وجود شبكة مماثلة في مراكز رعاية اليوم الواحد أو في أي مكان آخر.

See Ross E. Cheit, The Witch- Hunt Narrative (New York: Oxford University Press, 2014.

(11) Jef Rouner, "Guide to Arguing with a Snopes- Denier," Houston Press, April 2, 2014.

(12) Ali Mahmoodi et al., "Equality Bias Impairs Collective Decision-Making across Cultures," Proceedings of the National Academy of Sciences, March 24, 2015.

(13) Chris Mooney, "The Science of Protecting People's Feelings: Why We Pretend All Opinions Are Equal," Washington Post online, March 10, 2015.

(14) Karl Taro Greenfield, "Faking Cultural Literacy," New York Times online, May 24, 2014.

(15) Quoted in Chris Mooney, "Liberals Deny Science, Too," Washington Post online, October 28, 2014.

(16) الاختلاف الوحيد أن ردة فعل المتحفظين كانت أكثر حدة تجاه البيانات التي تعارضت مع معتقداتهم، لكن أشارت الأبحاث إن سبب هذا، وقد ذكر المؤلفون في إصدار صحفي في بحث لصالح جامعة أوهايو، «إن المواضيع التي تواجه المحافظين حاليًا هي المواضيع التي تستقطب المجتمع حاليًا». وكان البحث بعنوان، «يمكن أن يكون ل كل من الليبراليين والمحافظين انحياز علمي»، 9 فبراير، 2015.

الفصل الثالث:

(1) Daniel W. Drezner, "A Clash between Administrators and Students at Yale Went Viral," Washington Post online, November 9, 2015.

(2) دراسة من (خدمة الاختبارات التعليمية)، المجموعة التي تشرف على «اختبار سات» للالتحاق بالجامعات الأمريكية، والذي اكتشف إنه لا يوجد زيادة مرتبطة بالقدرة فيما يتصل بالزيادة المهولة في الحصول الجامعي.

See Educational Testing Service, America's Skills Challenge: Mil-

lennials and the Future (Princeton, NJ: Educational Testing Service, 2015.

Ben Casselman, "Shut Up about Harvard," FiveThirtyEight.com, (3)
March 30, 2016.

James Piereson and Naomi Schaefer Riley, "Remedial Finance: (4)
The Outsized Cost of Playing Academic Catch- Up," Weekly Standard online, May 9, 2016.

Robert Hughes, Culture of Complaint (New York: Time Warner, (5)
1993), 68.

Valerie Strauss, "I Would Love to Teach, But...," Washington (6)
Post online, December 31, 2013.

Emma Brown, "Former Stanford Dean Explains Why Helicopter (7)
Parenting Is Ruining a Generation of Children," Washington Post online, October 16, 2015.

Megan McArdle, "Sheltered Students Go to College, Avoid Edu- (8)
cation," BloombergView.com August 13, 2015.

Jeffrey J. Selingo, "Helicopter Parents Are Not the Only Problem. (9)
Colleges Coddle Students, Too," Washington Post, October 21, 2015.

Robby Soave, "Yale Students Tell English Profs to Stop Teaching (10)
English: Too Many White Male Poets," Reason.com, June 1, 2016.

Jonathan D. Glater, "To: Professor@University.edu Subject: Why (11)
It's All about Me," New York Times online, February 22, 2006.

James V. Schall, Another Sort of Learning (San Francisco: Igna- (12)
tius, 1988), 30- 37.

David Dunning, "We Are All Confident Idiots," Pacific Standard (13)
online, October 27, 2014.

Tiny Castleton State College in Vermont, now a "university," is (14)
one of many examples in New England alone. Lisa Rathke, "Switching from a College to a University Could Mean More Money, More Students," Huffington Post, July 12, 2015.

Catherine Rampell, "The Rise of the 'Gentleman's A' and the (15)
GPA Arms Race," Washington Post online, March 28, 2016.

Richard Arum, "College Graduates: Satisfied, but Adrift," in (16)
Mark Bauerlein and Adam Bellow, eds., The State of the American Mind (West Conshohocken, PA: Templeton, 2015), 68.

(17) كانت البيانات عام 2016 امتداداً لدراسات سابقة أجراها الأستاذين ستيوارت روجستاكزر وكريس هيلي، الذين استمروا في جمع بيانات حول الدرجات بعد كتابة أبحاث حول الموضوع عامي 2010 و2012. وقد احتفظوا بقاعدة بيانات بعملهم على موقع (www.gradeinflation.com).

(18) بالنسبة لاثنين فحسب من ضمن عدة تقارير لكل من المحافظين والليبراليين، انظر كاتي والدمان، «اندلاع غضب طلاب ييل بسبب اهتمام المشرفين أكثر بحرية التعبير عن المساحات الآمنة»، سليت 7، نوفمبر؛ 2015 وشوشانا ويزمان، «كيف يُنجب الأطفال»، جريدة ويكلي ستاندارد، 10 نوفمبر، 2015.

(19) Mará Rose Williams, "Race Protests at Mizzou Could Stunt Freshmen Enrollment," Kansas City Star online, January 13, 2016.

(20) Conor Friedersdorf, "The New Intolerance of Student Activism," Atlantic online, November 9, 2015.

(21) Glenn Reynolds, "After Yale, Mizzou, raise the voting age-to 25," USA Today online, November 16, 2015.

الفصل الرابع:

(1) Adrienne LaFrance, "Raiders of the Lost Internet," Atlantic online, October 14, 2015.

(2) Nicholas Carr, "Is Google Making Us Stupid?," Atlantic online, July/August 2008.

(3) Caitlin Dewey, "What Was Fake on the Internet This Week: Why Do We Even Bother, Honestly?," Washington Post online, October 30, 2015.

(4) Caitlin Dewey, "What Was Fake on the Internet This Week: Why This Is the Final Column," Washington Post online, December 18, 2015.

(5) Damian Thompson, Counterknowledge (New York: W. W. Norton, 2008), 11.

(6) Allen West, "Obama's America: Look What Our Troops Are Being FORCED to Do for Islam's Holy Month," allenbwest.com, June 29, 2015.

Michael Miller, "Gwyneth Paltrow's No Vagina Expert, Doctors Say," People online, January 29, 2015. Dr. Gunter's blog is at drjengunter.wordpress.com. (7)

Laura Hooper Beck, "I Went to a Spa for My Uterus and This Is My Story," FastCompany.com, January 27, 2015. (8)

Frank Bruni, "California, Camelot and Vaccines," New York Times online, July 4, 2015. (9)

"'Stop Googling Your Symptoms,' Teenage Cancer Victim Told before Death," Daily Telegraph, June 16, 2015. (10)

Matthew Fisher et al., "Searching for Explanations: How the Internet Inflates Estimates of Internal Knowledge," Journal of Experimental Psychology 144(3), June 2015, 674- 687. (11)

Tom Jacobs, "Searching the Internet Creates an Illusion of Knowledge," Pacific Standard online, April 1, 2015. (12)

This and subsequent references are from the University College of London CIBER Briefing Paper "The Google Generation: The Information Behaviour of the Researcher of the Future," January 11, 2008. (13)

Robert Epstein, "How Google Could Rig the 2016 Election," Politico, August 19, 2015. (14)

James Surowiecki, The Wisdom of Crowds (New York: Anchor, 2005), xii- xiii. (15)

Quoted in Tom Simonite, "The Decline of Wikipedia," MIT Technology Review, October 22, 2013. (16)

Ibid. (17)

Andrea Peterson, "Liberals Are More Likely to Unfriend You over Politics- Online and Off," Washington Post online, October 21, 2014. (18)

A. O. Scott, "Everybody's a Critic. And That's How It Should Be," New York Times Sunday Review online, January 30, 2016. (19)

Andrew Sullivan, "Democracies End When They Are Too Democratic," New York online, May 1, 2016. (20)

(21) أشرف الباحث براندان نيهان بكلية دارتموث، ضمن آخرين لعدة سنوات حول السبب الذي يجعل عديد من الناس يضاعفون من رهانهم ولا يقبلون بأن يثبت خطأهم. جو كوهان، «كيف تأتي الحقائق بنتائج عكسية: اكتشف الباحثون تهديداً مدهشًا على

ديمقراطيتنا: أدمغتنا»، بوسطن جلوبال، 11 يوليو، 2010.

(22) David Dunning, "We Are All Confident Idiots," Pacific Standard online, October 27, 2014.

(23) Megan McArdle, "Your Assessment of the Election Is Way Off," Forbes online, April 14, 2016

الفصل الخامس

(1) Sarah Kaplan, "How, and Why, a Journalist Tricked News Outlets into Thinking Chocolate Makes You Thin," Washington Post online, May 28, 2015.

(2) Mollie Hemingway, "Vox's Motto Should Be 'Explaining the News Incorrectly, Repeatedly,' " TheFederalist.com, July 17, 2014.

(3) Elisabetta Povoledo, "Pope Calls for 'Peace in All the World' in First Easter Message," New York Times online, March 31, 2013.

(4) Pew Research Center, "The Age of Indifference: A Study of Young Americans and How They View the News," June 28, 1990, 1.

(5) Richard Arum, "College Graduates: Satisfied, but Adrift," in Mark Bauerlein and Adam Bellow, eds., The State of the American Mind (West Conshohocken, PA: Templeton, 2015), 73.

(6) James E. Short, "How Much Media? Report on American Consumers." 2013. Institute for Communication Technology Management, Marshall School of Business, University of Southern California, http:// classic.marshall.usc.edu/assets/ 161/ 25995.pdf.

(7) Jan Zverina, "U.S. Media Consumption to Rise to 15.5 Hours a Day- Per Person- by 2015," UC San Diego News Center, November 6, 2013.

(8) Quoted in Benjamin Mullen, "Buyouts Hit the Dallas Morning News," Poynter. org, July 7, 2015.

(9) Quoted in Jeremy Peters, "Some Newspapers, Tracking Readers Online, Shift Coverage," New York Times online, September 5, 2010.

(10) Peters, "Some Newspapers, Tracking Readers Online, Shift Coverage."

(11) National Journal Group, Washington in the Information Age, 2015, Washington, DC.

Steven Metz, "As Celebrity Pundits Rise, U.S. National Security Policy Suffers," World Politics Review, August 14, 2015. (12)

Mindich in Bauerlein and Bellow, State of the American Mind, 101. (13)

R. R. Reno, "Trumpageddon!," First Things online, February 20, 2016. (14)

Eliot Cohen, "The Age of Trump," American Interest online, February 26, 2016. (15)

Anne Pluta, "Trump Supporters Appear to Be Misinformed, Not Uninformed," FiveThirtyEight.com, January 7, 2016. (16)

Justin McCarthy, "Trust in Mass Media Returns to All- Time Low," Gallup.com, September 17, 2014. (17)

Paul Farhi, "How Biased Are the Media, Really?," Washington Post online, April 27, 2012. (18)

Dale Maharidge, "People's Stories: What Happens When No One Wants to Print Their Words Anymore?," Nation online, March 2, 2016. (19)

Michael Nunez, "Want to Know What Facebook Really Thinks of Journalists¢ Here's What Happened When It Hired Some," Gizmodo.com, May 3, 2016. (20)

Will Saletan, "Unhealthy Fixation," Slate.com, July 15, 2015. (21)

John Bohannon, "I Fooled Millions into Thinking Chocolate Helps Weight Loss. Here's How," io9.Gizmodo.com, May 27, 2015. (22)

Joshua Foust, "The Birth (and Death) of a Meme: Embedded Reporters Don't Always Get the Story," Columbia Journalism Review online, September 10, 2008. (23)

Sheila Coronel, Steve Coll, and Derek Kravitz, "Rolling Stone's Investigation: 'A Failure That Was Avoidable,'" Columbia Journalism Review online, April 5, 2015. (24)

Emily Yoffe, "The College Rape Overcorrection," Slate.com, December 7, 2014. (25)

Quoted in Greg Jaffe, "VA Study Finds More Veterans Committing Suicide," Washington Post online, February 1, 2013. (26)

Brandon Friedman, "Military Suicides Top Combat Deaths- But Only Because the Wars Are Ending," TIME online, January 16, 2013. (27)

الفصل السادس:

(1) Helen Thompson, "Teen Schools Professor on 'No Irish Need Apply' Signs," Smithsonian.com, August 5, 2015.

(2) Geoffrey Norman, "Do I Dare to Eat an Egg," The Weekly Standard online, March 16, 2015.

(3) Peter Whoriskey, "The Science of Skipping Breakfast: How Government Nutritionists May Have Gotten It Wrong," Washington Post online, August 10, 2015.

(4) Seweryn Bialer and Joan Afferica, "Reagan and Russia," Foreign Affairs, Winter 1982-1983, 263.

(5) Stephen M. Meyer, "Testimony before the Senate Foreign Relations Committee," in Theodore Karasik, ed., Russia and Eurasia Armed Forces Review Annual 15, 1991 (Gulf Breeze, FL: Academic International Press, 1999), 348.

(6) Richard Ned Lebow and Thomas Risse Kappen, "Introduction," in Richard Ned Lebow and Thomas Risse Kappen, eds., International Relations Theory and the End of the Cold War (New York: Columbia University Press, 1995), 2.

(7) 7. العشرة هم الولايات المتحدة روسيا والمملكة المتحدة وفرنسا وجمهورية الصين الشعبية والهند وباكستان وكوريا الشمالية و[الكيان المحتل] (غير معلنة)، وجنوب أفريقيا (تم التخلي عنها). تم تفكيك ترسانة جنوب إفريقيا عندما أطيح بنظام الفصل العنصري الذي أنشأها.

(8) W. Ian Lipkin, "Anti- Vaccination Lunacy Won't Stop," Wall Street Journal online, April 3, 2016.

(9) See Richard Van Noorden, "Political Science's Problem with Research Ethics," Nature online, June 29, 2015; Brian C. Martinson, Melissa S. Anderson, and Raymond de Vries, "Scientists Behaving Badly," Nature 435 (June 9, 2005, 737-738.

(10) Carl Zimmer, "A Sharp Rise in Retractions Prompts Calls for Reform," New York Times online, April 16, 2012.

(11) Benedict Carey, "Many Psychology Findings Not as Strong as Claimed, Study Says," New York Times online, August 27, 2015.

(12) Quoted in Rachel Gross, "Psychologists Call Out the Study That Called Out the Field of Psychology," Slate.com, March 3, 2016.

(13) Daniel Engber, "Cancer Research Is Broken," Slate.com, April 19, 2016.

(14) Garret Epps, "Genuine Christian Scholars Smack Down an Unruly Colleague," Atlantic online, August 10, 2012.

(15) "'Actresses' Role in Farm Issue Stirs Criticism," Los Angeles Times online archive, May 3, 1985.

(16) Jessica Goldstein, "Is Gwyneth Paltrow Wrong about Everything? This Scientist Thinks So," ThinkProgress.com, April 21, 2016.

(17) Alexandra Petri, "Dr. Carson, This Is Not Brain Surgery," Washington Post online, November 5, 2015.

(18) This account is drawn from Paul Offit, "The Vitamin Myth: Why We Think We Need Supplements," Atlantic online, July 19, 2013.

(19) Helen Caldicott, Missile Envy (New York: Bantam, 1985), 235; Helen Caldicott, If You Love This Planet (New York: W. W. Norton, 1992), 156.

(20) ثمة ادعاء متداول في مقالات مختلفة حول كريسويل على مر السنوات بأنه تنبأ مرة بشيء على مسافة لا تسمع إلا بالصراخ بدقة غريبة. وعلى ما يبدو إنه قال للمذيع التليفزيوني جاك بار في مارس من العام 1963 أن الرئيس كينيدي لن يترشح لإعادة انتخابه عام 1964 لأن شيئًا ما سيحدث له في نوفمبر عام 1963. مع ذلك ربما تكون تلك من الخرافات الشعبية، على الأقل إلى أن يأتي شخص ما بشريط فيديو قديم أو شريط تسجيل كينكوسكوب (إن وجد).

(21) Carl Bialik, "Most Pollsters Say Their Reputations Have Worsened," FiveThirtyEight.com, December 28, 2015.

(22) Clive Thompson, "Can Game Theory Predict When Iran Will Get the Bomb?" New York Times Magazine online, August 12, 2009.

(23) Nassim Nicholas Taleb, The Black Swan (New York: Random House, 2010), xxiv- xxv.

(24) Philip E. Tetlock, Expert Political Judgment (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 20.

(25) Tetlock, Expert Political Judgment, 20.

(26) James Surowiecki, The Wisdom of Crowds (New York: Anchor, 2005), 31.

(27) Tetlock, Expert Political Judgment, 21.

See Tetlock, Expert Political Judgment, 101-103. (28)

See, for example, Tina Nguyen, "How Nate Silver Failed to Predict Trump," Vanity Fair, February 1, 2016. (29)

Noah Rothman, "Why They Think Trump Can Win in Nov?," Commentary online, April 27, 2016. (30)

Tetlock, Expert Political Judgment, 23. (31)

الخاتمة

See James Traub, "First, They Came for the Experts," Foreign Policy, July 7, 2016. (1)

Quoted in Michael Deacon, "Michael Gove's Guide to Britain's Greatest Enemy... the Experts," Telegraph online, June 10, 2016. (2)

Quoted in Stephen Castle, "Having Won, Some 'Brexit' Campaigners Begin Backpedaling," New York Times online, June 26, 2016. (3)

Quoted in Nick Gass, "Trump: 'The Experts Are Terrible,' " Politico.com, April 4, 2016. (4)

David Dunning, "The Psychological Quirk That Explains Why You Love Donald Trump," Politico.com, May 25, 2016. (5)

See, for example, Jennifer Kerr, "Educational Divide in GOP White House Race: What's behind It," Associated Press, April 3, 2016; Max Ehrenfreund,"The Outlandish Conspiracy Theories Many of Donald Trump's Supporters Believe," Washington Post online, May 5, 2016; Scott Clement, "Donald Trump Is Splitting the White Vote in Ways We've Never Seen Before," Washington Post online, May 31, 2016. (6)

(7) ادعى الصحفي جيفري جولبيرج حسب اعتقاده أن صامويلز كان يستخدم تلك المقالة لتصفية حسابات شخصية معه. انظر جيفري جولدبيرج،
"Ben Rhodes and the 'Retailing' of the Iran Deal," Atlantic online, May 9, 2016.

(8)

David Samuels, "The Aspiring Novelist Who Became Obama's Foreign- Policy Guru," New York Times Sunday Magazine online, May 5, 2016.

(9) حلقة قديمة من مسلسل ستار تريك, أذيعت للمرة الأولى عام 1986، والتي قدم فيها محاولة مضللة من أستاذ جامعي مرموق -بالطبع- ليجعل الكوكب بأكمله يسير على النهج النازي. وانتهى الأمر كله بكارثة, لكن مازال الأستاذ الجامعي المحتضر يطلق على ألمانيا النازية «أكثر الدول فاعلية التي عرفها على وجه الأرض»، مع صوت المنطق في الحلقة, للسيد سبوك, الذي يقول يضحك بكركرة, «حقيقي تمامًا». في الواقع كانت ألمانيا النازية فاسدة ومنعدمة الكفاءة, وعديد من علماءها ومثقفيها البارزين هربوا من الدولة بعد العام 1933. لكن مازال عديد من الأمريكيين على أي حال يؤمنون بخرافة الكفاءة الألمانية

(10) Daniel Libit, "How the Expert Class Got Trumped and Berned," CNBC.com, May 12, 2016.

(11) Susan Jacoby, "The Dumbing of America," Washington Post online, February 17, 2008.

(12) Friedrich Hayek, The Constitution of Liberty: The Definitive Edition Chicago: University of Chicago Press, 2011), 378.

(13) Evan Thomas, "Why We Need a Foreign Policy Elite," New York Times online, May 8, 2016.

(14) Andrew Bacevich, "Rationalizing Lunacy: The Intellectual as Servant of the State," Huffington Post, May 8, 2015.

(15) Philip E. Tetlock, Expert Political Judgment (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005), 231- 232.

(16) Malcolm Gladwell, "Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted," New Yorker, October 4, 2010.

(17) Ilya Somin, "Political Ignorance in America," in Mark Bauerlein and Adam Bellow, eds., The State of the American Mind (West Conshohocken, PA: Templeton, 2015), 166.

(18) Neetzan Zimmerman, "Kimmel Fools Hillary Supporters into Backing Trump's Tax Plan," The Hill, September 30, 2015.

(19) Ariel Edwards- Levy, "Republicans Like Obama's Ideas Better When They Think They're Donald Trump's," Huffpost Politics, September 1, 2015.

(20) Nick Saffran, "Wipe That Grin Off Your Smug Faces, Progressive Pollsters," TheFederalist.com, December 29, 2015.

Derek Kohler, "Why People Are Confused about What Experts (21)
Really Think," New York Times online, February 14, 2016.

Jacoby, "Dumbing Of America." (22)

C. S. Lewis, The Screwtape Letters with Screwtape Proposes a (23)
Toast (New York: Image, 1981), 136- 139 (emphases in the original).

José Ortega y Gasset, The Revolt of the Masses (New York: W. (24)
W. Norton, 1993, 18.

See Libit, "How the Expert Class Got Trumped and Berned"; and (25)
Julie Beck, "Americans Believe in Science, Just Not Its Findings," Atlantic online, January 29, 2015.

James Traub, "It's Time for the Elites to Rise Up against the Ig- (26)
norant Masses," Foreign Policy, June 28, 2016.

Andrew Sullivan, "Democracies End When They Are Too Demo- (27)
cratic," NYMag.com, May 1, 2016.

منشوراتُ نادِي الكِتاب

«كتاب ممتاز» – واشنطن بوست

«منظور نيكولز هو منظور أساسي إذا أردنا أن نبدأ في إخراج أنفسنا من الحفرة التي أوقعنا أنفسنا فيها».

– National Public Radio

«لائحة اتهام واسعة النطاق ضد التقليل المدمر من قيمة المعرفة» – بوليتيكو

«اشتر هذا الكتاب واقرأه بانتظام» – physics world

«جاء هذا الكتاب في الوقت المناسب... فهو مفيد في تقديم لمحة عامة عن كيفية وصولنا إلى تلك الحالة المزعجة»

– نيويورك تايمز

« قد يبدو هذا وكأنها صيحة سمعتها من قبل، لكن نيكولز لديه حس فكاهي خاص ويختار أمثلته بعناية»

– الفاينانشيال تايمز

«دليل عبقري وسط صحراء الجهل» – KIRKUS

لقد عرّضت التكنولوجيا ومستويات التعليم العالي الناس لمزيد من المعلومات أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، فقد ساعدت هذه المكاسب المجتمعية أيضًا في تأجيج موجة المساواة الفكرية النابعة من المزاج النرجسي المضلل، الذي تسبب في شل وعرقلة المناقشات المستنيرة حول أي من القضايا. اليوم، الجميع يعرف كل شيء؛ لا يتطلب الأمر أكثر من جولة سريعة على WebMD أو ويكيبيديا حتى يعتقد المواطنون العاديون أنهم على قدم المساواة مع الأطباء والدبلوماسيون. جميع الآراء – حتى أكثرها سخافة – تطالب بأن يُتعامل معها بجدية متساوية، وأي ادعاء بخلاف ذلك يُرفض باعتباره نخبوية غير ديمقراطية.

يُظهر توم نيكولز كيف حدث هذا الرفض للخبراء؛ الانفتاح الذي سببه الإنترنت، وظهور نموذج إرضاء العملاء في التعليم العالي، وتحويل صناعة الأخبار إلى آلة ترفيهية على مدار 24 ساعة، وغيرها من الأسباب. ومن المفارقات أن النشر الديمقراطي المتزايد للمعلومات، بدلاً من أن يخرج جمهورًا متعلمًا، قد أوجد جيشًا من المواطنين غير المطلعين والغاضبين الذين ينددون بالإنجاز الفكري. عندما يعتقد المواطنون العاديون أن الجميع في المعرفة سواء، فإن المؤسسات الديمقراطية نفسها معرضة لخطر السقوط إما في الشعبوية أو في تكنوقراطية بائسة أو – في أسوأ الحالات – مزيج من الاثنين.

BC_PUB
ISBN 978-603-92-0372-8
9 786039 203728
CLUB-BOOK.COM